جامعة أبي بكر بلقايد

MAG-390-31/03

كلية الآداب
و العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية

معهد الثقافة الشعبية
رقم الجرد 566
تاريخ الوصول

الموضوع :

المرأة الريفية و فعاليتها في توظيف المقدس السحري. دراسة أنتروبولوجية لمنطقة " تيزي وزو "

رسالة لنيل شهادة ماجيستير في الأنتروبولوجيا

إعداد الطالبة :
منيرة أيت صديق

مدير البحث :
الأستاذ : عبد الغني مغربي

السنة الجامعية : 2001/2000

بسم الله الرحمن الرحيم

" ... وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَاحِرُ حَيْثُ أَتَى".

الفهـــرس

- الإهداء
- كلمة الشكر
- المقدمة

I إطار المقاربة المنهجية :

- أسباب إختيار الموضوع 13
- الهدف من الموضوع 14
- الإشكالية 15
- الفرضيات 17
- تحديد المفاهيم 18
- وصف المناهج و التقنيات المستعملة 20
- المناطق التي تم فيها البحث 24
- النظريات الملائمة 24
- صعوبات البحث 25
- الدراسات السابقة 26

II الجانب النظري و الوثائقي :

الجزء الأول: الحياة الإجتماعية في منطقة القبائل

الفصل الأول : الظروف البيئية و الفئات الإجتماعية المشكلة لمنطقة القبائل.

- تمهيد 30

I ظروف المعيشة في منطقة القبائل. 30

1. الطقس و تأثيره على حياة القبائل 30
2. منابع المياه و رمزها عند القبائل 31

II الفئات الإجتماعية المكونة للمجتمع القبائلي 35

1. القبائل 36
2. المرابطون 38
3. أكلان (السود) 39

III النظام الإجتماعي التقليدي في منطقة القبائل : 39

1.ثادرث (القرية) 40
2.ثاخروبث (شجرة العائلة) 42
3.ثاجماعث (الجمعية) 43
• ملخص الفصل 46

الفصل الثاني : مكانة المرأة الريفية و دورها في المجتمع القبائلي

• تمهيد 48

I مكانة المرأة القبائلية إجتماعيا 49

1.المتزوجة 50
2.الأم 53
3.الجدة 55
4.المطلقة 56
5.الأرملة 57
- العازبة

II مكانة المرأة القبائلية و دورها في العائلة 58

1.العائلة 59
2.دور الأم في العائلة 61

III الأدوار الطبيعية للمرأة

1.الحمل 65
2.الولادة 67
3.التربية 70

• ملخص الفصل 71

الجزء الثاني : **مكانة المقدس السحري في المجتمع القبائلي**

الفصل الثالث : الإعتقادات السائدة عند القبائل

- تمهيد 74

I مصادر القوى الخفية 74

1. الأولياء الصالحين 75
2. الحراس (إعساسن) 76
3. الأرواح 76
4. الجن 77
5. التابعة 78
6. التعريضة 79
7. العين 79

II طرق التواصل مع القوى الخفية 81

1. زيارة الأضرحة و المقامات 82
2. زيارة الزوايا و دورها في علاج المس 84

III زيارة الأماكن المقدسة 89

1. الأشجار 91
2. الأحجار 97
3. الكهوف 102
4. المنابع 108

- ملخص الفصل 113

• تمهيد 115

المبحث الأول :

I المقدس و المدنس 115

1)تعريف المقدس 116
2)الطقوس وسيلة للتقرب إلى المقدس 119

II العملية السحرية و أركانها 124

1)تعريف السحر 126
2)القوة السحرية 127

أ-عامل الزمن 128
ب-المواد المقوية للعملية السحرية 128
جـ-الخروج من المألوف 129

المبحث الثاني : الساحرة و طرقها 129

1.ثادرويشث (الدرويشة) 131
2.ثامرابط (المرابطة) 131
3.ثاسحارث (الساحرة) 131
4.ثامكشفث (العرافة) 133
5.ثاقزانت (القزانة) 133
6.القابلة 133

III فعالية المرأة في توظيف السحر 136

1.السحر بدافع الزواج 138
2.السحر لإستمرار العلاقة الزوجية 143
3.السحر وسيلة للإنجاب 147

• ملخص الفصل 155

III الجانب التأويلي و الإستنتاجي للتحليل الميداني :

1 الزيارات الميدانية إلى الساحرات 157

2 التحقق من الفرضيات

أ- التحقق من الفرضية الأولى 172

ب-التحقق من الفرضية الثانية 175

جـ-التحقق من الفرضية الثالثة 177

د-التحقق من الفرضية العامة 179

- الخاتمة 182
- البيبلوغرافيا (المراجع) 186
- الملحق 196
- نموذج من المقابلة 204
- الخريطة الطوبوغرافية لمنطقة " تيزي وزو "

الإهـــــــداء

إلى أمي المعطاءة التي غرست في الأمل و علمتني الصبر و حب الحياة.

إلى أبي السخي الذي رفع عني الخوف و ألهمني الإرادة و تقديس العمل.

إلى روح أختي الطيبة نجاة التي تركت فينا شرخا و جرحا لا يندمل.

إلى أخواي منير و جمال.

إلى كل إمرأة تبحث عن مكانة لها في هذا الوطن.

إلى كل من يذكي فتيل المعرفة و ينير للإنسانية خبايا الطريق .

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي .

منـيـرة.

كلمـــــــة الشكـــــــــر

أتقدم بالعرفان و الشكر الجزيل للأستاذ المشرف و المفكر الكبير، عبد الغني مغربي الذي أبجله كثيرا و أعتبره من صفوة هذا المجتمع، الذي يضحي بكل تواضع من أجل هذا الوطن و يحمل حب الجزائر في دمه. فإني أفتخر أن تكون رسالتي هذه تحت إشرافه و قد أشعرني دائما أنها جزء من إهتماماته و إنشغالاته، و أمدني بتوجيهاته القيمة و أنارني بمعارفه الواسعة و كان بالنسبة لي مكتبة متنقلة تضم أغزر المصادر التي يمكن أن ينهل منها الباحث. فأشكره كثيرا على مساعدته لي، و أرجو أن يكون دائما – كما عرفناه – صامدا، مناضلا يعكس دوما آمال و طموحات المجتمع.

كما أشكر أخي جمال و إبن خالي عمر على مساعدتهما لي في عملية التصوير، و تنقلهما إلى أماكن عديدة في منطقة القبائل.

أشكر كذلك كل النساء الريفيات و الشيوخ على المعلومات التي زودوني بها، فأثرت رصيد البحث الأنتربولوجي الذي نحاول أن نجتهد فيه و ننجزه بكل تواضع.

المقدمـــــــة

المقدمة :

لا توجد حقيقة موحدة وعامة في المعرفة الإنسانية، خاصة عندما يتعلق الأمر بثقافة المجتمعات، لا يمكن أن تكون الظواهر الإ جتماعية معطيات مماثلة ومتشابهة دائما فيما بينها ولاتستطيع أن تضفي إلى نتائج نهائية ويقينية، يبنى عليها خطاب موحد سيما عندما ندرس المعتقدات والتصورات والممارسات القديمة، وإن بدت في شكل جديد يتناسب مع الظروف الحضارية التي يعيشها الإنسان. إن دراستنا لظاهرة السحر في المجتمع القبائلي، محاولة منا لإبراز ما ترسب من طقوس و شعائر كانت تمارسها المرأة الريفية قديما و لا تزال حية.

دراستنا الأنتروبولوجية لمنطقة " تيزي وزو " تعني بإقتفاء أثر توظيف المقدس السحري، و التركيز على فعالية المرأة الريفية في إستغلاله لتحقيق رغباتها الإجتماعية. فكان إختيارنا لظاهرة السحر لتكون موضوع بحثنا، و ليس غريبا أن يقع إختيارنا على هذه الظاهرة من بين الظواهر الإنسانية المتعددة. فلقد تركز تفكير الإنسان الفلسفي منذ الزمن السحيق حول الوجود و العدم. و من هنا تبدأ فعالية المرأة الريفية في توظيف السحر الذي يرتكز أساسا حول هذين الموضوعين اللذين يكونان جوهر الحياة الإنسانية.

فالسحر وسيلة المرأة الريفية في تحقيق وجودها ، إنه سلاحها الدفاعي الذي يحميها من الإقصاء و العدم. إنطلقنا من هذه الفرضية العامة المبنية على تحقيقات ميدانية و إستطلاعات مكثفة لمجموعة من قرى منطقة "تيزي وزو"، حاولنا من خلالها الإقتراب من النساء الريفيات المتفاوتات في السن و في المستوى الثقافي و المعيشي، كما إقتربنا من الساحرات المحترفات و إكتشفنا طرقهن و أساليبهن في العلاج. هذا الإستطلاع الأولي، قادنا إلى بناء الفرضية العامة التي تتمحور حول هدف أساسي يقتضي من المرأة الريفية أن تدافع على حقوقها و تضمن مكانة لائقة في المجتمع، فوجدت السحر وسيلة فعالة، دفاعية سريعة. كما تم بناء الفرضيات إنطلاقا من معرفتنا لمجتمع البحث، فقد دام إستطلاعناالميداني حوالي سنتين، بالإضافة إلى التحقيقات التي قمنا بها عندما كنا نعد مذكرة الليسانس حول ظاهرة السحر، لذا كنا على علم كاف بالمجتمع الذي نحن بصدد دراسته. و لو أن معرفتنا تبقى محدودة و المعطيات التي جمعناها تظل ناقصة بالمقارنة مع الكم الهائل من المعلومات التي لا نستطيع أحيانا التوصل إليها لأسباب كثيرة، أهمها : إنغلاق مجتمع البحث على نفسه نظرا لحساسية الموضوع.

بدأنا البحث عن توظيف المرأة الريفية للسحر سنة ستة و تسعين (96). لاحظنا منذ تلك الفترة إلى سنة ألفين (2000) تغيرات كبيرة في مواقف المرأة إزاء السحر، بحيث تلجأ اليوم إلى هذه الوسيلة لأغراض شخصية تؤهلها للإرتقاء إلى مكانة إجتماعية لائقة. بالتالي، يكون محور دراستنا مقتصرا على السحر الإيجابي الذي لا يرم إلى إيذاء الآخرين، بل هو سحر تنشد المرأة من خلاله إكتساب وضعية إجتماعية تؤمن لها الإستقرار و الإطمئنان.

عندما نزلنا إلى الميدان، رفضنا الفكرة المسبقة التي يبنيها الرجال عن النساء و مؤداها أن المرأة تميل بطبيعتها إلى ممارسة السحر. لكننا رفضنا التسليم بهذا الحكم الجائر و تساءلنا عن الأسباب التي تحتمها من اللجوء إلى هذه الوسيلة و بنينا الفرضيات التي تتلخص في ثلاثة محاور :

- الزواج
- إستمرارية العلاقة الزوجية
- الإنجاب

قسمنا الجانب النظري و الوثائقي إلى جزئين، تناولنا في الجزء الأول، الحياة الإجتماعية في منطقة القبائل، و تعرضنا في الفصل الأول إلى الظروف البيئية وظروف المعيشة القاسية التي تعرفها المنطقة، بالإضافة إلى الطقس المعتدل في المناطق الساحلية و البارد جدا في الشتاء و الحار في الصيف، مما يؤثر على أمزجة سكان هذه المنطقة. تؤدي المنابع دور التخفيف من الظغط الذي تعيشه المرأة الريفية، علاوة على قيمتها السحرية و العلاجية الخارقة. تطرقنا إلى الفئات الإجتماعية المشكلة للمنطقة، بحيث يبدو للملاحظ من بعيد أن المجتمع القبائلي متجانس. لكن في الحقيقة يضم ثلاث فئات هم : القبائل، المرابطون و السود، تتصهر كلها في ثقافة واحدة.

كما أشرنا إلى النظام الإجتماعي التقليدي الذي ترتكز عليه المنطقة " كثاجماعث " أي الجمعية العامة المتكونة من أعضاء يحافظون على السير الحسن لشؤون القرية، و كل من تعدى الحدود القائمة من طرف الجمعية يعاقب، فهذه المؤسسة التقليدية لاتزال تلعب دورا هاما في جل قرى المنطقة.

تعرضنا في الفصل الثاني إلى مكانة المرأة الريفية و دورها في المجتمع القبائلي، فلا يقبل وضع الفتاة العانسة، إذ تكتسب إحترام و تقدير المجتمع إذا تزوجت، ولن تضمن مكانتها في عائلة الزوج إلا إذا إرتقت إلى مرتبة الأم و أنجبت ذكورا يكونون في المستقبل سندها. أما إن فشلت و عجزت عن أداء هذه الوظيفة، تعرّضت إلى التطليق و هي وضعية قاسية، تحاط المطلقة برقابة شديدة و ينظر إليها بنظرة دونية، عكس الأرملة التي تحضى عادة بالإحترام، فوضعها يسمح لها بالخروج و العمل من أجل أولادها و أشرنا أيضا إلى الأدوار الطبيعية التي تؤديها المرأة من حمل وولادة و تربية.

بينما في الجزء الثاني، تعرضنا إلى مكانة المقدس السحري في المجتمع القبائلي، درسنا في الفصل الثالث، الإعتقادات السائدة عند القبائل، تطرقنا إلى مصادر القوى الخفية من أولياء و حراس و أرواح و جن و ما يسمى بالتابعة، الجنية التي تلاحق المرأة، فتمنعها من الحمل و الإنجاب و التعريضة، سحر يحيل دون زواج الفتاة و العين الحسودة. كل هذه المصادر تتواصل معها النساء الريفيات عن طريق زيارة الأضرحة و المقامات، زيارة الزوايا، الفضاء الذي يخصص لعلاج المس، ثم زيارة الأماكن المقدسة كالأشجار و الأحجار و الكهوف و منابع المياه. كلها فضائات خاصة بالمرأة الريفية، تتواصل معها بطقوس سحرية، تلتمس الزواج أو الشفاء من العقم أو عودة غريب، تشعل الشموع، فهذه الأماكن تخصّص أما لطقوس الطرد أو طقوس العبور، أو طقوس النداء.

شمل الفصل الرابع أهمية المقدس السحري في حياة المرأة الريفية و ينقسم إلى مبحثين. المبحث الأول، تمحور حول المقدس و المدنس و الطقوس التي توظفها المرأة للتقرب إلى المقدس. كما تطرقنا إلى العملية السحرية و أركانها،حاولنا تعريف السحر وإظهار القوة السحرية التي تخضع أساسا إلى عامل الزمن،و المواد المقوية للعملية السحرية و الخروج من كل ما هو مألوف. هذه العوامل تساهم في تقوية السحر و تمدّه بطاقة خيالية .

أما المبحث الثاني ، شمل شخصية الساحرة و التسميات العديدة التي أطلقها المجتمع عليها إنطلاقا من طبيعة عملها، فيعرف المجتمع القبائلي تسميات متنوعة، سجلناها بصدق، محاولين تحري الموضوعية في نقل و وصف نوعية أعمالهن، ثم النظرة-المتميزة و المتباينة في آن واحد- التي يضفيها المجتمع على هذه الفئات أو بالأحرى هذه التسميات، لأن عملهن في الحقيقة واحد. و أشرنا إلى طرقهن و أساليبهن في السحر و العلاج. و حاولنا أن نبين مدى فعالية المرأة في توظيف السحر من أجل الزواج ولإستمرار علاقتها مع زوجها تلجأ إلى طرق سحرية عديدة تضمن لها الحفاظ الدائم على زوجها، كذلك عجزها عن الإنجاب، يدفعها إلى توظيف السحر و الإعتماد على قدرات الساحرة لتحقيق هذه الغاية الضرورية و الملحة في المجتمع. بينما إقتصر الجانب الميداني على الزيارات المكثفة التي قمنا بها إلى بيوت الساحرات، حاولنا تقديمها بالتفصيل كما شاهدناها و عشناها في الواقع، هذا محاولة منا تقريب و توضيح الصورة قدر المستطاع إلى ذهن القارئ. كما حققنا الفرضيات لنعرف مدى تطبيق المرأة الريفية للمقدس السحري و نكتشف فعاليتها في توظيفه لأهداف خاصة.

كل هذه الجوانب النظرية و الميدانية لاحظناها في منطقة " تيزي وزو "، لذا جاءت دراستنا الأنتروبولوجية وصفا و تحليلا لظاهرة إجتماعية تضم مجموعة من الممارسات و الطقوس تحمل حقيقة واحدة هي : المرأة الريفية تلجأ إلى توظيف السحر كوسيلة دفاعية، يبدو أنها موحدة في كل المنطقة، هذا ما سنكتشفه في بحثنا المتواضع.

إطار المقاربة المنهجية :

- أسباب إختيار الموضوع
- الهدف من الموضوع
- الإشكالية
- الفرضيات
- تحديد المفاهيم
- وصف المناهج و التقنيات المستعملة
- المناطق التي تم فيها البحث
- النظريات الملائمة
- صعوبات البحث
- الدراسات السابقة

أسباب إختيار الموضوع :

كان إهتمامنا بموضوع " المرأة الريفية و فعاليتها في توظيف المقدس السحري " لسببين:
الأول : ذاتي، و الثاني : موضوعي.

السبب الأول : تمخّضت فكرة دراستنا لهذا الموضوع بالذات إثر معايشتنا لواقع المرأة الريفية في منطقة القبائل، كوننا من بنات هذه المنطقة.

دفعنا الفضول إلى أن نميط اللّثام عن وضعية المرأة الريفية، و كان حافزنا الوحيد للخوض في البحث و التنقيب عن موضوع حساس يتعلق بالمقدس السحري، يكمن في إلتماسنا عن قرب لمعاناة المرأة القبائلية و تعدد أشكال القهر الإجتماعي من قرية لأخرى، لتعم مأساة المرأة و ترتسم صورة الفتاة و الزوجة و الأم، الصارخة في وجه المجتمع الذي يطمس وجودها و يقصيها من أدنى حقوقها بمجرد أن تخفق في أداء واجباتها التي ينتظرها المجتمع الريفي من المرأة، محملا إياها المسؤولية الكاملة في الإخفاق أو الفشل. و في المقابل يزداد الرجل قوة و سيطرة و طمسا لشخصية المرأة بحكم ما خوّله المجتمع له من حقوق تسمح له بالتحكم الصارم في حياة إبنته أو أخته أو زوجته.

و إزاء هذا الوضع، لم تجد المرأة الريفية ملجأ تحتمي به سوى السحر، فرأينا أنه من الضروري البحث في هذا الموضوع و نحاول الإقتراب قدر الإمكان من حياة المرأة الريفية لعلنا نصل إلى فهم سبب لجوئها إلى السحر و ربما نصل إلى الكشف عن علاقتها مع الرجل التي كثيرا ما يشوبها الغموض.

السبب الثاني : يكمن في نفور الباحثين عن هذا الموضوع و هم فريقان :
الفريق الأول : يرى أن السحر موضوع عقيم، يتعلق بالخرافات و الأوهام، يغذيها خيال جماعات من الدراويش و المجانين، فالسحر موضوع لاطائل من ورائه و الخوض فيه هو تضييع للوقت و الجهد. لذا نلاحظ عزوف أغلبية الباحثين عن دراسة السحر، و إنصب إهتمامهم على مواضيع أكثر قيمة و أهمية في نظرهم.

أما الفريق الثاني : فنظرته إلى هذا الموضوع مختلفة، بحيث يدرج السحر كعنصر من عناصر الثقافة يعكس معتقدات و سلوكات و تفكير المجتمع. لذا النبش في الثقافة أمر حساس يثير الهيبة و الخوف. فارتأى هذا الفريق أن لا يبحث في هذا الموضوع لإعتبارات تكون دينية و إيديولوجية.

لهذه الأسباب نجد ندرة فادحة في المراجع و المصادر سيما الرسائل الجامعية، دفعتنا هذه الأسباب كلها للإهتمام بموضوع السحر و فعالية المرأة الريفية في توظيفه لأغراضها الخاصة. و أردنا أن نبين خاصة للباحثين و الطلبة و للمجتمع بأسره، أن السحر موضوع الساعة، تتفاقم هذه الظاهرة يوما بعد يوم و تنتشر وسائلها بسرعة رهيبة، و إن كانت إلتفاتتنا إلى منطقة القبائل بحكم معرفتنا و معايشتنا لها، سوى نموذج مصغر للمجتمع الجزائري. و علينا أن نعترف – كباحثين على الأقل – بأهمية هذا الموضوع و ضرورة دراسته و البحث عن أسبابه، أهدافه، و نتائجه، علنا نتوصل إلى فهم أوسع و أنجع لثقافتنا.

الهدف من الموضوع :

شاهدنا و لمسنا حقيقة ولوع المرأة الريفية في منطقة القبائل بالسحر، و كنا نسمع دائما مقولة تتداول بين الرجال و هي : " المرأة شيطان " أو " المرأة أخت الشيطان " أو " المرأة ضعيفة أمام الشيطان "، و الرجل القبائلي يحترس كثيرا من كيد المرأة و يرى أنها قابلة لتسحيره في كل وقت بإعتبارها حليفة الشيطان تضمر للرجل الشر و الحقد و الكراهية، إنها طبيعة المرأة، لذا يجب تقييدها و السيطرة عليها لحصر قوة الشر الكامنة في أعماقها و دحض رغبتها في ممارسة السحر. و يصل خوف المجتمع من المرأة إلى إمتناع الرجل من تناول طعام قدمته له جارته أو إمرأة من قريته و أحيانا يخاف حتى من قريبته، معللا دائما موقفه بأن المرأة قادرة على سحره و إيذائه، لذا فهو ينصح بني جنسه من الحذر الشديد من كيد المرأة.

و كنا نلاحظ مدى إمتلاء بيوت السحرة بالنساء و تلك حقيقة ثابتة، لكننا رفضنا التسليم بالحكم الجائر على المرأة بأنها شيطان، و تساءلنا عن الأسباب التي دفعتها إلى السحر ؟ و لكي نفهم هذه الأسباب، علينا أولا أن نحلل البنية الداخلية و نفهم النظام الداخلي للمجتمع الريفي و المنطق الذي يسيّر وظائف الرجال و النساء في منطقة القبائل. حينئذ، نهتدي إلى الأسباب التي جعلت المرأة تولع بالسحر.

هدفنا إذن يكمن في البحث عن هذه الأسباب النابعة من عمق المجتمع القبائلي، نحاول الكشف عن هدف المرأة الريفية الأساسي في ممارستها للسحر الذي تجد فيه وسيلة ناجعة تدافع بها عن مكانتها في هذا المجتمع الذي يقيّمها بالسلب و يرى صورة الشيطان تتمثل فيها.

لعلنا نتوصل إلى إسقاط هذا الحكم المسبق عليها. و نعتقد مبدئيا أن دراستنا النظرية و الميدانية، تقودنا إلى الكشف عن غاية المرأة الريفية في السحر، علما أن كل ظاهرة إجتماعية لها أسبابها و أهدافها كما سيتضح لنا لاحقا.

الإشكالية :

إن المتمعن في طبائع و قيم شعوب حوض المتوسط، يلاحظ تقارب و تشابه كبير مع قيم و عادات المجتمعات الإسلامية التي كانت و لا تزال قائمة إلى يومنا هذا رغم تعاقب الأجيال و تطور الشعوب.

فحضور العنصر النسوي في المقاهي مثلا يبدو اليوم في بعض جهات إيطاليا أمرا غريبا، كما هو الحال تماما في بغداد و كثير من الدول العربية. باسم الشرف توضع حدود فاصلة بين الجنسين و تقصى المرأة من ممارسة حقها في الحياة و في المجتمع و في التقدم الذي تحرزه الأمم. و في بعض الأحيان، يعود المجتمع إلى بدائيته و يمارس وحشيته على المرأة، فتقمع خوفا من العار، و تقتل غسلا للعار. و بذلك تأخذ " جريمة الشرف "شكلا طبيعيا في بلدان متوسطية كجنوب إيطاليا، اليونان و عربية كلبنان، العراق و المغرب بأسره. ضلت المجتمعات العربية الإسلامية سواء في الشرق أو في الغرب تتمسك بالعادات المتوارثة عن الأجداد و ترفض الإنسلاخ عن الماضي و تعتقد أن إدماج المرأة في المجتمع إلى جانب الرجل هو خروج عن الأنظمة الإجتماعية المعتادة. و إزاء هذا التهميش، خرجت نساء المشرق و المغرب يطالبن بحقوقهن و يثبتن قدراتهن و يفرضن وجودهن في مجتمع يرفض أي شكل من أشكال التغيير. و بفضل الجهود المتواصلة، حققت المرأة العربية خطوات هائلة نحو التقدم و ترقية وضعيتها الإجتماعية و الثقافية. فكانت المرأة الجزائرية تتابع بانتباه المراحل التي مرت بها في مصر مثلا فحذت حذوها. و كان لإندلاع ثورة التحرير في 1954 أثرا كبيرا في حياة المرأة في الجزائر، إذ وجدت نفسها تشارك مع الرجل المسؤولية و العمل خارج البيت، بل و كانت عضوا فعالا في إنتزاع الحرية و الإستقلال.

و منذ 1962 و المرأة الجزائرية تناضل من أجل ترقية حياتها و تسوية وضعيتها. و إستطاعت فعلا أن تبرهن على جدارتها في جميع ميادين الحياة. حقيقة أن المرأة تحرّرت من قيود كثيرة، خاصة في المدن الكبرى أين يسهل الإنسلاخ عن العادات البالية و المحظورات و النواهي التي تعرقل طموحات المرأة و تكبل آمالها.

في الوقت الذي تلتفت فيه الأنظار إلى المرأة الحضرية و تركز العناية عليها، تهمل المرأة الريفية، فتزيد وضعيتها صعوبة و تعقيدا.

و في أواخر التسعينات فقط، بدأت السلطات تلتفت قليلا إلى واقع المرأة الريفية و تذكرها وسائل الإعلام مرة في كل عام بمناسبة عيدها العالمي. و إن ذكرت تربط دائما بخدمة الأرض و كأن دورها يقتصر على خدمة الأرض رمز العطاء و الخصوبة. و في المقابل، ينتظر منها أيضا أن تكون خصبة، مولدة. بينما مشاكلها اليومية، عزلتها، آمالها و أحلامها لا تجد صدى لمن يميط عنها اللثام.

و ما فتئت الخطابات و الشعارات و النداءات تطالب بالإهتمام بوضعية المرأة الريفية و إعادة الإعتبارلها و فتح آفاق جديدة تساعدها على تخطي عقبات المعيش اليومي و ذلك بمنحها فرص التعليم و التثقيف. لكن خلف هذه الواجهة الرّسمية ما تزال المرأة في الريف تعاني من الأمية و الجهل، بل تلقن منذ الصغر تعاليم صارمة تحدد سلوكها و تقولبه في شكل يتناسب مع القيم الإجتماعية. هكذا يسلط القمع و القهر على المرأة بدافع الحماية و الحفاظ على التقاليد. و بما أن المجتمع القبائلي مجتمع ذو طابع ريفي يكاد يشكل قرية كبيرة منغلقة على نفسها محافظة على عاداتها و طبائعها، بحيث تبدو للملاحظ من بعيد وحدة مترابطة، متجانسة. و نظرا لطبيعة هذا المجتمع الذي يحرص – أشد الحرص – على شرفه و حرمته، هذا ما دفعه إلى فرض قيود قاهرة على المرأة و إن حاولت الإفلات منها تزجر و تعاقب و تسلط عليها أنواع لا حصر لها من السخط و الشتيمة. و لا تزال المرأة القبائلية تتعايش مع واقعها المؤلم إلى يومنا هذا. لا تملك الحق في التعبير عن معاناتها و قلقها الدائم في مصير مجهول و علاقة جافة تربطها مع زوجها الذي لا يلتفت إليها سوى لأغراضه الخاصة و حاجاته البيولوجية و لا ينتظر منها إلا الطاعة العمياء و الرضوخ لأوامره. لذا، فإن مجرد الحديث عن علاقة الرجل بالمرأة في المجتمع القبائلي، يحيلنا مباشرة إلى علاقة المرأة بالسحر.

إذا حاولنا التطفل على حياة المرأة الريفية في المجتمع القبائلي، لأدركنا هذا الجانب المخفي من معتقداتها بحيث تسعى لتنظيم حياتها وفق " منطق السحر ". يصبح السحر إذن، المنفذ الوحيد للمرأة المقهورة إجتماعيا و ثقافيا و نفسيا و جسديا ... فتنفس فيه عن هذا الظغط الذي يلازمها يوميا و تلجأ إلى وسيلة سريعة تجد فيها راحتها النفسية حين تمارسها.

بالطقوس تتقرب المرأة إلى المقدس السحري و تحقق معه أقصى درجات الإتحاد و الإلتحام و تسقط عنه رهبته من حين لآخر ... و كثيرا ما توظفه لشؤونها الخاصة و لا تتوان في إستغلال قدرته في التخفيف عن مأساتها و تكرس طاقتها و إرادتها القوية في إختلاق وسيلة ناجعة للدفاع بها عن نفسها و الوقاية الصارمة لأي طارئ يمكن أن يعكر صفو حياتها. و بالتالي، فإن المرأة القبائلية في الريف، تفلت من القسر الإجتماعي و من التهميش الذي يهددها بمجرد أن تفقد الوظائف التي يفرضها عليها المجتمع، و من ثمة، تلجأ إلى إثبات فعاليتها في توظيف المقدس السحري.

فهل تعتقد المرأة الريفية أنها تغير وضعيتها بممارسة السحر ؟

هل إعتمادها على السحر يؤمّن لها حياتها و مستقبلها ؟

و هل ترمي من وراء ذلك إلى إشباع حاجة ما لا سبيل لتحقيقها إلا بتوظيف السحر ؟

الفرضية العامة :

توظف المرأة الريفية السحر كوسيلة دفاعية سريعة تؤهلها لإثبات مكانتها اللائقة في المجتمع.

الفرضيات الجزئية :

1- تلجأ المرأة الريفية إلى أساليب السحر لتحقيق رغبتها الملحة في ضمان زوج لها.

يرفض المجتمع الريفي وضع المرأة العازبة ويسلط عليها أنواع الشتيمة و القمع والسخرية، فتلجأ إلى السحر وسيلة ناجعة تضمن بها الزواج .

2- تعتمد المرأة الريفية على السحر كوسيلة حاسمة تحافظ بها على إستمرارية العلاقة الزوجية.

ينظر المجتمع القبائلي إلى المرأة المطلقة بنظرة دونية و يمارس عليها رقابة مشدّدة فهي دائمة الخوف من السقوط في هذه الوضعية و لتحافظ على استمرار زواجها تعتمد على السحر .

3- تمارس المرأة الريفية السحر لتحقق حاجتها الضرورية في الإنجاب.

تضمن المرأة مكانتها في عائلة الزوج بصفة دائمة إن ارتقت إلى مرتبة الأم و ترى أن السحر يؤهلها لذلك و يحقق لها لإستقرار.

تحديد المفاهيم :

الإنسلاخ : كلمة عربية من فعل إنسلخ بمعنى تجرد.و يرى " ن. طوالبي " في بحثه عن " الإنسلاخ الثقافي " أن بعض العائلات المدينية الأكثر إنسلاخا لثقافتها يعود السبب في ذلك إلى الإغراء الذي تمارسه رموز الحياة العصرية على هذه العائلات. بالإضافة إلى مستواها الإجتماعي و الإقتصادي. الإنسلاخ هو نوع من الإنزياح الثقافي، في إطاره يفلت الفرد من القيم و العادات و التقاليد التي تعرقل طموحاته، فالرجل الريفي مثلا، أكثر إنسلاخا لثقافته من المرأة بسبب إحتكاكه بالخارج.

التجانس : بمعنى الترابط و التشكل بعناصر من طبيعة واحدة، فالريف متجانس لأنه يضم نوعا واحدا من السكان، بينما المدينة غير متجانسة، تضم نوعيات مختلفة من السكان و الطبقات الإجتماعية و المستويات التعليمية و المهن.

منطق السحر : إستعرنا من العلم مفهوما خاصا به و هو " منطق " لنوظفه على السحر، لأن كل من العلم و السحر يهدفان إلى القدرة و المعرفة. لكن منطق السحر يختلف عن منطق العقل الذي يرتكز عليه العلم، و المبني على منهجية و فرضيات تحلّل و تحقق ميدانيا و نتائجه تعمّم على العالم و الكل يستفيد منها علانية. أما منطق السحر، يختلف، ينغلق في نظرية و فلسفة خاصة به، يؤمن بمعادلات و علاقات سببية بين الأشخاص و الأشياء و لا يهدف إلى إثباتها. إنطلاقا من هذه المعادلات يتم تفسير الواقع و التنبؤ بالمستقبل، و كذلك تغيير الأوضاع و الحالات الراهنة بوسائل هي بذاتها تخضع لمنطق سحري.

الطقوس : " هي مجموعة حركات سلوكية متكررة يتفق عليها أبناء المجتمع و تكون على أنواع و أشكال مختلفة تتناسب و الغاية التي دفعت الفاعل الإجتماعي أو الجماعة للقيام بها " (1). تكون الطقوس – في نظرنا – عبارة عن وسائل و طرق عملية و تشمل الطلاسم، الأحجية، البخور، العقاقير، النباتات، الحيوانات ... إلخ و طرق كلامية تحتوي على معادلات، أقوال، أدعية، و كلام في السّر أو في الجهر. و بواسطة هذه الوسائل العملية و اللفظية يتقرب الفرد إلى المقدس و يكتسب الساحر قدرات خارقة.

القسر الإجتماعي : هو القهر و الضغط و الإكراه الذي يمارسه المجتمع على الفرد. و المرأة الريفية تعيش تحت وطأة القهر الذي كان جزّاء العادات و التقاليد التي تحكم عليها بالإقصاء.

(1) دينكن ميشيل : ***معجم علم الإجتماع***، ت، إحسان محمد الحسن، ط 2، دار الطليعة، بيروت، 1986، ص 176

<u>المقدس</u> : يرى "MAUSS" : " إن الأشياء المقدسة هي بالضرورة أشياء
و يطلق مفهوم المقدس على كل ما يتعلق بالجماعة و أعضائها.
نقول أيضا أن المقدس يحمل حقيقة جوهرية تكمن في ضرورة
الأفراد يعكسون من خلاله طبائعهم، وجودهم و طريقة تفكيرهم و
للعالم، لذا كلما شعروا بضيق أو خطر يهدّدهم لجأوا إليه و طلبوا منه الحماية
و الأمان. و أحيانا، يسقطون عنه رهبته و يحققون معه أقصى درجات الإتحاد
و من خلاله يتطلعون إلى تعديل أوضاعهم الراهنة.

(1) MAUSS Marcel, **<u>les fonctions sociales du sacré</u>**, Edition de Minuit, PARIS 6, 1968, P 5

وصف المناهج و التقنيات المستعملة:

نظرا لقلة المصادر و المراجع الخاصة بالسحر، إرتأينا تناول هذا الموضوع فـ
و إعتمدنا على آراء النساء، لذلك جاءت الدراسة ميدانية أكثر مما هي نظرية. جمعنا آراء المسنين و مواقف النساء و حاولنا تحليل أفكارهم لنعرف عن قرب كيف تمارس المرأة الريفية السحر في الواقع ؟ و كيف توظفه في حياتها الخاصة ؟ و كيف تحقق و ظائفها الإجتماعية؟ ثم كيف تكتسب به مكانتها في المجتمع؟

لطبيعة الموضوع الذي نحن بصدد تناوله، جاءت دراستنا كيفية و ليست كمية، و بما أنه موضوع حساس، فإن مجتمع البحث منغلق على نفسه، يرفض الإنفتاح كثيرا على الموضوع، لكي نجمع عدداكبيرا من المعلومات و المعطيات، أدمجنا مجموعة من النساء كن بمثابة مخبرات إلى مجتمع البحث الواسع، و إستطعن أن يجمعن عددا هاما من المعلومات، كما كن – بالنسبة لنا – همزة وصل مع الساحرات و كثيرا ما كن لنا مرشدات بحيث أعطين لنا – في أحايين كثيرة– عناوين و أسماء نساء يمارسن السحر، و كوننا من الجنس اللطيف سهل لنا مهمة الإندماج مع النساء و الإحتكاك بهن في مواقف ووضعيات مختلفة و قد قسمنا مجتمع البحث إلى خمس فئات :

1. الساحرات : كنا نختلق أسباب مقنعة للزيارة، إما نقصدهن للزواج و إما للمحبة و توطيد العلاقة الزوجية أو لغرض الإنجاب.
2. الفتيات : كنا نجري معهن مقابلة لمعرفة سبب مجيئهن إلى الساحرة.
3. النساء اللواتي يرغبن في عقد سحر المحبة للزوج.
4. النساء اللواتي يقصدن الساحرة للإنجاب.
5. المسنين و المسنات، خاصة المعالجات و العارفات بفنون السحر و التطبيب التقليدي.

و في خلال تحقيقنا الميداني توصلنا إلى إكتشاف مجموعة من القواسم المشتركة بين كل الساحرات اللواتي قمنا بزيارتهن و هي كالآتي :

1. معظم الساحرات هن إما أرامل، مطلقات، أو غير متزوجات، حتى المتزوجات هجرن أزواجهن. هذا ما يؤكد الفكرة التي إعتمدناها سلفا، بأن الساحرة عادة إمرأة عاجزة على أداء وظائفها الإجتماعية، فشعورها بالنقص يدفعها إلى السحر.
2. معظمهن يشتغلن في الصباح فقط، يعلّلنا ذلك بالجن التي لا تهبط وقت الظهر.
3. لا يطلبن مبلغا كبيرا، ما يسمى " بالوعدة "، و لكن كلما كانت القيمة مرتفعة، كلما كانت "الزيارة " ثرية و بالتالي، المعلومات مرهونة أيضا بالمال.
4. تشترك " الدرويشات " في نفس الأعراض عندما تبدأ " الزيارة "، كالعطس، إنتفاخ البطن، القيء، الشعور بشيء خانق يكبل أنفاسهن.
5. إستعمال السبحة كوسيلة للكشف عن الغيب.
6. كل ساحرة تفك السحر، هي قادرة أيضا على عقده، فمن تمارس السحر الإيجابي تمارس السحر السلبي أيضا.
7. معظم هذه الساحرات يتركن بابا أو نافذة مفتوحة، تقابلهن كي تدخل منها الجن التي تمد لهن الأخبار.
8. لا توجد ساحرة واحدة إستطاعت أن تكشف أمرنا و تعرف أنها في حقل إختبار.

نظرا لأهمية الزيارات الميدانية التي قمنا بها، إرتأينا أن نسردها بالتفصيل في الـ
و الإستنتاجي للتحليل الميداني، لنجعل القارئ يشارك معنا في الملاحظات و يتعرف أك
الساحرة المتعددة و وسائلها في العلاج. أما بالنسبة للمناهج المعتمدة في دراستنا المتو
إخترنا المنهج الوصفي التحليلي، باعتباره الأنسب لطبيعة موضوعنا، فكل محاولة لتفسير طاقة و قوة و أصل و جوهر المقدس السحري، سيجعلنا بلا شك نصادف مشاكل ميتافيزيقية. لهذا السبب، ترتكز دراستنا الأنتروبولوجية عل الوصف معتمدة على المظاهر الخارجية للمقدس إنطلاقا من مواقف المرأة إزاء المقدسات، و كان منهجنا في العمل تحليل الممارسات السحرية التي توظفها المرأة الريفية.

كما إعتمدنا في عملنا الميداني على المنهج الإثنوغرافي الذي يقتضي مشاركة الباحث في حياة المجموعة المدروسة بحيث تعتبر ضرورة و تشكل منبع للمعارف التي يحتاجها للدراسة. و تطبيق المنهج الإثنوغرافي في المجتمعات الحديثة كان في مدرسة " شيكاغو ". علينا أن نشير إلى أن العمل الميداني في حدّ ذاته، يعتبر منهج و موضوع في الوقت نفسه.

أما التقنية المستعملة في دراستنا فهي تحليل المحتوى الكيفي لأن ما يهمنا في بحثنا هو موضوع السحر، فتحليل المحتوى " هي تقنية تحليل المعطيات، ترمي إلى وصف و تفسير المحتوى الظاهر من خلال الإتصالات... " (1).

كما إعتمدنا على الملاحظة المشاركة كتقنية إثنوغرافية تقتضي البحث داخل المجموعة التي يتم فيها التحقيق و المشاركة في ممارسة السحر و أداء بعض الطقوس و التحدث بلغة الساحرة و ذلك يتطلب إتقان المصطلحات الخاصة بميدان السحر، فكنا نشارك الفتيات اللواتي يرغبن في الزواج في إقتناء العقاقير و الأعشاب و أداء مجموعة من الطقوس، كنا نخرج معهن إلى الأماكن المقدسة، كزيارة المغارات و الأشجار و عيون الماء ، كنا نحاول أن نلبس مثل النساء الريفيات و نتكلم بلغتهن و نشاركهن الطعام و هذا ما حدث في بيوت الساحرات، أو في المقامات أو في " الوعدات ". كذلك شاركن النساء في تحضير طقوس إحتفالية، كعاشوراء و المولد، أين تغتنم الفتيات الفرصة و تؤدي طقوس لغرض الزواج، و إستطعنا أن نقترب من الساحرة، فقمنا بدور الفتاة التي تقصد الساحرة للزواج، و كم من مرة، طلبنا منها أن تعالجنا من السحر أو من العين أو من التعريضة، وكانت تفعل ذلك أحينا بإعطائنا الملح نغسل به، أو تضعه في كيس صغير و تدلك به كتفنا و ظهرنا و تتمتم بكلام غير مفهوم، كما تلجأ إلى معالجتنا من العين الحسود " بضرب الخفيف "، أي بتذويب الرصاص إلى غير ذلك من الطقوس التي كنا نشارك فيها، و علينا أن نقيس درجة خطورة هذه الملاحظة التي سمحت لنا بالإقتراب و التكيف الواسع مع مجتمع البحث.

(1) MACE GORDON, guide d'élaboration d'un projet de recherche, prèsses de l'université Lavale, Canada, 1988, P 96

كما تبنّينا الملاحظة المباشرة في موضوعنا بما أنه دراسة أنتروبولوجية، سمحت لنا هذه الملاحظة من جمع المعطيات المتعلقة بالمرأة التي تعقد السحر لزوجها للمحبة و إستمرار علاقتهما الزوجية و كذلك المرأة التي تلجأ إلى السحر للإستشفاء من العقم أو لإبطال مفعول السحر. لم نتمكن من إستعمال الملاحظة المشاركة لأن ذلك يتطلب منا إحضار لوازم الزوج أو عقد السحر عليه مباشرة، و فيما يخصّ معالجة العقم بالسحر ، لم نستطع المشاركة نظرا للطقوس الخاصة التي تؤديها المرأة و لطبيعة السحر الذي توظفه بغرض الإنجاب. فإعتمدنا الملاحظة المباشرة في الميدان و شاهدنا ممارسات المرأة السحرية، و إستطعنا أن نجمع المعطيات و نسجل الملاحظات مباشرة بعد خروجنا من عند الساحرة. لم نتمكن من إستعمال المسجل الصوتي لخطورته، كنا نعتمد على الذاكرة و بمجرد خروجنا نسجل الملاحظات و نحصر المعلومات في ملفات. كل ملف بعنوان، المعلومات الخاصة بالجانب النظري و المعلومات الميدانية، و ملف الإطار المنهجي و ملف تدرج فيه كل الملاحظات الميدانية.

و بما أن دراستنا أنتربولوجية فهي من النوع الكيفي يستحيل توزيع إستبيان على العينة المدروسة في الميدان، و نظرا لطبيعة الموضوع الذي يتناول سحر المرأة الريفية، إعتمدنا على مقابلة نصف موجهة تقتضي على الباحث " أن يتنبأ بمجموعة من الأسئلة يطرحها على المستجوبين تكون بمثابة نقاط مرجعية " (1).

كان إختيارنا للمقابلة نصف موجهة لإعتبارات أهمها:

1- المعلومات التي نجمعها في هذا الإطار تعكس المواقف الحقيقية للمستجوبات، أحسن من المقابلة الموجهة بما أن المرأة التي يتم إستجوابها تملك حرية في التعبير عن آرائها و مواقفها.

2- المعلومات المتحصل عليها في الميدان تأخذ و قتا محدودا و قصيرا و نوجه المرأة إلى إعطائنا إجابات محددة، لا تخرج عن موضوعنا، أما في المقابلة الحرة، تتشعب الآراء و تتعدد الأجوبة و يطول الوقت دون حصر الأجوبة الهامة و قد تعطى لنا معلومات عامة لا تفيد بحثنا.

أما العينة التي إعتمدت عليها دراستنا فكانت مبنية على :

أجرينا إثنتا عشر (12) مقابلة على الفتيات المقبلات على الزواج يتراوح سنهن بين خمسة و عشرين سنة (25) إلى ثمانية و ثلاثين سنة (38) . أجمعت الفتيات الإثنتى عشر على أن السبب الذي منعهن من الزواج هو التعريضة هذا العارض يكمن في السحر عادة أو في العين أو التابعة .

أجرينا ثماني (8) مقابلات على النساء المتزوجات يتراوح سنهن بين خمسة و ثلاثين سنة (35) إلى خمسة و أربعين سنة (45). تعددت آراءهن و مواقفهن : من جاءت إلى الساحرة لتحجب زوجها خوفا من خيانته لها . من تشك في زوجها، جاءت تستفسر عن إخلاصه و وفائه. من تركها زوجها و تعلّق بإمرأة أخرى، تعقد له السحر لتسترجعه . و من رأت نفسها أنها مريضة أو عاجزة و تعرف أن زوجها سيرتبط بإمرأة أخرى، تسعى لربطه بالسحر .

(1) Deketelle Jean Marie, Rogiers Xavier, Méthodologie du Recueil d'Informations, 3 ème édition, DEBOECK Université, Paris, Bruxelles, 1996, p, 19

أجرينا ست (6) مقابلات مع نساء تزوجن منذ سنوات و لم يحصل الحمل، تتراوح أعمارهن بين ثلاثين سنة (30) إلى إثنين و أربعين سنة (42) . مقابلتين (2) تؤكد أن سبب العقم يعود إلى مفعول السحر من طرف الأعداء .ثلاث (3) مقابلات ترجع العقم إلى التابعة.

إقتصرت العينة على هذا العدد من المقابلات نظرا للوسائل المتاحة لنا و المتعلقة ب :

أولا : الوقت، لم يسمح لنا بإجراء عدد أكبر من المقابلات، لأن معظم الساحرات لا يشتغلن بعد الظهر، لذلك كنا نجري في الزيارة الواحدة حوالي مقابلتين لكل فئة، و كان عدد الفتيات أكبر بكثير من المتزوجات لذا تمكننا من إجراء 12 مقابلة .

ثانيا: المال، المتمثل في "الوعدة" التي كنا نعطيها للساحرة في كل زيارة، لا تقل عن خمسين دينار (50دج) و كلما كان المبلغ مرتفعا، كلما كان التجاوب أكثر .و بما أن المقابلات تجرى كلها عند الساحرة، لم تسمح لنا ظروفنا المادية تكثيف عدد المقابلات أكثر من هذا.

كانت المقابلة مهيكلة تدور في إطار مصطنع، في بيوت الساحرات فارتأينا أن نثري بحثنا بمحادثة حرة، بصفة مطلقة، تجرى في إطار حر كالشارع، عند العطارين و العشابين، كنا نسأل النساء عندما يقتنين العقاقير و الأعشاب لأغراض سحرية، و نشاركهن في شراء هذه المواد حتى نكتسب ثقتهن و إخلاصهن لنا.

كما كنا نلتقي مع النساء في المقامات و الأماكن المقدسة و في الأعياد و المناسبات الدينية و حتى عند منبع الماء بالقرية، المكان المفضل للمرأة الريفية، كنا نسمع حكايات عن الحب و الزواج و السحر، و نتبادل معهن الحديث بصفة حرة في الوقت الذي نشاركهن نشاطتهن، فنجلب مثلهن الماء، و غالبا ما تكون المواضيع المقترحة علينا أثناء المحادثة غير مهمة بالنسبة لنا، و لا تخدم موضوعنا، لكننا، لا يحق لنا رفضها، كنا نتقبلها و نحاول فرز المعلومات التي تهمنا، سمحت لنا هذه المحدثات مع المجموعة المدروسة أن نخرج من الإطار المصطنع و عن طريقها توصلنا إلى التكيف مع كل الفئات و حدث إنسجام كبير بيننا، مكننا من جمع معطيات دفعتنا إلى فهم المجتمع الريفي و تحليل مواقف المرأة القبائلية إزاء موضوع السحر.

و من بين التقنيات المادية التي إستعننا بها لإنجاز هذا البحث المتواضع، إستعملنا الصور الفوتوغرافية للأماكن المقدسة، و تعذر علينا تصوير الساحرة أو الزائرة، رغم تحايلنا، رفضتا خوفا من تفشي أمرهما.

كما إستعملنا آلة " الكامرا " لتصوير الأحجار المقدسة و الأشجار و الكهوف و المنابع وإدراجها في أشرطة " فيديو" (Vidéo).

بالإضافة إلى إعتمادنا على خريطة طبوغرافية لمنطقة " تيزي وزو " توضح المناطق التي تمت فيها دراستنا و القرى التي تركز فيها بحثنا الميداني.

المناطق التي تم فيها البحث: (أنظر الخريطة الطبوغرافية لمنطقة " تيزي وزو ") (1)

1- المنطقة الساحلية الوسطى : تشمل كل من منطقة تيقزيرت و التي تضم قرية الشرفة، قرية تيفرة، و قرية سيدي خالد. منطقة إقليسن تضم كل من قرية تيمليلين،إمسونن، بوقلال، إفلكان، أيت يوسف، أيت سي أعلي. و منطقة واقنون، تضم قرية ثلا عثمان و ماكودة.

2- المنطقة الساحلية الشرقية : تشمل على منطقة عزازقة و التي تضم كل من قرية ثمعسيث، هندو، الشرفة بهلول، تيميزار، أبيزار. و منطقة أزفون، تضم سيدي القرشي.

3- المنطقة الوسطى للقبائل : تشمل منطقة تيزي وزو التي تضم كل من : قرية رجاونة، بالوا، ترمتين، مقلع، صوامع، تيزي راشد. إقتصر بحثنا على هذه المناطق بالذات لغناها بالفولكلور السحري، و أخذنا القرى المذكورة سلفا كنماذج. فكل منطقة حاولنا أن ندرس فيها قريتين أو ثلاثة على الأقل، تعكس جزء من معتقدات و طقوس و مقدسات القبائل، التي نلمس وجودها واستمراريتها إلى اليوم محافظة دائما على تراث الأولين. و لم يتسنى لنا دراسة المناطق الأخرى، خاصة القرى المترامية على قمم جرجرة، هذا لصعوبة المسالك و بعد هذه المناطق و عزلتها، فذلك يتطلب أموالا كثيرة و وقتا كافيا ربما يؤهلنا للإلمام بكل منطقة القبائل الشاسعة.

النظريات الملائمة :

فيما يخص النظريات التي تلائم دراستنا و التي إعتمدنا عليها ، إخترنا النظرية الوظيفية التي ترى أن في كل أنواع الحضارات، في كل عادة، في كل أداة و في كل معتقد تكمن وظيفة أساسية و تؤدي مهمة معينة و تمثل جزء هاما من الكل. هذه النظرية تركز أساسا على مفهوم الحاجة، فالمجتمع يمثل وحدة كلية يسيرها نسق وظيفي. رأينا، أن المرأة الريفية في منطقة القبائل تمارس السحر بدافع الحاجة إلى إثبات مكانتها في المجتمع و تؤدي بذلك وظيفة دفاعية.

إعتمادنا على النظرية الوظيفية غير كافي لفهم و تحليل دافع المرأة إلى السحر و لأن الوظيفية أيضا لا تهتم بالبنية الداخلية للثقافة التي يحملها المجتمع. لذا رأينا أن الإلمام بالنظرية البنيوية يساعدنا على فهم مجتمع البحث الذي نريد التقرب منه. فهذا الإتجاه يعنى بالنظام الإجتماعي في حد ذاته و يعتبره وحدة مغلقة، بحيث تتشأعلاقات مع الأحداث داخل البنية الواحدة. و لكي نفهم مجتمعا ما، علينا بالرجوع أولا إلى ماضيه و تأويل رموزه و الإهتمام ببنيته الداخلية. نعتقد أن المجتمع القبائلي معقد، منغلق على نفسه، لا يمكن فهمه إلى بتخديد أنساقه الرمزية التي يتسنى للباحث الأنتروبولوجي تأويلها و ذلك بالإطلاع عل عادات و معتقدات القبائل و فهم بنيته الداخلية، ثم تحليل أسباب لجوء المرأة الريفية إلى السحر و الدور الفعال الذي تؤديه هذه الظاهرة في حياتها الشخصية و الإجتماعية.

(1) – في الملحق.

صعوبات البحث:

لا نتحدث عن المراجع و المصادر و قلتها إن لم نقل إنعدامها، بقدر ما نتحدث عن قلة المعطيات في الميدان. فمن يأخذ على عاتقه خطورة و مسؤولية البحث في موضوع السحر الذي تمارسه المرأة الريفية في منطقة القبائل سيصطدم بلا شك بصعوبات كثيرة منها:

السحر يشكل الجانب المخفي من حياة كل إمرأة ريفية لا تبوح بأسراره. بالإضافة إلى حساسية المجتمع إزاء هذا الميدان الخاص بالنساء، فكل إمرأة توظف السحر تتهم بأنها ساحرة، لذا فهي تعمل دوما في السر و تحاول إخفاء أساليبها و طرقها على الأجنبي. فالسحر يتعلق بحياتها الشخصية و علاقتها مع زوجها لذلك يعتبر الموضوع " طابو من طابوهات " المجتمع يصعب التوغل فيه و خرق الحدود القائمة حوله. و كثيرا ما ترفض المرأة العارفة بشؤون السحر و التي تمارسه في حياتها اليومية أن تفصح عن أسرارها و معارفها في هذا الميدان خوفا أن تسقط في يد نساء يمارسن السحر لأغراض شريرة كالتفرقة بين الأزواج و إيذاء الأخرين. هذا من ناحية، و من ناحية أخرى، ترى أن شيوع هذه المعرفة و إكتساب العامة لأسرار السحر يؤدي إلى فقدان فعاليته و نجاعته لأن من شروط نجاح السحر، السر و الكتمان و الغموض و التعقيد. أما إن أصبح متداولا بين الناس يفهم و يوظف بسهولة، سيفقد قوته و قدرته. لهذا السبب كنا نتحصل على معطيات ناقصة و معلومات فقيرة، خاصة و أن المرأة الريفية التي تعتقد في السحر و توظفه، تصنفنا من الطبقة المثقفة التي لا تؤمن بالسحر و لا بالمقدسات و لا بالأولياء. فالعلم جعلنا ننسلخ ثقافيا و عدم إخلاصنا ووفائنا للمقدسات يخلق بيننا و بين المرأة الريفية جفاء و عداء، لهذا فهي تمتنع من التقرب إلينا و البوح بأسرارها.

عندما إصطدمنا بهذه الصعوبات، إهتدينا إلى طريقة أخرى إستطعنا من خلالها أن نجمع عددا لابأس به من المعلومات، كنا نأخذ معنا إمرأة تكون همزة وصل بيننا و بين التي توظف السحر، تكون عادة من معارف هذه الأخيرة.فيتسنى لنا الدخول إلى بيتها و الكشف عن أسرارها. كما كنا ننتقل من منطقة لأخرى، نحاول إستكمال المعطيات الناقصة و جمع المعلومات من نساء ينتمين إلى مناطق مختلفة. لم نيأس من مواصلة البحث رغم الصعوبات التي تلقيناها في بعد المسافات من منطقة لأخرى و أحيانا، لا نجد وسائل النقل بسهولة فيما يخص بعض القرى المنعزلة من منطقة القبائل. زيادة على المبالغ المالية التي تنفق في تنقلاتنا، و في " الوعدة " التي كنا نقدمها في كل زيارة للساحرة، و غالبا ما نضطر لشراء بعض العقاقير و المواد التي تطلب منا لأداء الطقس السحري، و هنا كنا نقاسي من نظرة الناس إلينا و التي تتهمنا بممارسة السحر بمجرد وقوفنا أمام العطارين و العشابين. بالإضافة إلى الخطر الذي كنا نتعرض إليه في تنقلاتنا عبر مختلف المناطق بحثا عن المعلومات الخاصة بمجال السحر.

إستطعنا بواسطة التجربة و كثرة ترددنا على بيوت الساحرات و العرّافات أن نتقن لغة السحر، بحيث كنا نوظف بعض المصطلحات التي تستعملها الساحرة. و بالتالي، إندمجنا في هذا المحيط و إكتسبنا ثقة الساحرة و إخلاص الزائرة لنا، و إقتنعت كل المستجوبات بأننا نعاني مثلهن، فكان هدفنا واحد، لهذا أفرغن جعبتهن و حدث إنسجام كبير بيننا، و بدورنا، حاولنا إستغلال هذه الفرصة النادرة قدر المستطاع.

الدراسات السابقة :

تكاد تكون الدراسات الخاصة بموضوع السحر منعدمة في الجزائر ما عدا بعض المقالات التي تنشر في المجلات و الصحف، لا نعثر على دراسات أكاديمية تبحث حول ظاهرة السحر التي كانت و لا تزال تتفشى في الأوساط الشعبية، في المدن و الأرياف و تشمل حتى الفئة المثقفة، رغم أهمية هذا الموضوع و حساسيته إلا أن الباحثين ينفرون من الإهتمام بمثل هذه المواضيع الهامة و الخطيرة في آن واحد. لذا لا نجد دراسات تثري مكتباتنا، هذا النقص، نلاحظه و نلمسه حتى في دول المشرق و المغرب ، بحيث لا نجد سوى كتب مترجمة إلى العربية تتناول ظاهرة السحر، أو كتب تجارية لا تفيد الباحث في شيء. و بالنسبة للجزائر، نذكر دراسة واحدة قيمة " لوتيس " معنونة كالآتي : "Les contradictionssociales et leur expressions symbolique dans le sétifois ". تناول الباحث في هذه الدراسة السحر في منطقة " المنصورة " بسطيف كممارسة أنثوية و ظاهرة خاصة بالعائلة، و بالعلاقة بين الرجل و المرأة. فالسحر وسيلة المرأة المقهورة، المبعدة عن مجالات الحياة الإقتصادية و السياسية، فالمرأة تلجأ إلى السحر لتقاوم قهر الرجل لها و سيطرة المجتمع و تثأر للإقصاء و التهميش بوسيلة تراها فعالة . كما أن الرجل الفلاح في منطقة " المنصورة" يرجع التغير الذي حدث في المجتمع و الذي يخص تفتح المرأة و الليونة الطارئة في علاقة الرجل بالمرأة إلى السحر، و يرى "وتيس " أن وجود مؤسسة الزاوية و الطلبة تساهم في التخفيف من حدة الضغط الذي يسببه سحر المرأة، إذ أصبح ضروريا لضمان الإستقرار و الأمان بالنسبةللرّجل الذي يشعر بتهديدالمرأة له .

المرأة الريفية في منطقة سطيف تمارس السحر كوسيلة للمقاومة ضد التهميش و الإقصاء . كذلك المرأة الريفية في منطقة القبائل تمارس السحر لتدافع عن مكانتها في العائلة و المجتمع .

رغم أن السحر في كلا المنطقتين يؤدي وظيفة دفاعية، إلاّ أن النتائج التي توصلنا إليها تختلف عن تلك التي توصل إليها الباحث "وتيس" و هذا يعود إلى الإختلاف الطبيعي، الإجتماعي و الثقافي بين المجتمعين من ناحية، و من ناحية أخرى، الفترة الزمنية التي تمت فيها دراسة منطقة "المنصورة" كانت في سنوات السبعينيات (72-73)، فمن تلك الفترة إلى سنة ألفين (2000) حدثت تحولات و تغيّرات هائلة في وضعية المرأة و على جميع المستويات.

إن المرأة الريفية في منطقة سطيف كانت تمارس السحر و تعتمد عليه لتسيطر تماما على الرجل، بحيث يصبح أعمى و يغض النظر عن جميع تصرفاتها، فتقلب الموازين و تصبح الأنثى مسيطرة و الذكر مسيطر عليه. بينما المرأة الريفية في منطقة القبائل، لا تزال تمارس السحر و تلجأ إليه كلما عجزت عن إيجاد أجوبة مقنعة ترضي بها مجتمعها الذي يجبرها أحيانا على تحقيق غايات ضرورية لتوازن المجتمع. لتحافظ على مكانتها توظّف السحر كي تلبي حاجات فردية أساسية دون أن تتعدى هذه الممارسة الغرض المنشود، هذا يعود إلى التحول الكبير الذي طرأ على الذهنيات و الأفكار.

تبقى ندرة الدراسات حول موضوع السحر نقصا كبيرا، لا يجد الباحث ما يساعده على البحث في هذه الظاهرة الإجتماعية، لذا فنحن نأمل أن تكون رسالتنا المتواضعة مقدمة لدراسات و أبحاث جديدة تضاف إلى الرصيد الأنتروبولوجي و تثري البحث العلمي و تفتح آفاق خلاقة للمعرفة، ربما نتوصل إلى فهم أوسع لمجتمعنا، إنطلاقا من ذلك، نستطيع أن نخدم ثقافتنا و نعززها و نرفعها إلى مصاف حيث لا يهددها الإندثار.

الجـــانـب النظـــري و الوثـائقـــي

الجزء الأول :

الحياة الإجتماعية في منطقة القبائل.

الفصل الأول : الظروف البيئية و الفئات الإجتماعية المشكلة لمنطقة القبائل.

- تمهيد

I ظروف المعيشة في منطقة القبائل

1-الطقس و تأثيره على حياة القبائل
2-منابع المياه و رمزها عند القبائل

II الفئات الإجتماعية المكونة للمجتمع القبائلي

1-القبائل
2-المرابطون
3-أكلان (السود)

III النظام الإجتماعي التقليدي في منطقة القبائل

1-ثادرث (القرية)
2-ثاخروبث (شجرة العائلة)
3-ثاجماعث (الجمعية)
ملخص الفصل

الظروف البيئية و الفئات الإجتماعية المشكلة لمنطقة القبائل :

تمهيد :

يعيش سكان منطقة القبائل و بالتحديد سكان أعالي جبال جرجرة، ظروف بيئية قاسية خاصة في فصل الشتاء تصبح المسالك و الطرق المؤدية إلى قرى المنطقة جد صعبة نتيجة الثلج الذي يغطي الجبال بداية من شهر نوفمبر إلى أواخر شهر أفريل. لذا فالحياة في هذه الظروف البيئية تبدو قاسية لسكان المنطقة الريفية الذين يعيشون غالبا مما تنتجه الأرض من محاصيل زراعية و من أعشاب برية تقتات منها أغنامهم و أبقارهم التي تمثل ثروة هامة تساهم في تحسين المعيش اليومي لسكان الريف. بحيث يخرج الرعاة بقطيعهم من الصباح الباكر، يتركونها ترعى بحرية و يعودون بها في المساء. لكن بقدوم الشتاء يحبس الرعاة قطعانهم في الإسطبل نتيجة الثلوج الكثيفة التي تجعل المسالك تقريبا مستحيلة. لذا فالقبائل يحتاطون لهذا الفصل و يستحضرون إلى بيوتهم كل لوازم العيش التي تكفيهم مدة فصل الشتاء. و لا تعود الحياة إلى بساطتها إلا بقدوم الربيع وعودة الشمس إلى أحضان جبال جرجرة الشامخة.

I – ظروف المعيشة في منطقة القبائل :

سكان منطقة القبائل مزارعون بالدرجة الأولى، غير أن الأراضي القابلة للزراعة قليلة جدا و مازال العمل فيها يعتمد على الأدوات التقليدية. و يعتمد اقتصاد المنطقة القبائلية أساسا عل شجرة الزيتون و شجرة التين و بعض المحاصيل الأخرى كالقمح و الشعير، إلى جانب تربية المواشي. جعلت التضاريس الصعبة و الظروف الاقتصادية القاسية الحياة في هذه المنطقة جد صعبة، خاصة أن تقنيات العمل المتقدمة تكاد تكون منعدمة لذا استلزم على السكان تظافر جهودهم و تكثيف أعمالهم بهدف تعويض النقص الكبير في تقنيات العمل، فحاولوا مواجهة محيطهم الصعب و في هذا الشأن كتب "بورديو" (Bourdieu) يقول : " الجدل مع المحيط يمكن أن يكون قاسيا و متوترا، يقابل النقص في التقنيات إتقان مبالغ في الجانب الاجتماعي و كأن الضعف في التسوية مع المحيط الطبيعي عوض بجودة النظام الاجتماعي، و كأن الإنسان –من أجل تحاشي ضعفه أمام الأشياء– لم يجد ملجأ سوى تطوير تجمع مع الناس الآخرين غزير بالعلاقات الإنسانية" (1).

1– الطقس و تأثيره على حياة القبائل :

إن إلتفاتنا إلى عامل الطقس و مدى تأثيره على حياة سكان منطقة القبائل، لم يكن غرضنا الولوج في تقنيات علمية دقيقة تهتم بدراسة الطقس، هذا ليس هدفنا و لا علاقة له بموضوعنا، إنما أردنا الوقوف على هذا العامل كمؤثر أساسي في تشكيل و تكوين مزاج الإنسان القبائلي و قياس مدى قوته و ضعفه، صلابته و هشاشته، عنفه و تسامحه، تشدّده و تفتحه، و من ثم يتبين لنا كيف يلعب الطقس دورا كبيرا في اختلاف و تباين الأمزجة من منطقة لأخرى، و ذلك يقودنا حتما إلى اكتشاف طبائع، آداب، عادات، تقاليد، سلوكات و أنماط عيش تتفاوت في نوعها من جهة لأخرى، لتثري و تعمق جذور الرصيد الثقافي الذي توارثه القبائل منذ حقب طويلة و لازالوا يحافظون عليه رغم تعاقب الأجيال.

(1) Bourdieu Pierre, **Sociologie de l'Algérie**, que sais je ?, presses universitaires de France, 1970, P, 11

هذا إذن ما جعل طابع و عادات منطقة "تيزي وزو" تختلف و تتشابه في الوقت نفسه، و بحكم معايشتنا للمنطقة، نعتقد أن ميزة التشابه في العادات و الآداب واضحة و جلية يدركها كل متمعن و دارس للمنطقة.

و علينا أن نشير إلى أن طقس منطقة القبائل يختلف باختلاف الجهات، فالناحية الجبلية لمنطقة جرجرة يكون فيها الطقس باردا جدا في الشتاء و حارا في الصيف، خاصة القرى المترامية عشوائيا في الجبال و التي تتواجد على قدم جرجرة تشتد فيها الحرارة صيفا. أما إذا صعدنا إلى أعلى قمة جبل جرجرة، يصادفنا طقس رطب و حرارة معتدلة و هواء نقي، منعش.

و بالنسبة للأمطار، فتكون غزيرة في الشتاء و الثلوج كثيفة، نسبة الرطوبة عالية بحيث تسبب في هلاك الأشجار و فساد الثمار. بينما المنطقة الممتدة على ساحل البحر، فالطقس فيها معتدل و لطيف، في فصل الشتاء تكون البرودة محتملة و لا تسقط الثلوج إلا نادرا و بكميات قليلة. هكذا يختلف طقس منطقة القبائل من جهة إلى أخرى و هذا ما جعل أمزجة و طباع الناس تتباين نسبيا كما تتنوع العادات بتنوع المناطق و أساليب العيش من مكان إلى آخر. و عادة ما تبدو ملامح التسامح و التفتح و المرح على سكان المناطق الساحلية، و في المقابل، يظهر سكان الجبال في تشدّد و صلابة و قسوة في معاملاتهم و سلوكاتهم التي تتسم بالعنف و هذا يعود أساسا إلى البيئة القاسية التي قولبت طبائعهم و تقاليدهم و معتقداتهم الكامنة في أعماق جبال جرجرة.

و بالإظافة إلى الطقس المتأرجح بين القساوة و الإعتدال و تأثيره في طبيعة و مزاج و طريقة تفكير سكان منطقة القبائل، ثمة عنصر هام يعتبر رمز الحياة و الوجود ينبع من باطن الأرض، إنه الماء.

فمنذ أن خلقت البشرية و الإنسان في بحث مستمر عن الماء، فكل إنسان على وجه الأرض يعرف أن الماء هو الحياة، فانعدامه يعني الموت و الفناء للطبيعة و الإنسان. أما من يكتسب الثقافة القبائلية فيعرف مثلا شعبيا رائجا في المنطقة يتداوله الصغير و الكبير "أمان أذلمان". الماء ثقة. إنه رمز الأمن و السلام و الرخاء. و بما أن القبائل مزارعون، فهم مجبرون على اقتنائه و لو من مسافات بعيدة. و يحكي لنا الشيوخ أن القرى لا تبن إلا بعد تعيين مصادر الماء و لا توجد قرية في منطقة القبائل لا تملك منابع مائية ينهل منها الإنسان و الحيوان و تسقى بها الحقول.

2- منابع المياه و رمزها عند القبائل :

قديما كما يخبرنا مولود فرعون "لم يكن القبائل يتمركزون في قمم و أعالي الجبال، بل كانت منازلهم منتشرة في بلاد مخضرة بالأعشاب و كل واحد منهم يملك منبعا قريبا من بيته. و عندما صعدوا إلى القمم (1) تحتمت عليهم الظروف أن ينزلوا لجلب مياه الشرب. هذا الماء الذي تركناه نحن مجبرين لاقتنائه و هذا هو أصل المنبع"(2).

(1) سنوضح سبب صعود القبائل إلى قمم الجبال لاحقا.

(2) Ferraoun Mouloud, **Jour de Kabylie**, édition Bouchéne, Alger, 1990, P, 108

هكذا يظهر دور المنبع عند سكان منطقة القبائل، و كما أشرنا إليه سلفا، فإن القرية لا تتشيّد في أرض جرداء و من النادر جدا أن يبيع القبائلي أرضه إذا توفرت فيها الماء. و هذا يحيلنا إلى إلتماس الدور الأساسي للمنبع و فعاليته في النظام الإجتماعي للقرية، بحيث يكون إما في مدخلها أو يبعد عنها ببضع الميترات. و يبدو أن نشوء علاقة جوار بين المنبع و القرية جعل من القبائل مجتمعا يظفي على الماء صبغة خيالية و قدرات إستثنائية خارقة. هذا ما نقله لنا التراث الشعبي من حكايات و أشعار تتداولها الذاكرة الشعبية لتستمر ثنائية الثقافة و الطبيعة.

و لعل بحث الإنسان عن الماء يعود إلى قصة إبراهيم الخليل و زوجته هاجر التي تتنقل من مكان إلى آخر بحثا عن الماء.و بمعجزة إلهية تفجر الماء من الصحراء و بالتالي وهبت الحياة لذريته، فتترتب عن ذلك العلاقة التالية :

البحث عن الماء و البحث عن الحياة. عدم وجود الماء يعني الموت و النهاية، فالعثور على الماء يمثل نقطة بداية لهدف يسعى الإنسان إليه و لا يتحقق إلا بوجود العنصر الأول : الماء.

و في الواقع المنبع يؤدي دورا هاما في بلورة المعتقدات الشعبية التي تشكل جانبا هاما من الحياة الإجتماعية للريف، فالمنبع تتعدى أهميته في توفير الماء كعنصر أساسي و ضروري إلى إحتياجات سحرية، طقسية و علاجية، لذا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نفصل بين الماء و المرأة. و بالتالي نبين علاقة المرأة بالمنبع، و كيف تستثمر هذا الفضاء الأنثوي الذي يقصى فيه الرجل ؟ و هل لا يزال المنبع يؤدي نفس الدور كما كان في الماضي ؟.

قد نستغرب و نتساءل عن سبب إقصاء الرجل من وظيفة جلب الماء من العين لدرجة أن المكان يعتبر محرما بمجرد حضور النساء فيه ؟

و من يعرف عادات الريف الجزائري و بالتحديد منطقة القبائل، يدرك لأول وهلة أن الرجال لا يقصدون المنبع إلاّ في الأوقات التي لا تتردد عليها النساء، إما في الصباح الباكر أو في وقت القيلولة، و أحيانا للإستحمام و هذا بالنسبة للشبان الذين يعودون من البحر. و في ذلك يقول مولود فرعون : " الرجال لا يذهبون إلى المنبع العرف يريد ذلك. نظام متفق عليه ينتقل من جيل إلى جيل. إنها مسألة هيبة لا نقاش فيها و إحترام إنساني."(1)

هذا القانون الداخلي يحترم من طرف الرجال و النساء، فلا أحد من الجنسين له الحق في تجاوز هذا النسق الذي يخضع لنظام محدد إتفق عليه السكان بغية تحقيق غايتين أساسيتين ترى الجماعة أن أي تخلخل يحدث في سيرورتها سيؤدي إلى تفكك الأعراف المعمول بها في الريف و هما كالآتي :

الغاية الأولى : هي تقسيم الأدوار و الوظائف، بحيث توكّل مهمة جلب الماء للمرأة و هي عملية بسيطة لا تستدعي جهدا كبيرا بالمقارنة مع الوظائف التي يؤديها الرجل و التي تتطلب قوة عضلية.

(1) Ferraoun , **Jour de Kabylie,** P, 111

الغاية الثانية : هي الحفاظ على استمرارية هيبة الرجل و احترامه لنساء قريته فهو يعرف أن المنبع مكان تهرب النساء إليه من الضغط الذي تعيشه يوميا في البيت، لذا لا يقصد الينابيع الموجودة بداخل القرية أي التي تتردد عليها النساء، بل يذهب إلى العين البعيدة قليلا حيث لا تذهب الفتيات بمفردهن عادة ما ترافقهن الأم أو إمرأة مسنة. علما أنهن لا يخرجن من البيت في الأوقات التي يشتد فيها الحرّ حفاظا على بشرتهن البيضاء. يفضلن الخروج في الصباح أو في المساء. فمقاييس الجمال عند القبائل تقتضي على المرأة أن تكون بيضاء البشرة و يتم تشبيهها بالبيضةأو بالمرآة في البياض.

و النتيجة التي يمكن أن نستخلصها من تطبيق هذه الأنظمة الصّارمة التي قولبتها الجماعة في إطار يتناسب مع عاداتها و تقاليدها و هي : أن الرجل القبائلي بطبعه يميل إلى التفوق و إظهار قوته و شجاعته و صلابته في الرأي و في الفعل، لذا يعتقد أن وظيفة جلب الماء بسيطة و سهلة و الإهتمام بها قد يهين و ينقص من رجولته و شهامته، فانسحب تاركا هذا الفضاء للمرأة باعتبارها ضعيفة. و إتجه إلى تشكيل فضاء آخر يحتكره الرجال دون النساء و هو "ثاجماعث" (1) أي الجمعية أين يستعرض شجاعته و يبرز فحولته. و شاعت العادة أن تسير الأوضاع وفق هذا النظام الاجتماعي، بحيث يرفض الرجل قلب الأدوار أو المزج بين وظائف الجنسين في فضاء واحد، هذه الحدود الفاصلة خلقت جنسانية محايدة و ساهمت في ترسيخ و تثبيت علاقة السيطرة بين الرجل و المرأة.

كما يبدو لنا أن إنسحاب العنصر الذكري من فضاء يعتقد أنه حكرا على النساء فقط، يرجع أساسا إلى إستوعاب الرجل لصفات تربط المرأة بالمنابع، فكما أن المرأة جذابة، مثيرة، عميقة و غريبة، فالعين أيضا تبرز فيها هذه الميزات.

و لعل هذه الصفات المشتركة يعود أصلها إلى أسطورة قديمة تحكى في منطقة القبائل و ملخصها أن غول له سبعة رؤوس يسكن في قاع العين و يهدد السكان بقطع الماء عليهم إن لم يقدموا له فتاة في كل يوم تحمل معها قصعة من الطعام و اللحم و المرق. فيبدي الغول أحد رؤوسه يلتهم الطعام و يأخذ معه الفتاة. هكذا جرت العادة، حتى جاء دور بنت السلطان و بينما كانت تنتظر خروج الغول من العين رآها عابر سبيل قادم من منطقة بعيدة إستفسر عن سبب وجودها في هذا المكان فأخبرته، وعدها بأن يخلّص القرية من هذا الغول، و بمجرد أن ظهر، قطع بسيفه الرؤوس واحدة تلو الأخرى و نزع الألسنة لتكون دليلا عن شجاعته و بطولته و تزوّج بالزواج من إبنة السلطان.

تتجلّى الأبعاد الرمزية لهذه الأسطورة في كون أن المرأة دائما تمثل رمزا للفداء و التضحية و هذا منذ أن خلق الكون. فموت المرأة في هذه الحالة ضرورية لأنها تساهم في إستمرارية الحياة بشكل آخر، بمعنى أن المرأة التي تعطي الحياة هي التي تختار لتقدّم قربانا لتحيا الجماعة. نلاحظ أن الموت هنا يتّسم بقيمة إيجابية لأنه حدث يحمل فائدة للجماعة، توجد إذن حالة تعويض : تقدّم الفتاة للغول كي يتوفر الماء فحياة الجماعة مرهونة بموت المرأة. و أحيانا، "لكي يعيش الإنسان عليه أن يدفع الثمن بتضحية واقعية أو رمزية"(2) في هذا الإطار الأسطوري تظهر علاقة جدلية بين البنية الفكرية و البنية الاجتماعية لأن الخيال يلعب دورا أساسيا في رؤية الإنسان للكون. و من ذلك، يتسنى لنا حصر النسق الأسطوري، الطقسي للقبائل. و بالتالي، نتوصل إلى فهم طبائع و آداب و معتقدات هذا المجتمع، و لعلنا نصل إلى إكتشاف نوع العلاقة التي تربط المرأة بالعين.

(1) سنعود إلى تفصيل هذا الموضوع لاحقا.

(2) Yacine Titouh Tassadit : **Les Voleurs de Feu. Element d'une authropologie sociale et culturelle, de l'Algérie.** Edition la découverte, PARIS 1993,P, 140

هكذا نعتقد أنه لا يجوز لنا الحديث عن غياب الحضارة و التقدم و النور و الرفاهية في قرى منطقة القبائل، لأنه لا يوجد – في نظرنا – شكلا مطلقا للحضارة و لا قالبا موحدا لكل الشعوب، "إنها ثياب لين يسمح لكل واحد أن يتحرك بحرية حسب الرغبة المنبثقة من طبيعته الأصلية." (1). فربما تمسك المجتمع القبائلي بمنابع المياه التقليدية يرجع إلى حفاظه الشديد على أصالته، فهو حريص على ثقافته و هويته التي عان الكثير ليثبتها و يرسخها، فقد عرف التشتت و العزلة و عدم الإستقرار، لذا يحاول جاهدا إعادة ترميم ثقافته لتبقى حية، خالدة، خصبة و معطاءة كالماء تماما، مشحونة بالرموز و مولدة للحياة و هذا ما يجعلنا نضم رأينا إلى رأي الباحثة "تسعديت ياسين" حين تقول : "الحياة من خلال الماء تعمل على تخليد الثقافة، تثبتها في الذاكرة و تنقلها للأجيال اللاحقة" (2).

II – الفئات الاجتماعية المكونة للمجتمع القبائلي :

يخبرنا شيوخ المنطقة (3) أن السكان المتمركزين في جبال القبائل لا ينحدرون من أصل واحد، و إنما قدموا من بلدان مختلفة، فيعود أصل بعضهم إلى العرب كسكان منطقة "إفليسن" التي تطلّ على البحر، و يرجع أصل هذه التسمية إلى المؤسس الأول لهذه البلاد و يدعى "فليسة". و حسب ما جاء في المجلة الإفريقية فإن "أصل سكان إفليسن ينحدر من نسب عربي، بعضهم من يسر، من بني ثور، من متيجة و من بني عيشة و آخرون من بني جعاد و بني سليمان". (4)

كما ينتسب بعض سكان منطقة القبائل إلى عائلة الرسول (ص)، يزعمون أنهم أهل البركة و العناية الإلهية و الشرف. لذا فالناس يتبركون بأوليائهم الصالحين و يلتمسون منهم الشفاء و الخير و العناية. كما توجد في منطقة القبائل فئة أخرى يعود أصلها إلى إفريقيا، سكنت في بعض قرى القبائل، و هي مجموعة محدودة جدا من حيث النسبة، تختلف عن باقي السكان بكونها تحمل بشرة سوداء. يعتقد معظم سكان منطقة القبائل أنهم إنحدروا من قدامى العبيد، و حاليا، نجد معظمهم يتمركزون في قرى منطقة "تيزي وزو" خاصة في قرية "صوامع" بالجمعة صهاريج، و في "مقلع" و كذلك في "تيزي راشد" و حاليا، إندمجوا مع القبائل و لم يعد هناك تمييز بينهم و بين غيرهم.

هكذا يبدو أن المجتمع القبائلي يتكون من ثلاث فئات إناسية تتفاوت من حيث النسب و النسبة، و لكنها تعيش في تلاحم و تعاون مستمر تندمج الواحدة في الأخرى فينشأ هذا المجتمع القبائلي الذي يتدعم بكل فئة من فئاته فتتصهر في كتلة واحدة تدعى القبائل.

يمكن تقسيم هذه الفئات إذن إلى فئة القبائل، فئة المرابطون و فئة أكلان (السود).

(1) DAUMAS (M), FABAR (M), **La grande Kabylie**, Etude Historique, Librairie royale de France, Paris, 1847, P, 413
(2) YACINE, **Les Voleurs de feu**, P, 122
(3) هذه الأخبار ينقلها الأجداد إلى الأحفاد و بالعادة تترسخ في أذهان القبائل دون وجود أي مرجع تاريخي يثبت أو ينفي هذه المعلومات.
(4) MEYER Alph : « **Origine des Habitants de la Kabylie** », Revue Africaine N° 3, Edition O.P.U, 1958, 1959, P, 358.

1- القبائل :

قبل الحديث عن طبيعة و حياة القبائل نقف أولا على دلالة كلمة قبائل، و أول معنى يتبادر إلى أذهاننا هو أنه مشتق من كلمة عربية "قبيلة"، و القبائل " يشكلون عددا كبيرا من التجمعات، بحيث يطلق عليهم العرب إسم قبائل... " (1). و هناك رأي آخر يرى أن أصل هذه التسمية يعود إلى كون القبائل "تخلوا عن لغتهم الأولية و تبنوا لغة أخرى، فهم قبلوا لغة غريبة بالمقابل عن لغتهم الأصلية. "(2)

لعلّ القبائل تخلوا عن لغتهم الأصلية بسبب إحتكاكهم بالعرب و الزواج منهم، لكن نستبعد أن مجرد قبولهم لغة أخرى مغايرة للغتهم سبب مقنع و كافي لنطلق عليهم لفظ قبائل.

و نرجّح أن التعريف الأول أقرب إلى الدقة و المنطق، كون أن هذا المجتمع يتشكل من تجمعات و قبائل صغيرة تنتشر في الجبال و في مساحات واسعة مكونة قرى منغلقة على نفسها، تحافظ على سيماتها الخاصة و التي تميزها عن غيرها من القبائل و ترفض أن تنفتح عن الخارج.

و يعرف عن القبائل أنهم متعصبون لشرفهم، يتحمسون لخوض حروب دموية بمجرد أن يتعدى أحد على سمعتهم أو يتجاوز بعضهم الحدود الفاصلة بين أرض و أخرى، فتنشب عداوة لا متناهية بين المتعدي و المعتدى عليه و قد يصل الأمر إلى القتال.و كم سمعنا و شاهدنا حوادث مأسوية وقعت في قرى القبائل، بسبب الثأر للشرف أو الأرض، و في ذلك توجد قرى في القبائل تشتهر بالقتال و الحروب أكثر من غيرها، كقرى "بين جناد" (3) خاصة قرية "أبيزار" التي تبعد عن مدينة "تيزي وزو" بحوالي أربعين كيلومتر (40 كلم) و قرية "تيفرة" بإفليسن و تبعد عن مدينة "تيزي وزو" بخمسة و أربعين كيلو متر (45 كلم). فالقبائل يعرفون جيدا كيف يموتون و يقتلون من أجل الثأر لكل من تجرّأ وانتهك حرمة عائلته أو عرشه أو قبيلته. و إلى يومنا هذا، و القبائل لازالوا يتشددون في مسألة الشرف خاصة، و إن كانت عداوة قديمة بين قرية و أخرى، فغالبا ما تظل قائمة دون سعي طرف لإيجاد طرق التواصل و التسامح. و في هذا لنا دليل حي ثابت إلى اليوم و هي العداوة التي كانت قائمة بسبب الشرف (4) بين قرية "تيمليلين" و قرية "أقمون" بإفليسن.

و بسبب هذه الحادثة تمسكت القريتين بالتقاليد القديمة و ترفض التعامل و التعاون، فلا تجارة و لا زواج بين قرية " أقمون " و قرية " تيمليلن ". و إستمر هذا الجفاء حتى بين الأجيال الصاعدة، فلا أحد يتجرأ على تجاوز عادات الأجداد و التعدي على عناية و حرمة كل مل تركه الأولين، لدرجة أن كل ما هو مرفوض قديما يصبح اليوم ممنوع و محرما.

---

(1) BENACHENHOU Abdelhamid, **Connaissance du maghreb,** Edition Populaire de l'année, Alger, 1971, P, 235

(2) MEYER, « **Origne des Habitants de la Kabylie** », P, 366

(3) جناد هو إسم رجل إستقر في جبال القبائل و يقال أنه قوي و ثري جلب معه حوالى ثلاث مائة فارس (300)، سكن في منطقة "أبيزار" و هو الذي أطلق عليها هذا الإسم ذكرى لأخيه المدعو "بيزار".

(4) يحكي لنا سكان قرية "تيمليلين" أن إبنة الولي "سيدي علي أوصالح" هربت مع إبن الولي "سيدي السعيد أقمون" بعدما رفض والدها تزويجها مع إبن ولي قرية "أقمون"، لكن في تلك الليلة علم والدها و إخوتها بهروبها و تمكنوا من القبض على الفتاة فذبحت على صخرة، أما الشاب إستطاع أن يتعدى النهر و هو الحد الفاصل بين القريتين و بذلك نجى من الموت لأنه دخل حدود أرضه.

و يتسم القبائل بصفة مميزة تطبع خصالهم و هي البحث المستمر عن الحرية، ربما لأنهم عانوا التشرد و عدم الإستقرار و كثرة الحروب، فتحتمت عليهم الظروف أن يغادروا أراضيهم ليستوطنوا الجبال ذات المسالك الوعرة و الحياة القاسية و هذا ما دفع بهم إلى الدخول في معارك دامية أدت إلى موت الرجال، و ترميل النساء و تيتيم الأطفال ؛ علاوة على الخسارة المادية التي تلحق بالقرى من حرق و نهب وسرقة. و نتيجة لهذه العواقب المؤلمة و المدمرة للإنسان و الأرض، إختارت بعض القبائل أن تنقل الحرب إلى أرض مجاورة و تمتنع عن نشوب أي معركة في أرضها كعرش " "بني يني" الذين عرفوا كغيرهم هذه المقاومات من أجل الشرف و الحرية، يفضلون حمل الحرب عند جيرانهم عوض أن يخضعوا لها في أرضهم."(1)

و عندما نتحدث عن حياة القبائل و نظمهم و قوانينهم، فنجدها أيضا مميزة تفصل هذه المنطقة عن المناطق الأخرى بالجزائر، و بمجرد إستعراضنا لقوانين القبائل يتبادر إلى ذهننا عرف إستمرفترة طويلة من الزمن و إنغرس في ذهن الرجل القبائلي و هو تحريم المرأة من الميراث. "فانطلاقا من العادات القديمة، المؤسسات الإجتماعية تقاوم القوانين التشريعية... و حسب الأوضاع، يستخلص القبائلي من النصوص ما يبدو له أنه يخدم مصالحه الخاصة".(2)

و يعود السبب المباشر في تحريم المرأة من الميراث، إلى خوف القبائل من ضياع إستقلالية قراهم و للحفاظ على إستقامة و دوام ممتلكاتهم قرّروا العدول عن قانون أقرّه الشرع و منعوا المرأة من الإرث، لأن هذه الأخيرة ستتزوج برجل أجنبي عن العرش أو عن القرية، و له الحق في التصرف في أرض زوجته و ربما يبني فيها أو حتى يبيعها و هذا ما لا يسمحه القبائل إطلاقا، فالأرض عندهم مقدسة و لا يتصرف فيها إلا الذكر، أما الأنثى، فزوجها يتكفل بها و لا ترث إلا في حالة موت زوجها أو طلاقها و حتى في هاتين الحالتين لا يحق لها أن تطلب حقها في الإرث كما يطلبه أخوها مثلا، بل تبقى في بيت أبيها أو أخيها يحميها و يرعي شؤونها، و إن حدث و أن طالبت بحقها القانوني و الشرعي، تنبذ من طرف العائلة و تقطع الصلة بينها و بين عائلتها. (3) و خوفا من هذا العقاب الجاحد، تخضع المرأة لهذا العرف الذي قرّره القبائل حفاظا على مصالحهم و أيّده أشراف المنطقة و المرابطون الذين يعود إليهم الأمر و المشورة في مثل هذه المسائل.

(1) GENEVOIS Henri : **AT-YANNI, élément historiques et folcloriques pour sérvir à l'étude d'un sécteur de Kabylie,** sans Edition, sans pays, sans année, P, 18

(2) VIRGIER René : **La femme Kabyle**, les Editions VEGA, PARIS, 1932, P, 127

(3) لم يعد هذا العرف ساري المفعول، و المرأة القبائلية اليوم تأخذ حقها في الميراث بشكل طبيعي.

2- المرابطون :

هذه الفئة التي تسمى في منطقة القبائل بـ "إمرابظن" تعرف في المجتمع بالهبة و الوقار و الإحترام كونها تتسم بحفظها للقرآن و اعتكافها على تعليم الدين الإسلامي في الزوايا، لذا إكتسبت هذه الفئة تقديرا خاصا من طرف القبائل لأن كل من ينتسب إلى هذه المجموعة يكون قريبا من الله لإرتباطه الوثيق بالدين.

و بما أن المرابطون يتقنون القراءة و الكتابة و يمتلكون معارف في اللغة العربية و علمهم خاصة بأصول الدين. فإن القبائل رحبوا بهم ووجدوا فيهم معلما لأولادهم يخرجهم من الجهل و الأمية، و مرشدا روحيا يهديهم إلى الإسلام. هذا من جهة و من جهة أخرى، فإن إنتمائهم إلى فئة الأشراف يعود إلى "إنتسابهم إلى عائلة الرسول (ص)، هكذا توارثوا هذا اللقب، و نظرا لموهبتهم و قدرتهم الروحية كان دائما يطلب منهم التدخل في حل الخصومات داخل القرية".(1) حينما تنشب خلافات و نزاعات بين القرى أو بين سكان القرية الواحدة فالمرابطون وحدهم لهم الحق في التدخل و محاولة تسوية الأوضاع و إسترجاع الهدوء إلى القرية.

و ما يعرف عن هذه الفئة هو إكتسابهم للبركة و العناية الإلهية، لذا نجدهم يعالجون الناس بالأعشاب و الأحجبة و قراءة القرآن و خاصة علاج ما يسمى بصرعات الجن، و هذا يتم في الزوايا. و لعل هذه البركة واضحة في القبة البيضاء التي تنصب على كل ضريح ولي، فكل عائلة مرابطية تتحدر من ولي يعتبر الجد الأول لها.

و يقال أن أحد المرابطين قصد قرية "تقمونت عزوز" بمنطقة واضية بالقبائل الكبرى، فمرض و إثر ذلك إعتنى به السكان و لكن علم أن ساعته قد حانت فقال لسكان القرية : "لقد عالجتموني، فالله وحده يجازيكم، أما أنا، فسأموت، لذا أنظروا مكانا تخافون أن تلحقكم فيه بعض المخاطر فأنا أستطيع أن أصدّها عنكم إن دفنتموني في ذلك الموقع".(2) و نظرا للمرتبة الشريفة، التي تحتلها فئة المرابطين في قرى منطقة القبائل، فإن نساءهم لا يشتغلن كباقي القبائليات في الحقول و جلب الماء و الحطب، إنما يمكثن في البيت يعتنين بتربية أولادهن و لا يخرجن متبرجات بل يرتدين "الحايك". و ثمة نقطة هامة يجب الإشارة إليها في تقاليد هذه الفئة من المجتمع القبائلي وهي أن الرجل المرابطي لا يزوّج إبنته لرجل قبائلي، و لكن قد يرضى بتزويج إبنه بفتاة قبائلية و هذا طبعا للحفاظ على النسب المرابطي.

هكذا يتضح أن مجرد الإنتماء إلى المرابطين يؤهل إلى الإندماج في فئة إجتماعية راقيةمقابل فئة إجتماعية أخرى بسيطة و هي القبائل. و نعتقد أن السبب المباشر في تأهيل المرابطين إلى هذه المرتبة يعود إلى جهل القبائل بتعاليم الدين، فوجدوا منفذا سهلا إلى التوسع في قرى القبائل و بذلك تميزوا عن باقي سكان المنطقة و اكتسبوا إحترام و تقدير الجميع. و علينا أن ننوّه اليوم إلى التغيّرات الإجتماعية و الثقافية التي أحدثت تغييرا جذريا في المجتمع القبائلي و قلّصت بذلك التمييز بين فئة القبائل و فئة المرابطين.

(1) Plantade Nedjema, **L'honneur et l'amertume**, Edition Ballond, PARIS, 1993, P, 1
(2) GENEVOIS Henri : **Un Village Kabyle, Taguemount Azouz des Beni Mahmoud**, Fichier de Documentation Bérbére F.D.B, Fort National, 1972, P, 30

3- أكلان (السود) :

هم فئة قليلة بالمقارنة مع فئة المرابطين، يحتلون مرتبة دنيا في المجتمع القبائلي و حسب "بوزار" : "إنهم أفارقة جاءوا مباشرة بعد المرابطين و يشتغلون مهن صغيرة كالإسكافي و الجزار..."(1). و يقال أنهم إنحدروا من قدامى العبيد و هم سودجاءوا من إفريقيا على الجمال يحملون أكياس من الملح، يبيعونها. و نظرا لفقرهم إظطروا إلى الإشتغال كخدم عند القبائل. و إستقروا في المنطقة (2) و إستطاعوا بفضل عملهم و إخلاصهم أن يكتسبوا ثقة القبائل، فشغلوهم في حرف صغيرةكالجزار، الإسكافي، البراد**ع**ي. و لكن لم يندمجوا كليا مع القبائل بحيث لا يرض القبائلي تزويج إبنته أو إبنه من كل من ينتسب إلى هذه الفئة، بسبب بشرتهم السوداء و أصلهم المنحدر من العبيد. لذا إحتلوا مرتبة حقيرة في المجتمع لدرجة أن المرأة القبائلية التي يموت لها أولادها تسمي مولودها إن كان ذكرا "أكلي"بمعنى أسود حتى تنفر منه الموت و يعيش.

أما في وقتنا الحاضر، و بتطور المجتمع، يبدو أن هذا التفكير زال بزوال هذه العقليات المتحجرة، و تقلصت هذه الفوارق الإجتماعية بشكل ملحوض. صحيح أن مسألة النسب في المجتمع الجزائري تبقى رهينة التفكير المتعصب تماما كقضية الهوية التي تشكل جدالا واسعا و نقاشا حادا. وهذا ما جعل كل فرد منا يعيد نسبه إلى الأشراف و كأنها مسألة تباهي و إفتخار، و البعض الأخر يتخبط في سؤال و حيرة مستديمة أهو من هوية أمازغية أم عربية ؟

هكذا يتم تجاهل القضية الحقيقية و الجوهرية التي هي هدف الجميع، النهوض بهذا المجتمع الجزائري الواحد أين تكون العدالة الإجتماعية ثابتة من ثوابت هذا المجتمع الذي يرمي إلى التفتح و تقبل الآخر على أساس الجهد و العمل لا على أساس اللون و النسب.

III- النظام الإجتماعي التقليدي في منطقة القبائل :

بما أن المجتمع القبائلي مجتمعا تقليديا، فإنه يخضع لنظام خاص يميزه عن باقي المناطق في الجزائر. وما يثير الإنتباه حقا هو تمسك القبائل بالنظام التقليدي رغم التغيير الإجتماعي الذي شهدته معظم قرى المنطقة، إذ خرج أغلبية شباب القرية يبحثون عن العمل أو لغرض الدراسة في المدن المجاورة، مما ساعد على تفتح القرية على الخارج و لم تعد منغلقة على نفسها كما كان في السابق. رغم ذلك لا تزال منطقة القبائل تحافظ على أنظمتها التقليدية طبعا مع تعديل بعض القوانين التي تستلزم التغيير لتساير العصر.

فالقرية في منطقة القبائل لم تعد كما كانت سابقا مجموعة منازل كلها متشابهة، مبنية بالأحجار و الطين و أعمدة الخشب، بل أصبح البناء حديثا يخضع لمتطلبات العصر. لكن في المقابل، نجد أن سكان القرية لا يتهاونون في مسألة الشرف مثلا، إن إستدعى الأمر أن يدافع أفراد القبيلة الواحدة و كل من ينحدر من جد واحد، عن عرضه أو شرفه، لا يستهين القبائلي بحرمة عائلته و يصل إلى القتال من أجل "النيف".

و كل ما يتصل بالقرية و مصالح أفرادها تقرّره الجماعة في خلال تنظيم إجتماعات في نهاية كل أسبوع، و تسير منطقة القبائل وفق هذا النظام الإجتماعي التقليدي الذي تعززه العادات و التقاليد.

(1) BOUZAR Wadi, **la mouvance et la pause, regard sur la société Algérienne**, société nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1983, P, 204

(2) في صوامع ٢ جمعة صهارج، مقلع، تيزي راشد.

1- ثادارث (القرية) .

القرية كما يعرّفها الباحثين في علم الإجتماع هي "مجموعة من الناس يقيمون في منطقة جغرافية محدّدة بمنطقة ريفية، نشأت بينهم علاقات إنسانية متبادلة و ترتب على هذه العلاقة وجود جماعات و مؤسسات إجتماعية و أصبح لهم بحكم الخبرة المكانية و الروابط الإنسانية عادات و تقاليد و قيم و عقائد و أهداف مشتركة."(1). فالقرية إذن تتشكل من مجموعة من الناس يكتسبون ثقافة مشتركة يتميزون بها عن غيرهم من الناس في المجتمعات الأخرى.

أما " كلودين شولي " فتعرف القرية على أنها : "طبقة تشكل أرضا ريفية تحتوي على كل التجمعات السكانية الرئيسية أو الثانوية و التي لم تدرج في إطار مستويات الوحدة الحضارية، كما تشمل القرية على تجمعات سكانية مبعثرة و غير منظمة."(2)

و حينما نتحدث عن القرية، فإننا نشير بالضرورة إلى أهم ميزة للقرية و هي خدمة الأرض. و بما أننا بصدد البحث و التنقيب عن منطقة «تيزي وزو» التي تحيط بها سلسلة جبلية واسعة و أراضي فلاحية فهي تعطي إنتاجا ملحوظا و تشكل سندا هاما لمدخولات النشاطات الأخرى التي تمارس في المنطقة، علما أن الزراعة التقليدية أو البسيطة كغرس أشجار التين و الزيتون هي التي تطغى في منطقة "تيزي وزو".

بذلك "يشكل الريف جزء كبيرا من مساحة الأراضي التي تصل إلى 793 285 هـ و تشمل ما يعادل ستة و تسعين بالمائة (96 %) من المساحة العامة".(3) فمنطقة "تيزي وزو" منطقة ريفية، و القبائل بالخصوص يهتمون بالأرض و يعتبرونها مصدر عيشهم و عرضهم أيضا، فإن فرّطوا فيها، فرّطوا في شرفهم لدرجة أن القبائلي لا يبيع أرضه إلا للضرورة القصوى و إن فعل فسيعمل جاهدا حتى يسترجعها و بذلك يستعيد شرفه.

بل و يعتني القبائل بالحساب الفلاحي أيضا و ينظمون الزرع وفق جدول فلاحي، و يصل تقديسهم للأرض إلى أنهم يقيمون طقوس سحرية كطقوس التطهير بغرض الزواج في موقع الحرث. "إن الفلاحة لها شرف عظيم عند القبائل... كل ما يخدم ثقافة الحقول أو يقيمها هو محل إحترام الناس. فالعادات و الطبائع و المعتقدات تحمي هذه الثقافة و تشجعها".(4) ربما يعود إهتمام القبائل بالأرض بهذا الشكل إلى فقر المنطقة للأراضي الصالحة للزراعة و خاصة المناطق الجبلية. و إثرى ذلك يعز عليهم التفريط في أرظهم.

(1) غزوي فهيمي " أنماط الحياة الإجتماعية في القرية الأردنية"، مقال في حوليات جامعة الجزائر، العدد 8، 1994، ص 144.

(2) CHAULET Claudine, **la terre, les frères l'argent**, tome 1, office des publications, Alger, 1987, P, 162

(3) KABRI Khelifa, « **Agriculture matériel agricole et errigation** », Tome 1, convention d'étude et de recherches C.R.E.A.D., Tizi-Ouzou, P, 17

(4) HANOTEAU (A), LE TOURNEU (A), **la Kabylie et les coutumes Kabyles**, Tome II, 2ème edition, PARIS 1893, P, 477

تتمركز قرى القبائل في أعالي و قمم الجبال، المنازل متراصية، تعبرها أزقة ضيقة، و طريق واحدة وسط القرية غالبا ما يؤدي إلى الطريق الرئيسي الذي يربط القرية بالمدينة المجاورة.

الملاحظ من بعيد، يشاهد قرى القبائل المبعثرة على قمم الجبال و يتساءل عن سبب إختيار القبائل لهذا الموقع الصعب و لماذا يفضلون أعالي الجبال لتشييد قراهم ؟ من الواضح، أن القبائل عرفوا فترات عصيبة من تاريخهم، و قاسوا حياة أليمة ناجمة عن عزلتهم المميزة و صعوبة الطقس و قسوة الطبيعة و فقر الأرض، و من أجل التصدي لهذه الظروف الطبيعية القاسية فضلوا أن يتمركزوا في الجبال بهذا الشكل الذي يبدو عشوائيا، إنها ضرورة إستوجبتها دافع الحاجة إلى التضامن و التعاون و هذا ما يبدو جليا في أيام المناسبات و الأعياد، في الأفراح و الأحزان. يظهر التضامن في الأعمال الجماعية التي تقام لصالح سكان القرية و التي تسمى "ثويزة"، فإذا حدث و أن إحتاجت عائلة ما مساعدة في بناء بيت مثلا، تجد كل المساعدة من طرف القرية و الكل يتضامن معها. من ذلك فإن، "المقاربة الانتروبولوجية تسمح لنا بالقول أن تجمع الرجال في القرى ينطبق على أول تقسيم إجتماعي للعمل." (1)

هذا من ناحية و من ناحية أخرى، فإن القبائل تعرضوا لحروب كثيرة و معارك متتالية. و لسبب دفاعي هربوا إلى قمم الجبال، لأنهم رجال أحرار. هرعوا إلى الجبال و بنوا قراهم على القمم حتى يتسنى لهم مراقبة العدو القادم من الداخل، كحروبهم المستمرة مع االقبائل المجاورة، أو من الخارج كالمستعمر الأجنبي. و ترك لنا التاريخ مصادر تشهد على أن القبائل أسسوا ممالك في جبال جرجرة و تصدوا للأتراك، و أحسن دليل على ذلك مملكة "كوكو" التي إندثرت اليوم ولم يبق في المنطقة أثر لها سوى الإسم، ولكن يظل السكان يعتزون بانتسابهم إلى هذه المملكة.
نفهم من ذلك، أن العدو كان متربصا بمنطقة القبائل منذ القديم و قبل الإحتلال الفرنسي، كان الخوف و الحيطة من العدو قائمة لذا كان ضروريا على أهل المنطقة أن يصعدوا إلى قمم الجبال يترقبون من أعاليها كل أجنبي أو معتدي يحاول السطو عليهم، كما يقول "بورديو" عن القرية القبائلية : "إنها مكان للترقب و الحماية أين يمكن للقبائلي أن يحرس بدون مشقة حقوله و ممتلكاته."(2)

فالقرية في منطقة القبائل تحمل طابعا خاصا و مميزا، تختلف نسبيا من منطقة جبلية إلى منطقة ساحلية، من حيث العمران و التجمع. فقرى المنطقة الجبلية نلاحظ أنها منغلقة على نفسها، الأزقة ضيقة، المنازل متراصة و البناء يكون عشوائي في شكل طبقات ، نادرا ما نجد منزلا يحتوي على بئر، بل النساء يقطعن مسافات طويلة لجلب الماء. أما في المنطقة الساحلية فتظهر قراها أكثر تنظيما من حيث البناء، المنازل نوعا ما متباعدة فيما بينها، عادة ما نجد عند كل بيت بئرا يخفف على النساء عناء جلب الماء، و لذلك فالحياة في القرى الساحلية أقل صعوبة و قسوة من الحياة المعهودة في قرى المنطقة الجبلية و يصف "مولود فرعون" قرى منطقة القبائل فيقول أن : "جرجرة تظهر و كأنها تخبئ للناظر عالما خياليا، مختلفا جدا عن عالمنا ... و القرى الصغيرة الكامنة على قدمها أو المترامية على قمم المواقع البسيطة تظهر و كأنها صامدة أمام إله جبار" (3).
هكذا تظهر قرى القبائل، تحاول دوما أن تحافظ على تقاليدها و نظمها الإجتماعية معتمدة في ذلك على رصيد الأجداد، تقاوم به كل أشكال الإنحراف عن الموروث الثقافي. و انطلاقا من ذلك، تسعى إلى التعايش مع تغيرات العصر دون مس أو نبش في جوهر العادات و الطبائع.

(1)BOUZAR (W), **La mouvance et la pause**, P, 50 Op. cit
(2) Bordieu (P), **Sociologie de l'Algérie**, P, 90
(3) FERRAOUN Mouloud, **La terre et le Sang**, Edition E.N.A.G., 1988, P, 37

2- ثاخروبث (شجرة العائلة) :

تتركب القرية من مجموعات متعددة يتراوح عددها بين أربعة (4) إلى سبع (7) مجموعات، كل مجموعة يقال لها في عرف منطقة القبائل "أذروم" العشيرة، كل من ينتسب إليها يحمل إسما واحدا و هذا الإسم يعود إلى الجد الأكبر الذي تتحدر منه المجموعة. لذلك نجد في منطقة القبائل أسماء تبدأ بـ "أيت" بمعنى أبناء الجد الأول. كما نجد في مناطق غير قبائلية "بن محمد" مثلا تطلق على كل من ينتسب إلى الجد الأكبر، كلهم ينحدرون من جد واحد و يحملون إسما واحدا.

يعرّف "مولود فرعون" ثاخروبث (شجرة العائلة) على أنها : "وحدة إجتماعية و جغرافية في الوقت نفسه، كل الأقارب يسكنون في حي واحد، العائلات ثابتة دائما في أحيائها ... تشكل كلا، يعرفون بعضهم البعض منذ أجيال ..." (1).

القبائل مجتمع محافظ جدا و متشدد في أعرافه و تقاليده لذا فالعائلا ت التي تتحدر من جد واحد لا تقبل أبدا عائلة أخرى لا تنتسب إلى عشيرتها، " فالحارة " التي تسكن فيها عائلات ينحدرن من نفس الشجرة لا يقبلن دخول عائلات أجنبية عنها، أي تلك التي لا تنتسب إلى جدها الأكبر و لو كانت هذه الأخيرة من القرية، فكل حي تقطن فيه فقط عائلات تحمل نفس الإسم.
ما هو أساسي في " ثاخروبث " و يلفت الإنتباه، هو أن العائلات كلها تحاول الظهور أمام الأخرين في أحسن وجه، أي تعمل كل ما بوسعها لإنقاذ المظاهر و لو حدث و أن وجدت خصومات بين العائلات ،لا يجب أبدا إظهارها إلى خارج " أذروم "، أي إلى العائلات التي تنتسب إلى شجرة أخرى.

حتى و إن كانت العائلات تكره بعضها البعض، لا تسمح بنشر أسرارها في القرية، بل في الأوقات العصيبة من الحياة أو في الأفراح تتعاون كل العائلات و تتضامن من أجل سمعة "ثاخروبث"، فخلق مشاكل و عداوة في المجموعة الواحدة هو مس لحرمة و شرف الشجرة التي ينتسبون إليها، إنه تشويه لشرف أجيال عديدة و متعاقبة. "نحن نملك فهما دقيقا للشرف، للشجاعة و الخصال الحميدة ..." (2). قد يموت أحد أبناء الجد الأكبر (من أفراد أذروم)، فيقوم أهله بتقديم صدقة تتمثل في أكباش أو في ثور، تقدم هذه الصدقة إلى "أذروم" الذي ينحدر منه أبناء الجد، بمعنى، يتقاسم الصدقة أبناء العشيرة الواحدة و لا يشاركهم فيها أهل القرية الذين لا ينتسبون إلى جدهم. و هذه الصدقة تقدم من طرف أهل الميت، أو من أفراد عشيرته الذين يحملون نفس الإسم. و إذا حدث و أن مات شخص من "أذروم" آخر (عيشرة أخرى) يفعل نفس الشيء. فالمشاركة العامة بين أهل القرية تكون في أمور أخرى تتعلق بمصلحة القرية كلها. هنا نتساءل عن سبب تقديم الصدقة من طرف شخص إلى أبناء عشيرته دون الآخرين ؟ فقط لأنهم يرون أن دفنه و المشاركة في تشييع جنازته يتم من طرف أبناء عشيرته لذلك هم الذين يستحقون الصدقة دون غيرهم.

لا يفوتنا أن نشير إلى أن كل "ثاخروبث" تملك "الطامن" من يمثلها في "ثاجماعث"، أي في الجمعية العامة التي تقام كل نهاية أسبوع، تنظر في مصالح القرية و مطالبها.

---

(1) نفس المرجع السابق ص 92
(2) نفس المرجع السابق.

3- ثاجماعث (الجمعية العامة) :

"يوجد في القبائل، و في كل قرية، قوة حاكمة، إنها الجمعية العامة، للمواطنين تسمى الجمعة، و إليها تسند السلطة السياسية، الإدارية، القانونية و التشريعية". (1) الجمعية تتكون إذن، من أصحاب الرأي، كل عضو يمثل "اذروم" عشيرة فيها يلتقي الرجال و يظهرون شجاعتهم، فحولتهم و قوتهم. في هذه الإجتماعات، الرجل ينظر في وجه أخيه الرجل، يسعى جاهدا لإثبات رجولته، شهامته و سداد رأيه. فيها يتقابل الرجال و يأخذ كل ذي حق حقه.
تشتمل "ثاجماعث" على عضوين أساسيين هما :

* **البراح** : هو الذي يعلن عن موعد الجمعية.
* **الطامن** : هو الناطق الرسمي لكل عشيرة يمثلها في الجمعية.

عندما يبرح البراح، تجتمع الجمعية مباشرة بعد النداء و ذلك يوم جمعة (2)، عادة في المسجد أو في مكان واسع في القرية، و في بعض القرى تخصص أماكن خاصة تعقد فيها الجمعية. يقوم أكبرهم سنا و حكمة، يصلي على الرسول (ص)، يعلم الناس بعد ذلك بغرض الإجتماع و الهدف منه، يتحدث كل من له رأي، كل واحد يقترح رأيا يخص إصلاح القرية و شؤونها، كبناء مسجد أو بئر أو طريق (مصلحة عامة). و للجمعية العامة نوعين من الإجتماعات : إجتماع طارئ و إجتماع عادي.

أ- الإجتماع الطارئ :

كبناء مسجد، تنظيف مقبرة، إصلاح طريق أو إعادة فتح طريق في القرية أو الإحتفال ببعض المواسم كعشراء، المولد النبوي الشريف، إقامة زردات ووعدات، إستقبال العام الفلاحي التي تسمى "لوزيعة إوجبن" و هي صدقة تقام من طرف سكان القرية بمناسبة دخول العام الفلاحي في شهر أكتوبر أي في أواخر الخريف و يسمون هذا الوقت بأبواب العام. فيقررون أولا : إطعام الطعام و إخراجه إلى المسجد، كل الرجال و الأطفال يأكلون منه في الجامع، ثم يوزعون ما تبقى منه على السكان لتأكل النساء منه لذلك تبركا بالموسم الفلاحي الذي يرجى أن يكون مباركا و موفور الغلة.
هكذا يدعون ربهم بعد الأكل و طبعا هذا الدعاء إنما يقوم به إمام القرية، فإن لم يوجد أكبرهم سنا. فيسألون الله أن يجعل العام المقبل عام خير و بركة و صحةو توفيق و هداية الشباب إلى توحيد الصفوف و إتباع سنة الأولين.

(1) HANOTAU (A), LE TOURNEU (A), **La Kabylie et les Coutunes Kabyles**, Tome II, P, 7
(2) في حالة وجود طارئ، جنازة مثلا، ينادي البراح إلى الإجتماع في أي يوم و في أي وقت.

الجميع يؤمّنون و قبل النهاية من الدعاء، يتقدم البعض بالتبرع، كل من تبرع يطلب من الجماعة أن يرفعوا أيديهم سائلين الله له أن يعيد إبنه من الغربة مثلا. و آخر يطلب الشفاء من الله، أو أن يرزقه الله ولدا، أو أن يديم الله العافية على الجميع. و الداعي يدعو حسب الطلب، الجميع يقولون آمين. ثم يفترقون بعد أن يقرروا إجتماعا آخر الجمعة المقبل لتقديم الأضاحي "لوزيعة إوجبن ثيبورا أسقاس". إ نها وعدة تقام بمناسبة دخول العام الفلاحي و تسمى بأبواب العام. و العام. في هذا اليوم يحضر سكان القرية كبارهم و صغارهم (ماعدا النساء) لأنه يوم فرح، فيذبحون فيذبحون الغنم أو البقر ثم يوزع اللحم على عدد السكان حسب أفراد العائلة. و الملاحظ أن اللّحم الموزع يدفع أجره بعد أيام بالنسبة للأغنياء القادرين. أما الفقراء المعوزين فإنهم يأخذون اللحم بدون ثمن، الجميع يبيتون في فرح لا فرق بين غنيهم و فقيرهم.
أما دفع ثمن اللحم فتسند هذه المهمة، نعني جمع الثمن من طرف السكان إلى الطامن، إن حدث و لم يدفع أحد، الطامن يدفع في مكانه إذا ضمنه.

ب- الإجتماع العادي :

من القرى من يجعل هذا الإجتماع مرة في كل شهر، مثلا يوم جمعة الأخير من الشهر، و بعضها في كل جمعة حسب عادات كل قرية.
يتمثل هذا الإجتماع العادي في تقديم الشكاوي من طرف السكان، كأن يختلف الإثنان، أو يتعدى غنم أو بقر شخص على أرض شخص آخر، أو يختلف البعض مع الآخر، فيتقدمان في هذا الإجتماع طالبين النظر في أمرهما، يتناقش أهل الرأي حول المسألة فيقرروا ما يروه صوابا. أحيانا، يقررون في الإجتماع إصلاح الطريق أو فتحه من جديد، إصلاح منبع المياه، تنظيف المسجد، تنظيف المقبرة، الحكم على من سبّ الدين أو سبّ والديه، كأن يأتي رجل كبير سبّه ولد صغير فيشكوه إلى القرية، أو نساء يغسلن الثياب في العين من غير إحتياط حتى تصاب العين بالصابون، أو يذهب الشاب إلى العين التي تجتمع فيها النساء لجلب الماء أو للسقي، يتقدمن بالشكاية إلى "ثاجماعت" و ينوب عنهن الأب أو الزوج أو الإبن. فتقرر الجماعة دفع ثمن معلوم، حسب القانون المعروف في القرية، يسمى هذا الثمن المقرر "الحق".

فإذا أنكر أحدهم و ادّعى بأن هذه الشكاية لا أساس لها، بل تهمة من طرف الشاكي، تقرر الجماعة أن يوجه اليمين ليحلف على المصحف بحضور الجماعة و يكون اليمين في مسجد القرية، هذا الشخص الذي وجه إليه اليمين قد يكون إمرأة، تلزم بالحضورأمام الناس لتؤدي اليمين. و يعتبر هذا الأخير شيئا ينقص من قيمة الحالف. و تقرر الجماعة في فصل الصيف خاصة كيفية إستعمال المياه و سقي الأراضي حسب وجود الماء و قلته.

كذلك يعيّنون أوقاتا للسقي و أوقاتا أخرى للرجال، قد يقصدون العين للإستحمام. فمن خالف من الجنسين هذا القانون يعاقب بدفع "الحق". و يختلف الثمن حسب إختلاف الجريمة، فمثلا، لو تتهم إمرأة في شرفها أو هي التي تشكو شابا أراد أن يتعدى على حرمتها إلى الجماعة، يتفق أهل الرأي على حكم ما، و إن حدث و أنكر أبوها أو ولي أمرهاو رفض القيام بما حكم عليه، فإن والدها ينفى من "التوفيق" أي إتفاق القرية، بحيث لا يتحدثون معه، لا يحيونه، لا يدخلون بيته في فرح أو قرح و إن مات لا يقومون بدفنه و إن دخل إلى بيته شخص أو تحدثت إمراته مع زوجة هذا المنبوذ، فإن الجماعة تطلب من الشخص الذي دخل أو تحدث أو حيا هذا الرجل بدفع "الحق". حتى يعود إلى تنفيذ الحكم الصادر في حقه، إن لم ينفذ يترك أو يهمل حتى يموت.

كذلك بالنسبة للشخص المغترب الذي لا يعيش في القرية، لكنه يكون تحت قانون الجماعة، عليه أن يقدم مبلغا من المال في أي مشروع يقام لصالح القرية، إن رفض الدفع يخرج من قانون القرية و يقال عنه "إفغ إتوفيق أتدرث".

يبدو من خلال إستعراضنا للجمعية العامة و دورها في القرية و قيمتها بالنسبة للجماعة، فهي موضع الكلمة الموزونة و الأفعال الرزينة التي تعكس شهامة و فحولة الرجل القبائلي، لكن نلاحظ أن المرأة تقصى من هذا النشاط و لا تملك سلطة إلا في بيتها و بمجرد أن تصبح عجوزا تعطى لها حرية نسبية و تستطيع أن تمر وسط "ثاجماعث" و في بعض الأحيان تحضر العجوز الإجتماع و تبدي رأيها في حالة فقدان من ينوب عنها من أفراد عائلتها و هذا يحدث نادرا.

ملخص الفصل :

تعتبر ظروف المعيشة في منطقة القبائل جد قاسية، خاصة في فصل الشتاء حيث يكون الطقس باردا جدا. الأمطار و الثلوج تكتسي الأراضي، فتصبح الحياة في المنطقة الجبلية صعبة جدا، تضطر نساء إلى قطع مسافات بعيدة لجلب الماء . علما أن هذا العنصر الضروري، يحمل غالبا قيمة رمزية، سحرية و إستشفائية في ثقافة القبائل و بعض الفئات الإجتماعية المنصهرة في هذا المجتمع كالمرابطون و السود الملقبون " بأكلان ". الفئة الأولى تمثل طبقة الأشراف و أسياد المنطقة، هم حفظة القرآن، ينشرون الدين الإسلامي. و الفئة الثانية ينحدرون من العبيد، جاءوا إلى المنطقة بحثا عن العمل و العيش. إستخدمهم القبائل في مزارعهم و حقولهم. أما اليوم، إندمجوا تماما مع السكان الأصليين و ما يميزهم عن غيرهم هي بشرتهم السوداء فقط. بعدما كانوا بالأمس منعزلين لا يشاركون القبائل و لا المرابطون في النظام الإجتماعي للقرية، لأنهم لا ينحدرون من نسل شريف و لا ينتمون إلى الجد الأول الذي ينتسب إليه السكان. باعتبارهم غرباء، لا يملكون الحق في إبداء آرائهم و سن القوانين التي تفرضها " ثاجماعث ".

الفصل الثاني : مكانة المرأة الريفية و دورها في المجتمع القبائلي

• تمهيد

I مكانة المرأة القبائلية إجتماعيا

1- المتزوجة

2- الأم

3- الجدة

4-المطلقة

5-الأرملة

II مكانة المرأة القبائلية و دورها في العائلة

1- العائلة

2- دور الأم في العائلة

III الأدوار الطبيعية للمرأة

1-الحمل

2-الولادة

3-التربية

• ملخص الفصل

مكانة المرأة الريفية و دورها في المجتمع القبائلي.

. تمهيد

تتسم الحياة في الأوساط الريفية بالبساطة و سهولة العيش مقارنة مع المدينة، لكن يعتبر الريف في المقابل حقلا مثمرا، أين تتجذر و تنمو و تترسخ العادات و التقاليد بقوة لتصبح في كل مكان و كل زمان متينة و صلبة لا تزعزعها رياح العصرنة و التقدم الحضاري.
و في هذا المحيط المفعم بالعادات، تظهر المرأة الريفية كعنصر فعال، دورها الأول و الأساسي هو حماية و صون التقاليد. فهي تعلم يقينا أن المجتمع وضعها في وضعية حساسة و في إطار ضيق عليها أن تنمو و تتطور في داخله دون المحاولة في الخروج عن هذا النسق الإجتماعي الذي فرض عليها. لذلك نجدها، تخرج يوميا من منزلها تقصد الحقل أو لجلب الماء و دائما في إطار محمي و مراقب. هكذا أراد لها مجتمع الرجال أن تكون. لا تتجاوز الحدود القائمة منذ أمد بعيد. إن حدث و تخطت المرأة الريفية خطوات ملحوظة نحو التغيير و لكن تبقى اليوم أيضا في ذهن الرجل ترسم صورة الرابطة بين الحاضر و الماضي و هذا ما يفسر حرص المرأة الريفية الشديد على الحفاظ على التقاليد.
علاوة على ذلك، فإن دور المرأة كزوجة و أم يقترنان بنفوذ و إمتيازات أقل من تلك التي تقترن بأدوار الرجل، رغم تفاوت شأن المرأة درجة و تعبيرا، يبقى عدم التماثل بين الجنسين في الوقت الحاضر حقيقة شاملة في حياة الإنسان الريفي.

نرى في مجتمعنا أن وظائف المرأة تختلف عن وظائف الرجل، ففي قرى القبائل يهتم الرجال بالعمل خارج البيت إما الفلاحة أو رعي الغنم و تربية المواشي أو الحدادة أو يعمل في المدينة المجاورة حيث نجد فرص العمل متوفرة، بينما في القرية محدودة جدا و لا تسد حاجيات عائلته.أما المرأة، نجدها تعمل في بيتها، الطبخ و تحضير الخبز، الحياكة و النسيج، جلب الماء، جني الثمار و الزيتون، فإقتران المرأة بعالم المنزل غالبا ما يقيدها و يحد من قيمتها الإجتماعية و الثقافية و يحصرها في الإطار المنزلي تفتقر إلى حرية الوصول إلى بعض إمتيازات الرجل.

لذا نتساءل عن سبب إستمرار المجموعات الإجتماعية التي تتغير جذريا بمرور الزمن في إنتاج و إعادة إنتاج نظام إجتماعي يسيطر فيه الرجل ؟ ربما لأن المرأة تمارس وظائف بيولوجية ينفرد بها الجنس الأنثوي من ولادة و رضاعة. فهي دائمة الإرتباط بأولادها و تربيتهم، توفر لهم الراحة و الإطمئنان، فهي التي تحافظ على توازن البيت و إستمرارية العائلة. لذا إقترن دورها بالتربية و مسؤوليات المنزل. لا تزال النظرة إلى المرأة الريفية تحتل مرتبة أدنى من مرتبة الرجل بالتالي، "يصبح إعتبار المرأة المبعدة عن مشاريع التفوق الثقافية و المحصورة في كيان تفرضه عليها بيولوجيتها مخلوقا أكثر "طبيعية" و أقل "ثقافة"من الرجل"(1).

إن وصف المرأة بأنها أقرب إلى الطبيعة من الرجل يعود أساسا إلى بيولوجيتها و دورها الإجتماعي الذي يتحدد خاصة في التناسل و التربية، و بذلك تكون رمز إستمرارية الجنس البشري إلى جانب الرجل بحيث يشكلان وحدة جوهرية.

(1) روزالدو ميشيل زميلست، لامفيرلويز، **المرأة الثقافة و المجتمع**، ترجمة هيفاء هاشم، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق، ،1976 ص، 28.

I مكانة المرأة القبائلية إجتماعيا :

تتجلى مكانة المرأة القبائلية في الوسط التقليدي في درجة أقل من الرجل، حتى أنها تدرج كرونولوجيا بعد هذا الأخير. الرجل يستثمر الفضاء الخارجي، بينما المرأة تحتكر الفضاء الدا خلي لذا يصبح " الداخل ممتعا من الطرف المرأة، أما الخارج فهي قضية الرجال " (1) مكان المرأة إذن هوالبيت، فالمحافظة على أخلاقها و شرفها لا يجب أن تكشف مظهرها أمام الناس، الرجل وحده يملك الحق في الذهاب إلى السوق، يجلس في الأماكن العمومية، يسافر بمفرده، يدخل متأخرا إلى بيته، يستطيع السهر ليلا مع أصدقائه، يدخل إلى المقاهي، فالمرأة التي تتجرأ و تتجاوز الحدود المفروضة عليها تعتبر من طرف الرجال ذات سمعة سيئة بل و يقيّمها المجتمع على أنها قليلة الحياء. تعرف المقاهي بدورها في تنشيط الحوارات المتعلقة بسيرة نساء القرية و فتياتها، ففي هذا المكان يتحاور الرجال فيما بينهم و غالبا ما ترفع فتيات إلى مصاف الأخلاق الحميدة و يمدح الأولياء في حسن تربيتهم لبناتهم اللواتي حافظن على حرمة عائلتهن و ربما إقترح أحدهم إبنة فلان للزواج إذ يسارع المعني بالأمر لطلب يد الفتاة بناء على ما سمعه عنها في المقهى من سيرة حسنة. كم من فتاة أقصيت من سلم القيم التي وضعها مجتمع الرجال لمجرد أنها تمردت عن العادات الجائرة، و تبقى " المقاهي دائما عامرة بالرجال و كل كوب قهوة هو إقصاء للمرأة ". (2)

أما الكلام أمام الناس ، خاصة في حضرة الرجال فقضية أخرى تدخل في باب حسن الآداب. الرجل وحده له الحق في التعبير عن مشاعره، عن أفكاره ، آرائه، كلمته مسموعة و تطبق في الفور. فالحوار بين الرجال و النساء تقريبا منعدم، النساء يتحاورن بينهن و الرجال كذلك. حينما يخاطب الرجل زوجته لا يناديها بإسمها و هذه عادة نعتقد أنها منتشرة في كل الريف الجزائري، تعتبر القبائل جزء و صورة تعكس مقومات و ثوابت الريف بصفة عامة. كأن الرجل و المرأة "يتطوران في عالمين متوازيين" (3) لا في عالم واحد، تتقسم فيه الوظائف و الأدوار حسب الكفاءات، لا حسب تنوع الجنس. فهل إسم المرأة أيضا عورة، كما هو الحال بالنسبة لجسدها ؟ عندما نسأل الرجل عن سبب مناداته لزوجته بإسم مجهول، عادة ما يناديها بلفظ "يامرأة " أو عندما يتحدث عنها في غيابها يقول "أخميو" أي داري او "ألواشول"، بمعنى العائلة، كلها ألفاظ تنوب عن إسم المرأة. و لا يجد جوابا مقنعا، غالبا ما يرجع السبب إلى العادات و الطبائع التي قولبت مصير المرأة و هذا أمر عادي و طبيعي في نظر الرجال.

كما تظهر في منطقة القبائل بصفة واضحة، صورة التمييز بين الفتيات و الأولاد، خاصة في مسألة تعليم الأولاد و تجهيل الفتيات، فنسبة الأمية مرتفعة جدا في الأوساط الريفية، خاصة في القرى النائية أين وسائل النقل تكاد تكون منعدمة. فالفتاة في هذه المناطق تزاول الدراسة إلى سن يتراوح بين إثنتي عشر (12) و خمسة عشر (15) سنة، في هذه السن توجه إلى التعليم المتوسط و الثانوي، نظرا لبعد القرى عن المدن المجاورة و صعوبة التنقل، تمنع الفتيات من متابعة الدراسة، و تمكث في البيت " خوفا من الفتاة نفسها و ما يمكن أن تجلبه من أضرار، خوفا من الإختلاط، و خوفا من تشويه خيالي لشرف العائلة نتيجة للضعف الطبيعي للفتاة ..." (4)

---

(1) GENEVOIS Henri, **La Femme Kabyle, les travaux et les Jours**, F.D.B., N° 103, fort national, 1969, P 4
(2) BOUDJEDRA Rachid, **La Répudiation**, PARIS, dénoeîl, 1969, P, 39
(3) ABADIR RAMZI SONIA, **La Femme Arabe au Maghreb et au Machrek**, entreprise national du livre, Alger, 1986, P, 107
(4) BENOUN Mahfoud, **Les Algériennes, Victimes de la Société Néopatriarcale**, Edition marinoor, Alger, 1999, P, 181

فالبيت هو المكان الأكثر أمنا للفتاة، في إطاره تهيء لمستقبل يبدو أنه الأهم، تعدها أمها تدريجيا لوظيفة تنتظرها حتما يوما ما، من خلالها تؤدي و ظيفة أساسية في الحياة تكمن في الزواج الذي يؤهلها إلى مرتبة المرأة الصالحة.

الفتاة العازبة لا مكان لها في المجتمع القبائلي، كما يردد الكبار مقولة قديمة لازالت تذكر في قرى القبائل و هي أن الفتاة لا مكان لها سوى بيت زوجها أو القبر. نلمس إذن أهمية الزواج في الوسط التقليدي بحيث " لا تقبل بسهولة عزوبة الرجل فما بالك بعزوبة النساء و ذلك في الوسط الريفي" (1). فالقبائل بالدرجة الأولى لا يقبلون فتاة وصلت إلى سن الزواج و بقيت عازبة، المرأة لا تحتل مكانة إجتماعية راقية إلا بالزواج، إنه واجب مقدس كما يراه كل رب عائلة، إن حدث العكس، و لم تتزوج الفتاة، إما لسبب مرضي أو ليس لها "خطاب"، في هذه الحالة السبب الأخير ليس في صالحها، لأن عزوف شباب القرية عن خطبتها يعود أيضا لعلة ما، و ربما تتهم في أخلاقها و تخرج الإشاعات و تشاع الشكوك حول الفتاة و تصبح حديث الجميع، لذا يسارع والدها في تزويجها بأول رجل يطرق الباب، لا يهم إذا كان يوافق إبنته أم لا ؟ لا يهم أيضا رأيها، فهي مجبرة على القبول و إلا بقيت مشكلا عويصا لعائلتها. فالعزوبة مرفوضة بالنسبة للجنسين و بدرجة أكبر للفتاة. لأن الزواج و تكوين العائلة يرتكز أساسا على قوة الجماعة و القبيلة، فالزواج في هذا المعنى هو بالنسبة للقبائلي ضرورة إجتماعية. كما أن إقصاء المرأة من نشاطات إجتماعية خارج البيت يتحتم على الجماعة أن تجد لها وظيفة إجتماعية تستطيع فيها أن تؤدي دورها إلى جانب الرجل، فمصيرها مرتبط به و لن تجد هذا الدور إلا في الزواج. سنرى لاحقا كيف ينشئ الزواج ؟ و ما هي مكانة المرأة المتزوجة في المجتمع القبائلي ؟

1- المتزوجة :

قبل أن نخوض في أهمية الزواج و مكانة المرأة المتزوجة في المجتمع القبائلي، رأينا أنه من الضروري إعطاء لمحة عن نظرة القرآن إلى الزواج فهو "واجب إجتماعي من و جهة المجتمع للمحافظة على النوع الإنساني و سكن نفسي من وجهة الفرد، و سبيل مودة و رحمة بين الرجال و النساء" (2). فالعلاقة بين الرجال و النساء في الزواج علاقة "سكن" تستريح فيها النفوس و تتصل بهابالمودة و الرحمة. و الزواج في الإسلام عهد و ميثاق بين الزوجين يقوم على أساس التفاهم المتبادل بين الطرفين و شرطه : الإيجاب و القبول و حضور شاهدين. و بما أن الزواج عهد و ميثاق بين الزوجين، يلتزم كل منهما بموجبه واجبات نحو الآخر يقول تعالى : "وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا "(3)، تدل هذه الآية على عهد غليظ و قوي قائم بين الرجل و المرأة، و هذا العهد يرتكز على المودة و الرحمة و ليس عقد تمليك كعقد البيع و الشراء. و لا يتم الزواج إلا بموافقة المرأة البالغة، بحيث يستشيرها وليها و إن وافقت حصل الزواج و إن حدث و أن رفضت لا يجب على أحد أن يرغمها على الزواج إن لم يلائمها و لم يناسبها الخاطب يرد بدون حرج، فالإسلام يعطي الفتاة حرية الإختيار. رغم ذلك، فإن بعض الآباء – خاصة في الأوساط الريفية – لا زالوا يرغمون بناتهم على الزواج المبكر، و أكثر من ذلك، هناك من لا يستشير إبنته و لا ينتظر رأيها بالموافقة أو الرفض، إنما يعلمها فقط بأنه زوّجها لفلان.

---

(1) BOUKHOBZA M'hmed, « **La Mobilité Féminine à travers les relations villes - compagnes** », questions de sciences sociales, organisme national de la recherche scientifique travaux de groupe 1, Septembre 1978, P, 27

(2) طبارة عفيف عبد الفتاح، روح الدين الإسلامي، ط 8 ، دار العلم للملايين، بيروت، 1969، ص، 348

(3) سورة النساء، الآية 21

هذه الطريقة التقليدية التي إعتادها الأولياء و حافظوا على تثبيتها، إعتقادا منهم أنها الطريقة المثلى لسترة الفتاة و الحفاظ على سمعة العائلة، أدى هذا التفكير المتحجر إلى طمس شخصية الفتاة و كأن هدف وجودها في الحياة يكمن في الزواج و الإنجاب، هذا ما دفع بها إلى الخضوع التام لسيطرة الأب أو الأخ أو ولي أمرها، و أحيانا يصل الأمر إلى إنفجار داخلي يسببه الضغط المتواصل الذي تعيشه الفتاة تتجلى أعراضه في الإنهيارات العصبية التي تتفاقم يوميا في المدن و الأرياف، هي نتيجة طبيعية تنجرّ عن عدم وعي الآباء لنتائج و عواقب ما يمارسونه من ضغوطات على بناتهم، هذا ما يلخصه أحد الأطباء النفسانيين إذ يقول أن : " الزواج المرغم ... يقود دائما إلى عدم التوازن النفسي و إلى العصاب و غالبا إلى البسيكوز ... " (1)

لكن رغم هذه النتائج الوخيمة، يبقى الزواج المبكر شائعا في الريف الجزائري و في قرى منطقة القبائل بصفة خاصة حتى أننا نشاهد من الآباء من يزوّج إبنته في سن مبكر جدا بين أربعة عشر سنة (14) و ستة عشر سنة (16)، و من الأولياء أيضا من يعطي إبنته الصغرة "بالكلمة" (2) لإبن أخيه أو لإبن أخته أو لأحد أقربائه، و عندما تصل الفتاة إلى سن الزواج قد ترفض هي أو يرفض الفتى، ذلك ما يؤدي إلى شقاق العائلة و إنقسامها. أما إذا حدث التراضي و القبول بين الطرفين فذلك يعزز أواصر المحبة و القرابة بين العائلة.
من المعروف عن القبائل أن النظام الإجتماعي كله مبني على ثوابت و أهداف ترمي في مجمعها إلى غاية واحدة هي " تثبيت و تطوير التضامن بين أعضاء الجماعة الواحدة " (3). ففي نظر الأولياء، البنت التي يتسنى لها الزواج مع أحد أفراد عائلتها ذلك يرسخ و يثبت التعاون و التآزر بين العائلتين و يوحد الأفراد و يوفر الإطمئنان و الأمان، لأن الفتاة التي تزوجت في عائلتها لا تنبذها هذه الأخيرة و إن حدث و كانت مشاكل بين الزوج و الزوجة فكلاهما يحاول تجاوزها أو على الأقل تحملها، لأن حدوث الطلاق في هذه الحالة يعني إنشطار العائلة و تفككها هذا ما لا يرضاه القبائلي و لو كان ذلك على حساب سعادته.

هذه الثوابت التي يؤمن بها القبائل في الوسط الريفي و كل المبادئ التي يتشبث بها تفرز لنا صورا حية ترسم واقع المرأة القبائلية، و تلخص ببساطة حياتها، ذلك يقودنا حتما إلى إلتماس درجة و قيمة الزواج بالنسبة للفتاة و تحضر لنا في هذا الصدد مقولة قديمة تتردد على شفاه العجائز و هي " ثقشيشث تسعا الزواج نغ ألموث " أي البنت ليس لها سوى الزواج أو الموت. و هنا تتضح لنا أهمية الزواج إذ المرأة لا مكانة لها إلا في وضعية الزوجة، و في هذه الحالة تكتسب إحترام عائلتها و قريتها بصفة عامة. فالعزوبة لا مكان لها في طبائع و آداب القبائل، ذلك يعرض الفتاة إلى الفساد من جهة و من جهة ثانية تكون فريسة سهلة لكل من يحاول إنتهاك حرمتها و هنا يصل التضامن بين أفراد العائلة إلى أقصى حد ممكن و يتجلى في الثأر للشرف بهدف توفير الأمن و الحماية للأفراد و ضمان القوة و الصلابة للجماعة الواحدة. فعلى الزواج و على العائلة ترتكز قوة الجماعة و القبيلة، و على إثر ذلك يتبين بوضوح أن الزواج و تكوين العائلة تمثل للقبائلي ضرورة إجتماعية ملحة.

---

(1) NAWAL Yasmina, **Les Femmes dans l'Islam**, Edition La Bréche, PARIS, 1980, P, 54

(2) إعطاء الفتاة بالكلمة بمعنى أن الأب يعطي كلمة شرف للمعني بالأمر، و يعده بتزويجه إبنته عندما تكبر.

(3) LEFEVRE Laure Bousquet, **La Femme Kabyle**, Bibliothéque des questions Nord-Africaines, Volume 3, PARIS, 1939, P, 28

إن الرجل في المجتمع القبائلي بالخصوص يتمتع بسلطة تامة على المرأة، بينما تحتل هي المرتبة الدنيا و تعتبر قاصرة في نظر الرجل و المجتمع لذا يتدخل لحمايتها و رعايتها و الدفاع عنها كأنها كائن ضعيف بحاجة مستمرة و متواصلة للحماية. ذلك يشعرنا بأن هناك خطرا ما يتربص بالمرأة و ربما يهددها، و الرجل وحده كفيل بصده عنها، إنه دائما في خوف و قلق عن مصيرها و مستقبلها، لا يجد منفذا لحيرته سوى تزويجها. هي الطريقة الوحيدة التي يستريح بها الأب و يتخلص من شكوكه و مخاوفه، إن تم ذلك و أسند المهمة لزوجها الذي بدوره يرعاها و يحميها، فتنتقل السلطة و السيطرة من الأب إلى الزوج و تبقى المرأة خاضعة مدى الحياة.

مادامت قاصرة، ضعيفة و بحاجة إلى حماية متواصلة والأهم من ذلك أن إستقلاليتها و إعتمادها على نفسها، خاصة إن تمادت في وضعية العزوبية، فإن ذلك عيب و خروج عن المؤلوف في وجهة نظر المجتمع. فالمرأة يجب أن تعيش " في ظل الرجل " كما أنها لا تكتسب مكانة إجتماعية لائقة إلا بالزواج كما تقول الكاتبة "صونية أبادير" : "المرأة تتمثل غالبا على أنها ليست سوى ظل الرجل" (1).حقيقة فإن في بعض الأوساط الريفية ذات الطابع التقليدي و بعض قرى القبائل المعزولة نموذجا حيا لمسح شخصية المرأة و تبدو فعلا على أنها ظل الرجل، وجودها الأساسي يكمن في الزواج، الإنجاب، التربية و الأشغال المنزلية، يعميها الجهل و الأمية فلا تعرف حقوقها، تعلمت منذ الصغر أن الإستقامة تفرض عليها الطاعة و الخضوع لزوجها، تلبي رغباته و تنقاد لأوامره، لا تحاول أن تفهم كثيرا و لا تتكلم أمام الرجال، عليها أن تتجنب كلما يغضب زوجها أو يناقضه، لأن قلب الرجل رهيف"يمكن أن يتكسر"، إن كان ذلك بّدلها بأخرى أو ربما طلقها. إنها تعاليم تلقنها الأمهات لبناتهن يتفانين في ترسيخها و غرسها في أذهان الفتيات اللواتي يصبحن يوما أمهات، بدورهن ينشرن هذه المبادئ للأجيال اللاحقة. تظل الحلقة تدور و الوضعية المزرية للمرأة قائمة، لتظهر حقيقة واحدة يؤمن بها مجتمع الرجال، هم وحدهم لهم الحق في التعبير عن شعورهم و أحاسيسهم لهم الحرية الكاملة في الإختيار، أما المرأة فهم لا يرون إطلاقا بأنها مهانة أو محتقرة. كثيرا ما صادفنا رجالا في الريف سيما في منطقة القبائل يتساءلون عن سبب نهوض النساء في المدن يطالبن بالمساواة و قد أفصح لنا بعضهم عن خيبة أمله فيهن لأننا مجتمع إسلامي لا يصح أن نعقد مقارنة مع الغرب، فثقافتنا مختلفة و لا يجب أن نستورد أبدا هذه الأفكار الغريبة عن مجتمعنا.
فعلا معظم الرجال لا يدركون ضرورة إدماج المرأة في المجتمع، لقد عهدوها كائنا ضعيفا، تؤدي أدوارا محدودة، لم يتساءلوا يوما في تغيير هذه الوظائف الطبيعية و ربما عملوا عمدا على تثبيت هذه الأدوار و إحاطتها بحراسة صارمة كي لا تفلت من هذه القيود، أحيانا، يصل الحد إلى إعتقاد الرجل بأن المرأة "أخت الشيطان" لذلك تضمر بداخلها الحقد، البغض و الشر في بعض الممارسات السحرية التي تتقنها النساء جيدا، لهذا السبب و خوفا من إفلات قوة الشر الكامنة فيها يقيدها و يسيطر عليها.

كما أشرنا إليه سلفا، فإن الزواج في منطقة القبائل ليس إرتباط بين رجل و إمرأة فقط، إنما هو إرتباط الجماعة بأكملها، لهذا فإن الأب يختار لإبنته رجلا من عائلة محترمة، إما أن ينتمي إلى نسب الأشراف إن كان هو من أصل المرابطين، أو تكون العائلة التي يناسبها معروفة "بالنيف"، "الحرمة"، الشرف، السمعة الطيبة و السلوك القويم لكل أعضاء هذه الجماعة، ما نلاحظه هو رغبة و أمل الأب في تزويج إبنته لرجل متعلم لا يهم إن كان فقيرا أو إبن فلاح أو راعي.

(1) ABADIR (S), La Femme Arabe au Machrek et au Maghreb, P, 108

يعود سبب إهتمام الآباء لإختيار العائلة المناسبة التي يرضاها للمصاهرة إلى عنايته الشديدة في بقاء إبنته في كنف عائلتها الجديدة مدى الحياة، لأن الطلاق منبوذ لدى القبائل، للحفاظ على نجاح الزواج و ضمان سعادة الفتاة، يشترط على المرأة التي تزين العروس أن تكون سعيدة في حياتها، هذه المرأة تختارها عائلة الفتاة لا يهم إن لم توجد صلة قرابة بينها و بين عائلة العروس، المهم أن تكون " إمرأة تزوجت مرة واحدة، لا تكون أرملة و لا مطلقة، يجب أن يكون لها أولاد، و تكون محضوضة في حياتها" (1). هذا من أجل أن تكون العروس سعيدة في حياتها مثل هذه المرأة.
لا تزال هذه العادة سارية في قرى القبائل إلى يومنا هذا. يستحسن أن تكون المرأة التي تهيئ العروس أما للذكور، كي يكون للفتاة نفس الحظ و بدورها تكون أما، لأن الزواج وحده لا يكفي، عليها أن تبرهن على خصوبتها و أنها قادرة على الإنجاب، كل العائلة تنتظر ذلك، إنه واجب كل إمرأة، إذ لا يكتمل هدفها إلا إذا إرتقت إلى مرتبة الأم بهذا الشكل فقط تساهم في إستمرارية العائلة، بهذه الوسيلة أيضا تكتسب مكانتها في المجتمع، مادامت الجماعة لا تعترف إلا بالمرأة الأم.

2- الأم :

يكتمل دور المرأة – في نظر المجتمع – إذا أثبتت قدرتها في الإنجاب و كلما أدت و ظائفها الطبيعية بإتقان كلما سمت مكانتها الإجتماعية، و حققت بذلك الوضعية السوية التي تؤهلها للإرتقاء إجتماعيا، بالخصوص إذا أصبحت أما للبنين، فهي تضمن لنفسها الإستقرار الأكيد في وسط عائلتها الجديدة، من ثم تبعد عن نفسها شبح الطلاق الذي سيظل يهددها طالما لم ترتق إلى مرتبة الأم.
فالمرأة المنجبة ترضي الرغبة الملحة التي تجتاح كل قبائلي فيما يتعلق بقضية الإنجاب. نادرا جدا ما نجد رجلا يتقبل إمرأة لا تلد، إن لم يطلقها، فسيتزوج بإمرأة ثانية بحجة الأولاد، و العائلة ترضى بهذا الواقع و ترى ذلك حق شرعي للرجل. " فبالتطليق يستطيع الزوج أن يفك الرباط الزوجي، العادات تخوّل له هذا الحق بدون تحفظ أو أدنى شرط، بينما المرأة لا تقدر على الإعتراض جرّاء هذا التطليق التعسفي و لا تطلب حتى فك هذا الرباط" (2). إذا حدث العكس، و جاء العقم من الرجل فتلك مسألة أخرى، لا يصدق على المرأة ما يصدق على الرجل، بحيث لا يجوز لها إطلاقا أن تفك العلاقة الزوجية بمجرد أن المرض صادر من الزوج، عليها فقط أن ترضخ للأمر الواقع، تتقبل بالقدر و "المكتوب"، تضحي في سبيل شرف عائلتها، لأن المرأة المحترمة و المتحلية بالأخلاق و التربية الحسنة لا تترك زوجها بسبب عدم الإنجاب.

رأينا و لاحظنا في قرى القبائل بصفة خاصة، أن المرأة التي تغادر بيت الزوجية و تطلب فك العلاقة التي تربطها بزوجها بحجة عدم قدرته على الإنجاب، تصبح حديث الناس و تنبذ من قبل سكان قريتها، تشوّه صورة و سمعة عائلتها لأنها في نظرهم "قليلة الأصل"، أكثر من ذلك، فهي تعرّض نفسها لمكانة المطلقة الدائمة، فلا أحد يتجرأ للزواج بها في القرية، إلا إذا تقدم لها رجل مسن أو من منطقة أخرى.

(1) Ait Amar ou Said Yamina, **Le Mariage En Kabylie**, Traduction de s'louis de vencennes, 2ème partie, F.D.B, Fort National, grande Kabylie, 1960, P, 184
(2) VIRGIER (R), **La Femme Kabyle**, P 8

نتيجة هذه الوضعية التي لا تزال تعيشها المرأة الريفية في منطقة القبائل، لا تملك إزاء هذا الوضع إلا الإمتثال لرغبة المجتمع الذي يطالبها دوما بأداء دورها الطبيعي في الإنجاب، بل يحمّلها المسؤولية كاملة إن عجزت عن ذلك، لهذا السبب تجد نفسها في غالب الأحيان مضطرة للجوء إلى أساليب السحر و طرق التطبيب التقليدي، علّها تعثر على دواء ينقذها من ألسنة الناس و شتيمة عائلة الزوج.

أما إذا أكرمها الله بمولود خاصة إن كان ذكرا، فالوضع سيختلف و نظرة العائلة تتغير، و وضعية الأم ستعرف الإستقرار التام " بهذا الولد ستساهم في بناء ما سيكون فيما بعد عائلتها النهائية، و يتسنى لها ان تنمو في هذا الدور الإجتماعي الوحيد الممنوح لها"(1). يتضح لنا إذن من خلال هذا الواقع أن البداية الحقيقية و المضمونة لحياة المرأة هي الأمومة و في هذا الشأن يحضرلنا مثل قبائلي تردده النساء و يقول :" ثمطوث أمتجرة أر دتبان أمثسع إزوران" بمعنى أن المرأة مثل الشجرة لا تظهر خصالها إلا بعد ما يكون لها جذور. أي قبل أن تلد، تبدو مطيعة، طيبة و خاضعة للزوج و عائلته. بمجرد أن تصبح أما يتغير سلوكها و ربما تفقد هدوءها و تطالب بحقوقها، فمركز الأمومة يؤهلها إلى إثبات مكانتها في عائلة الزوج بشكل دائم لذلك تقول العجائز أن المرأة الطيبة – في نظرهن – لا نميزها عن غيرها إلا بعد كونها أما. لا يجب أن ننسى أن أم الذكور تختلف مكانتها في المجتمع عن مكانة أم البنات، علما أن هذه الأخيرة لا تخاف من الطلاق، لكن زوجها يسمح له العرف بالزواج مرة أخرى فقط لأنه لا يملك ولدا. فمن الواضح جدا أن تظهر أم البنين على أساس أنها المرأة الوحيدة المعترف بها في قانون المجتمع التقليدي الذي وضعه الرجال.

من الغريب أن تشعر المرأة بالنقص إذا لم تنجب ذكورا، و قد شاهدنا نساء ريفيات ذات مستوى ثقافي متوسط يتمتعن بدرجة لا بأس بها من الوعي بالمقارنة مع مثيلتهن من النساء الريفيات، رغم ذلك، يشكين من حظهن و يتمادين في الإنجاب طمعا في مولود جديد يكون ذكرا. هذا الشعور بالإحتقار و النقص راجع إلى الفكر المتحجر و النظرة التعسفية التي يبديها المجتمع إزاء المرأة. للأسف الشديد، لا تزال هذه المظاهر راسخة و ثابتة تغذيها و تدعمها الأنظمة التقليدية و كما تقول "GERMAINE TILLION " : " كل شيء يترسخ في المجتمع : كل شيء يتقدم أو يبقى ثابتا. و في عالم يسير بسرعة فائقة كعالمنا، الثبوت يعتبر قاتلا ". (2)

ترى الأم أن أولادها الذكور وسيلتها الوحيدة في تعديل و ضعيتها المستقبلية، يمثلون سندها و قوتها خاصة حينما تزوجهم و تصبح جدة، تحترم من طرف عائلتها و مجتمعها، تفلت من القسر الإجتماعي المفروض عليها بالأمس، لذلك تشعر بالغبطة و السرور كلما أنجبت ذكورا. كما تسعى الأم أيضا إلى إثبات قدرتها في إنجاب الذكور كي تبدو مكتملة كغيرها من النساء، هي تعتقد أنها المسؤولة الوحيدة، بينما زوجها لا دخل له و لا مسؤولية عليه.

إنه جهل المرأة الريفية بوضعيتها واستطاعت أن تغترف من إناء الأمية، تشبعت منذ الصغر بتفكير تقليدي يجردها من الوعي و من التمييز بين واجباتها و حقوقها، كلما حاولت أن تتفهم واقعها و من ثمة تغيره، إصطدمت بجدار ضخم تعلق عليه قوائم لا حصر لها من الممنوعات و المحرمات التي لا يصح أبدا أن تتجاوزها و إن فعلت، تكون قد أدرجت نفسها ضمن فئة النساء اللواتي إلتصقت بهن بصمة العار التي لا يمحوها الزمن.

---

(1) KAYSER (B), **Les Sociétes Rurales de la Méditerranée**, P 86

(2) TILLION GERMAINE, **Le Harém et les Cousins**, Editions du seuil, PARIS, 1966, P,198

إنه واقع المجتمع التقليدي الذي يكرس لا مسؤولية الرجل، و سيطرته المطلقة على المرأة، بالتالي يساهم في إنشاء وحدات إنسانية تنمو و تتطور باستمرارمن حيث العدد و الكم لتتقلص في المقابل من حيث النوعية. نظرا لهذا الإطار المقولب من طرف المجتمع الذي تخضع له المرأة في الريف القبائلي، تجد نفسها مضطرة لتبني شروط القهر و الضغط الذي تعيشه و تقاسيه يوميا، تظل تحلم باليوم الذي ستزوج فيه أبناءها و تصبح جدة لعلها تكتسب نوعا من الحرية و المسؤولية.

3- الجـــــــدة :

تصل المرأة الريفية في المجتمع القبائلي إلى وضعية تكتسب فيها سلطة و حرية ملحوظة بمجرد أن يتقدم بها السن، فهي تخرج متى تريد، تمر أمام الرجال، تتحدث معهم، تبدي رأيها، تفرض كلمتها و يستشيرها أفراد العائلة و يكمن دورها في " الحفاظ على وظائف المجتمع القديم الذي يعترف للمرأة المسنة بالحكمة و الوقار، فيسند إليها هذه السلطة و الحرية في إتخاذ القرارات الخاصة بعائلتها أو بالحياة الإجتماعية عامة". (1)

لا يمكننا أن نتحدث عن سلطة الجدة و إكتسابها لحرية لم تكن تتمتع بها قبل هذه السن، دون أن تتبادر إلى أذهاننا مجموعة من الأسئلة تفرض نفسها و هي كالتالي :
هل إكتساب المرأة المسنة للحرية و السلطة مجرد غرفان لما قدمته من تضحيات و عفة و شرف لعائلتها ؟ أم لأنها فقدت جمالها و جاذبيتها و لم تعد تسبب الفتنة و العار للعائلة و للمجتمع ؟ هل هذا الجسد العقيم هو الذي أهل المرأة العجوز إلى السلطة ؟

من المؤكد أن المجتمع خلع الحرية و السيطرة للمرأة الفاتنة، المرأة المولدة و يمنحها إياها عندما تفقد هذه الوظائف الحيوية. إنها المكافأة التي تحصل عليها المرأة المسنة من طرف العائلة، تحضى بالإحترام و العناية من طرف أبنائها المتزوجين. هنا يكبر دورها و تصبح كلمتها مسموعة، أحيانا تشارك في السلطة و السيطرة على أفراد العائلة، بالخصوص على كناتها و بنات أبنائها، بحيث تستشار في كل أمور المنزل.
الكنة عليها أن تكون مطيعة، خجولة، خاضعة للزوج و لأمه، عليها أن تخضع لمجموعة من القواعد السلوكية التي تحتم عليها أن يظل وجودها غير بارز، تعيش تحت حماية و رعاية الزوج و أمه، فهي ملزمة تجاه عائلة زوجها بالإحترام و الطاعة و الوفاء. هكذا حتى تصل هي أيضا إلى نفس السن لتحضى بهذه المرتبة و من جيل إلى جيل، يتشكل و ينمو وجود المرأة في هذا النسق الذي يعيد نفسه عبر الأجيال.
تصل سلطة المرأة المسنة أحيانا إلى درجة القهر و السيطرة التامة على الكنة، و قد تتدخل في حياتها الخاصة و تحاول أن تفرق بين إبنها و زوجته، ذلك بدافع الغيرة، فهي تشعر بأن إمراة أجنبية أخذت منها إبنها، و ذلك يعني لها الكثير، هذا الإبن هو سندها الوحيد، وضعت كل آمالها و أحلامها على عاتقه و إن لاحظت أنه متفاهم و متعلق بزوجته دفعتها الغيرة إلى خلق مشاكل قد تؤدي بها إلى الشقاق. كما أن كل إمرأة عانت في شبابها القهر و الضغط من قبل الزوج و أمه. هي بدورها عندما تزوج إبنها تمارس على الكنة نفس الضغط الذي عانت منه بالأمس. فهي تثأر لنفسها، بهذه الطريقة تعوض ما عاشته طوال سنوات طويلة من رضوخ و معاناة نفسية.

(1) KHADDA Nadjet, **Representation de la feménité dans le roman Algérien de la langue française**, offices des Publications universitaires, Alger, 1991, P 19

بما أن الرجل خوّل الجدة السلطة و حرية التصرف، فإنه يمنحها الثقة الكاملة في رعاية أفراد العائلة، فإن تغيّب عن المنزل، تركها تحمي و تحافظ على شرف العائلة، ففي هذه الحالة تنوب عنه في الحماية و السيطرة و توفير الأمن و الرقابة على الفتيات و على نساء البيت بصفة عامة. فليس غريبا أن تخضع الكنة لأم الزوج، في إنتظار أن تصل بدورها إلى مكانة الجدة، بذلك ستساهم في إعادة بناء و ترسيخ سيطرة الرجال. بالإضافة إلى هذا الأمل الذي تعيش من أجله الكنة فهي تظل مطيعة لأم الزوج، محاولة أن تكتسب محبتها، خوفا من غضبها و سخطها عليها، ذلك قد يعرضها للطلاق و ربما يخضع الزوج لرغبة أمه إذ تجد نفسها في وضعية المطلقة، ذلك لا يزيدها سوى الإهانة و الإحتقار في مجتمع ينظر إلى المرأة المطلقة بنظرة خاصة.

4- المطلقـــــة :

يعتبر وضع المرأة المطلقة في المناطق الريفية للقبائل جد حساس، بحيث ينظر إليها المجتمع على أنها غير صالحة دون أن يبحثوا في أسباب الطلاق أو وضع الرجل في موقع الإتهام، يخرج دائما سالما، فالتقييم يصدق على المرأة فقط. كون المرأة مطلقة لا يزيدها سوى طمسا لشخصيتها و تؤخذ إحتياطات عديدة من طرف العائلة إزاءها، فلا يسمح لها بالخروج من البيت بمفردها و يسعى الآباء إلى تضييق العلاقات بينها و بين الرجال بما فيهم الأقارب لأنها قد تتجاوز بعض الحدود المفروضة عليها، هذا يشوّه منطق التقاليد للعائلة و لربما يعطي ضربة قاسية لفخر العائلة و تماسكها العضوي. و القبائل بدرجة خاصة يحتاطون كثيرا للمرأة المطلقة و يقولون عنها : " إكس أزرب أفخام " أي : زال الحجاب عن البيت. بمعنى أن المطلقة تختلف عن الفتاة العذراء و بالتالي تستطيع بسهولة أن تكوّن علاقات غرامية مع الرجال، ربما أوصلها ذلك إلى مرتبة الأم الغير الشرعية، فتلك صدمة و كارثة تحط بالعائلة. و لرد الإعتبار لشرف العائلة في هذه الحالة، تنفى المرأة المسببة للعار من البيت أو تستعيد العائلة شرفها بدم المتهمة. من المتفق عليه إجتماعيا أن المرأة لا تكتسب قيمتها إلا في كنف العائلة يحميها الزوج، عليها أن تكون دائما مطيعة، محافظة، غير بارزة، بينما زوجها يظهر في صورة لائقة بجنسه، فالذكر يبرزه المجتمع و الأنثى تتستر و تختفي غالبا في حضور الجنس الآخر. هذا النسق القيمي الذي حددته الجماعة يعكس بوضوح خوف و إحتياط العائلة – بشكل مستمر – على مصير المرأة المطلقة و يفسر تعسف الإجراءات المتخذة لحرمان المرأة من أدنى حقوقها، فإن تحملت سيطرة الزوج و عدم تفهمه لوضعها تكون قد صانت حرمته و شرفه، أما إذا رفضت الرضوخ و الإحتقار و طلبت الطلاق لإسترجاع كرامتها المهانة و إعادة الإعتبار لقيمتها الأنثوية فهي بذلك تكون قد عرضت نفسها لوضعية دونية.

يبدو أن المرأة تكتسب قيمة من خلال الزواج و بمجرد أن تفقده تنهار قيمتها الشخصية. هو منطق المجتمعات التقليدية التي تنظر إلى الرجل على أنه الأقوى الذي يعمل جاهدا لحماية المرأة، هذا الكائن الضعيف الذي يحتاج دائما لحماية، فيظهر الرجل على أنه ليس بشرا بل مقدسا. نستطيع القول أن كل المجتمعات التقليدية –بما فيها المجتمع القبائلي – قائم على نظام واحد يتسم بوضع حدود واضحة و جائرة في أحايين كثيرة بين الجنسين. تجد المرأة نفسها، الضحية الوحيدة، لا تقدر على الإفلات من الحلقة التي تدور فيها، تنتقل من سيطرة الأب أو الأخ إلى سيطرة الزوج، إذا ضاقت بها الأيام و قررت إزاحة ستار الظلم على وجهها، في هذه الحالة، يعترضها واقع أمرّ من الأول، لا تمنح لها فرصة للتعبير و تصطدم بتقاليد جائرة ترتكن إلى تهميش المرأة المطلقة و تظل قاصرة، تعاني من إعاقتها مدى الحياة مادام أن المجتمع لا يبال بهذه الفروق بل و يتحيز إلى جنس دون الآخر " السكوت عن الفروق التي يعاني منها الفرد هو ما يعرضه للفناء." (1)

(1) KHODJA Souad, A Comme Algériennes, Edition ENAL, Alger, 1991, P 78

متى يفهم الرجال أن الرجولة لا ترتكز على السيطرة و العنف، طمس شخصية المرأة و التحكم في خصوصياتها و في مستقبلها ؟ متى يدرك أن الرجل الحقيقي هو الذي يبني علاقته مع زوجته على أساس التفاهم و الحوار و ليس على التجبر و التملك ؟

يزيد وضع المرأة المطلقة سوء، نتيجة عدم تمدرسها من جهة و إبتعادها عن ميدان الشغل من جهة ثانية، بإعتبار أن نظرة المجتمع لتعليمها لا تزال مشوبة بالحذر مثلما هو الشأن لعملها. للأسف توقفها عن التعليم أو حرمانها منه يرجع إلى معتقدات ترسخت منذ حقب طويلة في ذاكرة الأجيال و تأتي لتقف حجر عثرة أمام تعلم المرأة في بعض الأوساط الريفية، بالإضافة إلى ذلك، نجد بعد و عزلة بعض القرى التي لم تصلها وسائل النقل نظرا لبعد المسافة بين الإقامة و المدرسة.
في هذه الوضعية تجد المرأة نفسها قاصرة، تعتمد إعتمادا كليا على الرجل، فالمعيش اليومي يأتيها من الزوج، هذا ما يساهم في تثبيت و تكثيف مشاكلها و معاناتها، فعدم تحررها إقتصاديا يجعلها تسير نحو وضع مقلق و تنقاد وراء ظروف إقتصادية مزرية تدفعها حتما للرضوخ التام للزوج هذا ما يزيدها شعورا بالنقص و القصور و كلما زادت في السن، كلما نقصت حدة إمتلاك الزوج لها، فهي تعيش على أمل أن يكبر أولادها و تتحرر من الضغط المستمر الذي تحملته مجبرة.

أما إذا حدث و ترملت، فواقعها سيتغير و المجتمع سينظر إليها بنظرة التقدير و الإحترام و يسند إليها مسؤولية العمل خارج البيت بهدف أنها ملزمة على تربية أولادها.
هكذا تبدو التناقضات جلية فيما يخص حكم و تقييم المجتمع للمرأة و المبني على وضعيتها الإجتماعية، فالأرملة ليست كالمطلقة في نظر المجتمع، هذا السلم القيمي لا يفسر إطلاقا الأحكام التعسفية الصادرة في حق المرأة الريفية.

5- الأرملـــــــة :

تحتل المرأة الريفية مكانة إجتماعية لائقة أما أو جدة أو أرملة. فإذا مات زوجها و ترك لها أولادا لها الحق في العمل خارج البيت من أجل تربية أولادها، كما أنها تملك الحرية التامة في الخروج بمفردها لجلب الماء، قطف الثمار، جني الزيتون أو خدمة الأرض. تمنح لها العائلة الثقة المطلقة لأنها أثبتت عن عفتها و صونها لكرامة زوجها الراحل.
نظرا للإحترام الذي تحضى به من طرف العائلة و من قبل المجتمع تشارك في تنظيم المواسم و الأعياد الشعبية، هناك أرامل عديدات يقمن بعلاج الأطفال من العين و يتقنن فنون التطبيب التقليدي و بعض العائلات في منطقة القبائل يطالبن بهن لتقبيل المرأة في وضع حملها، بحيث نعرف أرامل تفرّغن لوظيفة القابلة و اشتهرن بقدرتهن و بركتهن في تسهيل عملية الوضع لدرجة أن الأمهات يطالبن بهن، فيتنقلن من عائلة لأخرى و أحيانا من قرية لأخرى.

ما يثير الإنتباه حقا، هو أن الأرملة غالبا ما تلعب دور الأب المتسلط الذي يصل إلى إقتراف الجريمة إذا مس أحد عرضه من قريب أو من بعيد. المرأة بدورها تصبح مسيطرة، متسلطة مع بناتها، خاضعة، ضعيفة أمام أولادها الذكور، فهي تميز دائما بين البنت و الإبن، بحيث يأخذ الأخ الأكبر مكان الأب المفقود و يشجع من طرف الأم و يبقى الرباط وثيقا بين الأم و إبنها فهو الذي يعوض الأب لذلك تصل إلى التضحية بالبنت في سبيل الحفاظ على الإبن.

في هذا الأمر حادثة حية تشهد على قسوة الأم أحيانا على الفتاة. وقعت القصة في سنوات التسعينات في قرية من قرى منطقة "تيزي وزو" عندما تفطن الأخ أن أخته حاملا طلب من أمه أن تساعده في قتل البنت و هددها بالفرار من البيت إن لم توافقه. طبعا فضلت هذه الأرملة قتل إبنتها (1) من أجل الحفاظ على إبنها الوحيد.

هذه القيود التي تضعها المجتمعات التقليدية على المرأة، بحيث تكون بإستمرار موضع شك و خوف لأنها المسببة للعار لذلك إبعادها نهائيا من الحياة هو الحل الوحيد لتماسك شرف العائلة، هنا تكمن مأساة المرأة و معاناتها التي تتجذر من عادات و تقاليد بالية تزيد و تضعف من آلام المرأة و تجعلها في وضعية صعبة. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف تتحول الأرملة إلى مشارك فعال للرجل في إقصاء المرأة و قتلها ببشاعة ؟ كيف تتقمص دور الرجل و تصبح عضوا أساسيا في الجريمة ؟ أليست بالأمس مقهورة، ضعيفة و خاضعة لسيطرة الرجل ؟

لا نجد جوابا مقنعا يفسر و يحلل سلوك المرأة المقهورة بالأمس و التي تمارس نفس السيطرة على بناتها، نعتقد فقط أن جنوحها إلى القسوة يرجع إلى التربية التي تلقتها من الأب ثم من الزوج، خاصة و أنها تزوجت في سن مبكرة، فاستطاع الزوج بأنانيته أن يربيها كما يشاء و يعيد تشكيل نموذج المرأة المطيعة، الخاضعة و نجح فعلا في مسح و طمس شخصيتها، أصبح وجودها مرتبط بالرجل، لا تفكر إلا من خلاله، تؤمن أن لا قيمة لها إلا في ظل الزوج أو الإبن لذلك تنوب أحيانا عنها و تقترف أبشع الجرائم في نفسها و شخصيتها و جسدها.

II- مكانة المرأة القبائلية و دورها في العائلة :

يروّج القبائل مثلا مشهورا يوضح مكانة المرأة و دورها في العائلة و هو كالآتي :

" ثمطوث ذلساس " : المرأة أساس البيت.
" أرقاز ذجق ألماس " : الرجل هو الدعامة الوسطى للبيت.

يبين هذا المثل الشعبي مكانة المرأة في العائلة و يشبهها بأساس البيت به تتماسك العائلة و تقوى، بينما الرجل يشبّه بالدعامة التي تسند سقف البيت و يحميه من الإنهيار، فالرجل –في نظر القبائل– هو العمود الفقري للعائلة و الركيزة الأولى التي يقوم عليها البيت، أما القاعدة و الأساس الذي يبنى عليه هي المرأة.

تتفرّغ المرأة الريفية تفرغا كليا لبيتها تتفنن في تزيينه، تصنع الأواني، المزهريات من الفخار، و في بعض الجهات من منطقة القبائل، نسرد على سبيل المثال منطقة "واظية" أين يلاحظ الزائر رسومات و زخرفة على الجدران، بحيث لا تظهر على الحائط سوى هذه الرسومات فيبدو البيت و كأنه لوحة فنية، تحمل أشكالا تخفي قيمة رمزية ترمي إلى الخير و البركة و التفاؤل، من يعرف العادات و الطقوس السحرية لهذه المنطقة يستقرء من هذه الرموز كمون قوة سحرية حامية لأهل البيت من أي أذى أو ضرر خارجي.

(1) أجبرتها الأم على تناول كمية من الأدوية (؟) ، نظرا لجهل الفتاة إستسلمت للجريمة، دفنت بسرعة و لم تكتشف السلطات أي أثر، النساء اللواتي قمن بغسلها أفشين السر. بعد مرور أشهر على الجريمة، دخلت الأم مستشفى الأمراض العصبية، و اليوم تعيش مع إبنها المجرم.

دور المرأة إذن في العائلة هو الرقابة المستمرة من أجل الحفاظ على تماسك أعضائها، بفضلها يتحول « الداخل إلى متعة و لذة خاصة، أما الخارج فتلك قضية الرجل» (1)، كلما تقدم بها السن يزداد إحترام العائلة لها و تصبح كلمتها مسموعة، تستشار في أمور البيت، بإعتبارها الأم الكبيرة، يستفيد أبناؤها و بناتها من حكمتها و تجربتها في الحياة، فهي مقتصدة لا تحب التبذير و تتقن جيدا كيف تسيّر شؤون البيت لذلك يضرب بها المثل في حسن تصرفها " أخام أرنسع ثمغارث ذالغرس أرنسع ثذكرث "، أي البيت الذي لا توجد فيه عجوز كشجرة التين الغير ملقحة. معنى هذا المثل أن شجرة التين – التي تعتبر المنتوج الثاني بعد الزيتون عند القبائل – لا يثمر إلا إذا لقحت بالطريقة التالية : تؤخذ حبات من التين الذكر، تعلق على غصن شجرة التين فيتم تلقيح الأنثى، و العجوز تشبّه بشجرة التين التي يعتز بها القبائل كثيرا و يمثلون البيت الخالي من إمرأة مسنة كالتين العقيم. في هذا تنويه إلى حكمة و تجربة هذه المرأة و قدرتها في تسيير شؤون البيت.

من خلال هذه الأمثلة تتجلى مكانة المرأة في العائلة، الفضاء الوحيد الذي تتفلت فيه من قيود الرقابة، كأن الرجل له الفضل في التخلي عن تسلطه في إطار هذه الخلية الضيقة و ترك للمرأة مجالا واسعا – في نظره – تندمج فيه بإستحقاق نفسيا، إجتماعيا، إقتصاديا و عاطفيا. كثيرا ما يردد الرجال أن " البيت مملكة المرأة ". لكن نتساءل حقا : هل خيّرت المرأة في السيطرة على هذا الفضاء المحدود دون غيره من الفضاءات الخارجية أين تبلور و تبرهن عن قدراتها العقلية و المعرفية ؟

من المؤكد أن المرأة هي التي أنشأت و كونت العائلة فهي أدرى باحتياجات أعضائها، لذلك نجدها أقرب إليها من الرجل و هذا طبيعي، لكن ماهو تعسفي في إعتقادنا هو عمل المجتمع باستمرار على بقاء المرأة في موقع يبعدها عن الأنظار، تعيش في عالم محدود، سرّي تحتويه العائلة، و في ذلك إقصاء و إجحاف للدور الحقيقي الذي يمكن أن تؤديه المرأة في وضح النهار، بالتالي في الحياة على جميع مستوياتها. يبين "نور الدين سعدي" وضع المرأة و مكانها " هو البيت، لا يسمح لها بإعطاء رأيها حتى فيما يتعلق بحياتها الخاصة، إنه مبدأ مقدس للضمير الجمعي يدعمه "النيف" و " الحرمة"، أي قانون الشرف" (2)

1- العائلـــــة :

قبل الحديث عن دور الأم في العائلة، يجدر بنا أولا تحديد مفهوم العائلة إجتماعيا و قانونيا.

فالعائلة إجتماعيا هي : " مجموعة من الأفراد تربطهم رابطة الزواج أو الدم أو التبني، هناك علاقة تربط بين الزوج و الزوجة، بين الأب و الأم، بين الآباء و الأولاد. هذه العلاقة خلقت جماعة ضيقة، تحدد روابط القرابة التي تعتبر إحدى المؤسسات الإجتماعية الهامة ". (3)

(1) GENEVOIS (H), **La Femme Kabyle, Les Travaux et les Jours**, P 4
(2) SAADI Nourdine, **La Femme et la loi en Algérie**, Edition Bouchène, Alger, 1991, P, 58
(3) **Dictionnaire de Sociologie Larousse**, Editions Françaises, Canada, 1987, P, 131

فانتماء الفرد إلى العائلة و شعوره بالأمن و الإطمئنان عن طريق أواصر القرابة التي تربط الأباء بالأبناء و الزوج و الزوجة، ما يزيد و يضاعف من تماسك العائلة هو وجود الأبناء في حياة الآباء، حيث يصبح الأولاد هدف الآباء، و الأبناء بوجود اللآباء حولهم يشعرون بالراحة و الأمن و الإستقرار. فالعائلة هي "مكان يشع بالحياة، إذن بتكاثر النوع البشري، تمثل مركز لإكتشاف الروابط الإجتماعية و بالتالي، نضج الأفراد." (1)

العائلة تتركب من بنية جدّ معقدة، بداخلها تتبلور أهداف الأفراد، كل عضو فيها يساهم في بناء هذه الخلية، بشكل منظم حسب الجنس و السن و كل واحد يعرف دوره و يحترم دور الآخر. من هنا تنبثق الحقوق و الواجبات، الممنوع و المسموح به داخل هذه البنية التي تستخلص نظامها و قوانينها من الدين و العادات و التقاليد و الأعراف.
و يمكن أن نعرّف العائلة قانونيا على أنها : " وحدة من الأشخاص تربطهم قرابة دموية أوصلة عن طريق التحالف و لغاية تحقيق المصالح المشتركة ".(2) إن الفرد في أشد الحاجة إلى العائلة، إلا أن بقاءها و تماسكها متوقفان على تماسك أفرادها، لذلك يجب أن لا يكون سلوك أي واحد منهم منافيا لمصالح الجماعة العائلية التي ينتمي إليها و إلا تضطر لنبذه، فإن حدث و أن مس الفرد أحد ثوابت العائلة، إهتزت مكانته في وسطها.

لكي يحقق الفرد أهم حاجاته – خاصة حاجته إلى الأمن – عليه أن يبدي ولاءه و خضوعه الكامل للعائلة و لو كان ذلك على حساب رغباته و مصالحه الخاصة، فإذا أرادت مثلا الفتاة المنحدرة من عائلة الأشراف أن تتزوج برجل من صف و فئة لا تعادلها في الأصل و النسب، تقف العائلة ضد هذا الزواج و تعارضه بقوة، و ما على الفتاة إلا الإستسلام لتجبر العائلة حتى لا تكون سببا في إختلال توازنها الإجتماعي. في هذه الحالة تصبح هذه البنية متسلطة، خانقة، تقيد حرية أعضائها و تكبل طموحاتهم و أهدافهم في الحياة و ذلك بدافع حمايتهم.

يزيد تسلط العائلة على أفرادها خاصة في الأوساط الريفية، أين تترسخ العادات و التقاليد بقوة، رغم الإنقلاب الجذري الذي أحدثته ثورة التحرير في آداب و طبائع سكان الريف، إلا أن الشباب لم يتحرروا كليا من قيود العائلة التي لازالت تفرض عليهم رقابة صارمة. في هذا الشأن تقول "(G) TILLION" : " تمر الثورات بينماالجدات و العجائز تبقى خالدة، و الطبائع تسير ببطيء بالمقارنة مع السياسة " .(3) هكذا يسعى الآباء و الأجداد للحفاظ على سمعة العائلة التي تدعمها العادات، الآداب و الطبائع التى تخلدها ذاكرة الأجيال.

(1) KHODJA (S), **A Comme Algeriennes**, P, 29
(2) BENMELHA Ghouti, **Le droit Algérien de la famille**, offices des publications universitaires, Alger, 1993, P, 9
(3) TILLION (G), **Le harem et les cousins**, P, 127

2- دور الأم في العائلـــــــة :

أشرنا سلفا إلى مكانة الأم في العائلة و الآن نبين دورها في إعداد نساء أخريات يتعلمن منذ الصغر كيفية معاملة الزوج. فالأم تعيد تشكيل نموذج المرأة الخاضعة للزوج في بناتها، بحيث تنتقل الأنظمة التقليدية من جيل إلى جيل، ذلك في إعتقاد الأم إحترام للتقاليد و العادات. فهي تهيء إبنتها لكي تكون مطيعة لزوجها و عائلته، بينما في المقابل، تعمل على تهيئة إبنها لكي يكون رجل المستقبل، يفرض نفسه و كلمته في العائلة و في المجتمع، يشجع من أجل تنمية قوته و شجاعته، يعلم كيف يسيطر و يراقب أخته و تسمح له الأم في تصحيح سيرة أخته و تعديل سلوكها إن بدت غير محافظة. فالأم بهذا الشكل تهيء البنت " لتتحمل مستقبلا وضعية الإقصاء المفروضة عليها، بالتالي تشارك الأم و تكون عاملا فعالا في تدعيم سيطرة الرجل." (1)
تزداد مراقبة الأم لإبنتها كلما كبرت في السن، تتضاعف مخاوفها حينما تبدي الفتاة أنوثتها. فتكثف حمايتها لها، تبين لإبنتها أنها مصدر شرف كل العائلة لذلك عليها أن تحافظ عليه كي لا يتشوه، عليها أن تحطاط لتصرفاتها مع الرجال بحيث تخفي مظاهر أنوثتها قدر الإمكان، بالتالي، تخلق الأم عند إبنتها خوفا مستمرا تجاه الرجال، بما فيه الأب و الأخ. تنمي بذلك شعورا بالنقص لدى الفتاة يظهر في سلوكها مع الرجال بشكل واضح إذ يصبح عالمهم غريبا بالنسبة لها، يثير الخوف و الشك و عدم الثقة، فيتصاعد جهلها للذكر و كلما حاول الإقتراب منها أشعرها بالخوف لهذا السبب تنعزل عنه و تدرجه – رغما عنها – في فئة الممنوعات و المحرمات، هذا هو هدف الأم و دورها في حماية شرف العائلة الريفية.

يشبه القبائل الفتاة بالبيضة في هشاشتها و رهافتها، لذا يجب الحفاظ عليها، فهي كالبيضة إن تكسرت لا يمكن أبدا إصلاحها و إعادتها كما كانت. هذا التشبيه الرمزي يوحي لنا إلى مدى حرص المجتمعات التقليدية – بما فيها القبائل – إلى التشدد في مسألة الشرف المتوقف أساسا على عذرية الفتاة و توصف بالضعف و الهشاشة لذا سلامتها تعني سلامة الشرف، هذا من ناحية، من ناحية أخرى، فقدان الفتاة لعذريتها يعني بقاؤها بدون زواج و هي وضعية لا يقبلها المجتمع، هذا يقودها طبعا إلى حرمانها من الأمومة تماما مثل البيضة المتكسرة التي لا تلقح و لا تخصب. من ثم لا تعط الحياة، الصورة متطابقة تماما بين البيضة و العذرية، فالفتاة العذراء في يوم زفافها، تعطي لها الأم بيضة ترميها بداية من صدرها لتسقط بين رجليها، هذا الطقس تقوم به دقائق فقط قبل خروجها من بيت أهلها، هذا بدافع تسهيل فك غشاء البكارة ليلة الزفاف.

نستقي إذن من تشبيه الفتاة بالبيضة كيف تخرج العذرية من ممتلكاتها الشخصية، لتدخل بامتياز في خصوصيات الرجل و تضاف بذلك إلى ممتلكاته، يظل يطالب بها و يفرض وجودها، كأنها حق من حقوقه، بل هي مطلب كل العائلة، تقتضي إثباتها ليشهد عليها الزوج و بعنف ينتزعها من المرأة التي لا تملك أدنى حق في جسدها، رغم مرور الزمن، و تعاقب الأجيال تظل العذرية أسطورة المجتمعات التقليدية، تعمل على إبقائها و إحيائها بحيث تمثل في " آن واحد قيمة ثقافية، دينية و إديولوجية. إنها حدث إجتماعي. " (2)

---

(1) La Coste-du jardin camille, **des Méres contre les femmes, maternité et patriarcat au maghreb**, edition Bouchène, Alger, 1990, P, 68

(2) نفس المرجع السابق، ص، 72

بما أن عذرية الفتاة تبدو شبحا مخيفا للعائلة و للمجتمع بأسره، تحتاط الأمهات أو الخالات للحفاظ عليها بوسائل و أساليب سحرية تتوصل الأم غالبا إلى ربط الفتاة في سن مبكرة جدا، حوالي أربع سنوات من عمرها، حيث لا تع هدف العملية و لا تستطيع تقييمها أو الحكم عليها سواء بالسلب أو الإيجاب و يتم الربط بالطرق التقليدية (1) المعهودة في المجتمع الجزائري، أما في منطقة القبائل فتعرف بطريقة خاصة، هي أن تمر الفتاة سبع مرات على آلة النسيج، بحيث يكون النسيج في بدايته، و لا تفك الأم الرباط إلا يوم زفاف إبنتها بنفس الطريقة التي يتم بها الربط. الفرق الوحيد القائم بين عملية الربط و الفك : هو أن في الأولى، حدث بدون علم الفتاة، أي بدون إستشارتها في قبولها أو رفضها للعملية السحرية الصادرة في حق جسدها تعسفا، بينما في الثانية، يتم تخليصها من السحر بعلمها. أحيانا، تجهل الفتاة بما وقع لها من قمع لجسدها حتى يصل يوم الزفاف، توضع أمام الأمر الواقع و تكتشف تحيل الأم و تدرك بألم وزن الشرف الذي تحمل ثقله على كتفيها و لا تسحبه العائلة منها إلا بعد زواجها، الوضعية الوحيدة التي تحرر الفتاة من العار الذي يهدد الشرف، السمعة و الأصل. يمكن لنا أن نتصور عواقب و نتائج هذا السلوك على نفسية الفتاة، إذ تنشأ عندها عقدة النقص إزاء الرجل و عدم الثقة في نفسها و الشعور بالإقصاء يجعلها منعزلة، مهمشة نفسيا، إجتماعيا و عاطفيا، تعمل طوال حياتها على كبت رغباتها الجسدية و إخفاء أنوثتها. فالأم في هذه الحالة، كانت عاملا مؤثرا في تدعيم و ترسيخ صورة " الحشمة "، التي تبدو غير سوية في بناء شخصية الفتاة، بالتالي تصبح الأم مشاركة فعالة للزوج و الإبن في فرض السيطرة و المراقبة المستمرة للبنت. لا غرابة في ثبات مثل هذه الأنظمة الصارمة التي تتصارع حولها المجتمعات التقليدية و لا تزال إلى يومنا هذا تتسم بدرجة كبيرة من الحيوية، تتجلى هذه الصرامة في التشبث بالتقاليد في العائلات الريفية المتكونة من عدة أبناء، لأن كثرة الذكور يمنع الرجل الأجنبي من مجرد المحاولة في التقرب للإبنة أو للأخت. فالأم التي أنجبت ذكورا، تكون قد أمنت شرف العائلة و تشعر بالإطمئنان لأن أولادها سيتولون دور المراقبة المكثفة لتحركات الفتاة. ففي هذه الظروف، تظهر أم الذكور في وضعية محترمة في عائلتها و في مجتمعها. هذا يقودنا إلى إستخلاص " قيمة جوهرية و أساسية تكمن في كثرة الرجال تبقى اليوم كما كانت بالأمس القيمة الوحيدة و الأكيدة." (2)

فالحفاظ على شرف الفتاة و صون كرامة العائلة هو الدور الأساسي للأم، لكن لا يتوقف دورها في هذا المجال فقط، إنما يتعدى إلى إهتمامات كثيرة تتعلق بحياتها اليومية و حسن تدابيرها في تسيير شؤون عائلتها و أولادها و ممتلكاتها، كل ذلك تستقيه من تجربتها الخاصة في الحياة و من عادات و تقاليد الأجداد، فالأم في منطقة القبائل تتشبث بكل ما هو أصيل و تستمد معارفها من الذين سبقوها، تحاول بدورها أن تنقلها إلى أولادها، فتظهر لنا في صورة عجيبة، إذ لا تقدم على عمل إلا باتخاذ الطقوس وسيلة تراها ناجعة في جلب الخير و النعمة تقيها من الأذى و الضرر الذي قد يسببه عامل مباشر يكمن في أعدائها، و عامل آخر غير مباشر، هي القوى الشريرة و العين الحاسدة التي تعمل لها المرأة الريفية ألف حساب، تحاول أن تقي عائلتها و كل ما تملك عن طريق الطقوس السحرية.

(1) يتم الربط أو التصفاح بالقفل أو المقص و تذكر الأم عبارة : "أنا حيط و ولد الناس خيط"، و عند الفك : " أنا خيط و ولد الناس حيط "، هذه الطريقة موحدة في كل المجتمع الجزائري.

(2) LACOSTE Dujardin (C), **Un Village Algérien Structures et Evolution Récente**, Centre de recherche anthropologiques préhistoriques et ethnographiques, Alger, 1976, P, 152

فعملية تحويل الحليب مثلا إلىاللبن تتبع بطقوس و أغاني ترددها الأم فتقول :

«ثاخشاشثو أثروح أدحج	ممخضتي ذهبت لتحج
أر لمقام سيدي منصور	إلى مقام سيدي منصور
ثوغالد ثشور أسووذ	رجعت مملوءة بالزبدة
سلفضل أربي أذ باب إقنوان »	بفضل الله مالك السموات.

تخضع عملية إستخراج الزبدة من الحليب إلى طقوس سحرية خاصة، هذا يعود إلى إعتقاد القبائل أن الزبدة الموجودة في الحليب يمكن أن تخطف أيضا بطرق سحرية، فالأم تحاول أن تحمي الحليب بطقوس وقائية، أو تسترجع بها الزبدة التي إنتزعتها عدوة أو حاسدة لها.

في الحالة الأولى : إذا كان الحليب قد تعرض لضربة جني و خطف الحليب، فالأم تلجأ إلى طقس وقائي يدعى : " أحجاب" بمعنى، وضع حجاب سحري يمنع و يقي الحليب من مس الجن و يكون الطقس كالتالي :

تأخذ أداة من الحديد في يدها، تشير بها إلى الحليب ثم تقول :

" أسيذي ربي أباب إيقنوان	يا سيدي ربي إله السموات
حاذر أيفكي أذ ووذي	حافظ على الحليب و الزبدة
خاس أبينت أرفاس (1)	حتى و لو أخذ إلى فاس
حوذرغك أس وزال (2)	حافظت عليك بالحديد
حوذرغك أف ثلاوين أنسعار الإيمان"	وقيتك من النساء العديمات الإيمان.

أما في الحالة الثانية : إذا إنتزعت إمرأة شريرة الزبدة من الحليب بوسيلة سحرية يتم إسترجاعها بالطريقة التالية :

تقصد الأم ربوة في القرية، تأخذ معها مجرفة الحرث، تشكل دائرة بهذه الآداة، تقف في وسطها و تقول :

" سلام أعليكم ألغوابي إزذغنت لوحوش	السلام على الغابات التي تسكنها الوحوش
إشقى أنذا أذ لهوا ثحلونت	التي سقتها الندى و المطر العذب
أدرغ أذنو أكرنت ثسحارين	أسترجع زبدتي المخطوفة من الساحرات
خاس إمضل إثبوقالين."	و لو دفنت في قاع الجرة.

(1) مدينة فاس المغربية تذكر في العديد من الأغاني و الطقوس، هذا راجع إلى اعتقاد القبائل بأنها مكان العلم و الدين، و السحر، هذه الفكرة نشرها القزانين و العرافين المغاربة الذين يأتون ألى المنطقة يداوون بالأعشاب و يضربون خط الرمل و يكشفون عن المستقبل.

(2) يعتقد القبائل ان الحديد تفر منه الجن، لذلك يستعمل للوقاية ضد هذه الفئة.

أما إذا تيقنت ربة العائلة من المرأة التي خطفت لها الزبدة فتسترجعها كالتالي :

تذهب إلى بيت عدوتها، تنحني أمام بيتها واضعة مرفقها الأيمن على الأرض، تلتقط حفنة من التراب، ترميها باتجاه هذا المنزل و تقول : « هذا ليس لي »، ثم تسير خطوات و تبتعد عن بيت عدوتها و تضع مرفقها الأيمن على الأرض و تلتقط ترابا و تحتفظ به، لا ترميه كالمرة الأولى و تقول : "هذا لي". تعود إلى بيتها، تضع حفنة التراب في كيس صغير تعلقه على الإناء الذي تفرغ فيه الحليب قبل تمخيضه. هكذا تسترجع زبدتها .

إن الحليب في منطقة القبائل تعطى له قيمة سحرية كبيرة ،لذا فالأم بحكم تجربتها تحافظ عليه بطقوس عديدة ، إلى يومنا هذا ، لا تتم عملية التمخيض إلآ بترديد أغاني شعبية و طقوس وقائية ، نشاهد في قرى المنطقة كيف تعتني ربة البيت بأبقارها. تخاف من العين الحاسدة التي يمكن أن تصاب بها البقرة فيجف حليبها . و مسألة انقطاع الحليب عن الأبقار – بسبب انتزاعه من امرأة ترجعه إلى أبقارها – شائعة جدا في أريافنا و رائجة لدرجة أن الأم تتقن أساليب سحرية ،وقائية تسترجع بها حليبها أو تقي لبنها من مس الجنون أو حسد العباد. تستعمل في ذلك أعشابا برية عديدة من بينها : نبات الضرو ، النعناع و نباتات تتميز بها منطقة جرجرة " إذ تصادفنا لأول مرة نوع من النباتات خاصة بمنطقة القبائل "(1). تستفيد المرأة من هذه النباتات و توضفها في طقوسها الوقائية، عندما تقطفها بالمنجل تردد هذا القول :"ذايفكي إنو إدحجبغ أما أبينت إمولان القاعة، أما بينت إمولان البر ". بمعنى :وضعت حجابا لحليبي يقيه من خطف عمار الأرض (يقصد بهم الجنون) أو سكان البر (الأدميون) . تغسل أواني الحليب بهذه الأعشاب و بالماء سبع مرات ثم تقبل على تمخيض الحليب و تقول :

"أند أند أيغي	تمخص تمخص يالبن
أفكد أورش أبذ	إعطي كثيرا من الزبدة
سلفضل أربي ذا النبي	بفضل الله و النبي
أيغي إنو أشرراق	يا لبني الناصع البياض
أممناي أف البراق	كالفارس فوق البراق
إغي إنو أذندو أذفرو	لبني سيتمخض و يعطي الزبدة
سلفضلك أيخلاق."	بفضلك أيها الخالق.

هكذا تتوقى ربة البيت الحسد و السحر بطقوس تعتقد في فعاليتها، تمارس هذه الطقوس في معظم نشاطاتها التي تحمل قيمة عند القبائل. لذا نجدها توظف طقوسا للوقاية حينما يصل وقت جني الزيتون في فصل الشتاء. باعتبار أن شجرة الزيتون تمثل ثروة و غنى سكان المنطقة فإن الإحتياط و الوقاية ضرورية لوفرة المحصول و جودته، هنا يتجلى دور الأم الذي يبدأ من عملية الجني إلى التجفيف و التعصير، و تمر هذه المراحل بمجموعة من الطقوس.

عندما تبدأ عملية الجني، تتسلق المرأة شجرة الزيتون، تنزع حزامها من خصرها، تلفه حولها سبع مرات يمينا و شمالا و تقول في كل مرة : " يسيل الزيت من حبات الزيتون و لن ينقطع، كما لم ينتزع الحزام أبدا من خصري"، تقطع من الشجرة غصن زيتون، تستعمله في طقس آخر يلي الأول.

(1) HANOTEAU (A), La Kabylie et les Coutunes Kabyles, Tome I, P, 116

عندما تجلب الزيتون إلى البيت، تقوم بإشعال الجمر، ما يعرف عندنا "بالبخور" تضع على الجمر قليلا من الملح، الجاوي، أوراقا من غصن الزيتون، تدور حول الزيتون المفترش أرضا "بالبخور" سبع مرات، ثم ترشه بقطرات من الماء تكون قد أحضرته من مقام أو عين مباركة، هذا تبركا بالولي الصالح. أما الدخان الذي يتصاعد من أرجاء البيت يعتقد القبائل أنه يحمل البركة و يقي الناس و ممتلكاتهم، حيواناتهم، حقولهم من الشرو يبعد عن العائلة المرض و الضرر و السوء. فهدف الأم في هذا الطقس هو نشر الخير و البركة ووفرة محصول الزيتون الذي ستعم فائدته على كل أفراد العائلة، في الوقت نفسه، تسعى إلى إبعاد قوى الشر – من الجن و الإنس – التي تتربص بالمحاصيل الزراعية، و بالتحديد، بحياة القبائل، لذا تؤدي الأم دورا فعالا في طرد ما يسيء لعائلتها، متخذة الطقوس وسيلة فعالة تحافظ بها على ممتلكاتها.

لقد ذكرنا نماذج من الطقوس السحرية التي توظفها الأم للحفاظ على الحليب و زيت الزيتون، لمالهما من قيمة رمزية في حياة القبائل، هذا لا يعني أن الأم تقتصر أدوارها فيما ذكرناه من أمثلة، لكن إرتأينا أن نركز على هذه الوظائف لأهميتها و عمقها في الحياة الإجتماعية لسكان الريف بمنطقة القبائل، فمعظم العائلات تربي الأبقار، لذا يكثر الحسد بين المالكين، أحيانا، تصل حدة المنافسة في إمتلاك الأبقار الحلوب لدرجة إيذاء الغير، لهذا إستقت المرأة من عادات الأجداد طرقا وقا ئية. بما أن الزيتون مصدر عيش القبائل تنميه ربة البيت بوسائلها الخاصة، توفر للعائلة منتوجا وفيرا، تضمن الراحة و الإطمئنان لزوجها و أبنائها بفضل حسن تصرفها و تجربتها.

فالرجل يعمل خارج البيت، ينتج للعائلة، يبقى دور الأم أن تحافظ على هذا الإنتاج، كأن الرجل فوضها لحماية عائلته، لذلك توصف على أنها أساس البيت. كما نستخلص أن علاقة المرأة بزوجها هي علاقة تكامل هذا راجع أيضا إلى مختلف الأدوار الطبيعية التي تؤديها.

الأدوار الطبيعية للمرأة :

1- الحمل :

تعتبر فترة حمل المرأة حساسة و حرجة جدا، نظرا لخوف العلئلة و الزوج على حياة الأم و الجنين، فإن هذه الأخيرة تحظى بإهتمام كبير و رعاية فائقة. عندما تبدأ علامات الوحم تظهر عليها، ربما يتغير مزاجها و تبدي أحيانا كراهية غير عادية تجاه زوجها أو لا تتحمل أي فرد من أفراد عائلته، لكن الجميع يتفهم وضعيتها، بل يحيطونها بالحب و الحنان. إذا رغبت في أكل شيئ، فواكه مثلا في غير أوانها، يجلبها الزوج بأية طريقة، المهم أن تأكلها، لأن في منطقة القبائل هناك فكرة سائدة عند النساء مفادها أن المرأة الحامل إن إشتهت أكل شيئ، يجب أن تتناوله في الحين و إلا ستظهر علامة على جسم الطفل. مثلا إن إشتهت أكل اللحم. و لم يتسن لها أكله و حكت في تلك اللحظة رقبتها، عندما يلد الطفل يحمل في رقبته شريحة اللحم. إذا أرادت أن تأكل رأس الخروف "الزليف"، تبدو علامة بنية مشعرة في جسم المولود. لهذا السبب تحرص العائلة -كل الحرص- على توفير الراحة للحامل و تحضير لها كل ما تشتهي من مأكولات.

كما تعتبر فترة الحمل حرجة لأن الأم معرضة لحسد النساء، ذلك يجلب لها المرض و التعب في حملها، و الخوف الكبير من " التابعة "، هي الجنية التي يعتقد أنها القرينة، فتحسد المرأة على حملها و تسقطه، بحيث لا تصل المرأة إلى الوضع حتى تقي نفسها و جنينها بمختلف الطقوس. عادة ما تلجأ –في الأيام الأولى للحمل– إلى الحداد تطلب منه أن يصنع لها كل أدوات الحرث في أشكال صغيرة تعلقها على حزامها لا تفارقها حتى تضع، هذا لما للحديد من قوة سحرية لا تتحملها الجن و من ثم لا تقترب الجنية للمرأة الحامل. في هذا الموضوع ظاهرة طريفة ألفتت إنتباهنا تقوم بها المرأة التي يموت لها أولادها لتعرض " التابعة " و حسدها للأم. تربي إذن، سلحفاة صغيرة في بيتها بداية من الشهور الأولى للحمل، إعتقادا منها أن هذا الحيوان يقي من الحسد. تستمر في تربيتها إلى أن تنجب، مباشرة بعد الوضع، تذبح السلحفاة و تغمس ثياب المولود في دمها، بهذا الطقس تبعد الأم العين عن طفلها، فيقتل الشر و الحسد بقتل السلحفاة التي تأخذ معها كيد الأعداء.

هكذا يجب على المرأة الحامل أن تحتاط من الكائنات اللاطبيعية التي قد تسبب لها الضرر و لحياة جنينها. كلما تطور الحمل، تضاعفت الإحتياطات. ففي الشهر التاسع تمنع الحامل من زيارة بيت الجنازة، أو الذهاب إلى المقبرة، أو الخروج ليلا، كي لا تتعرض " لخطفة " الجني أي لصرعته. لكي تعرف المرأة الحامل إذا كان جنينها ذكرا أم أنثى تعتمد على الفأل، إذ تخرج في اليوم الأول من مولد الهلال، تتوجه إليه، تطلب منه بصوت مرتفع أن يخبرها بجنس الجنين، فإن سمعت صوت رجل يكون المولود ذكرا، أما إن سمعت صوت إمرأة تكون أنثى.

من المعهود عند النساء الحوامل هو تجنبهن للخروج و الإختلاط مع الأجانب في الأيام العشرة الأخيرة من الشهر القمري، أي بعد ما يبدأ الهلال في الزوال. لأن هذه الفترة الزمنية تصلح لعقد السحر و تكون نتائجه فعالة، باعتبار أن هذه الأيام سلبية و ذات شؤم و فأل سيء. فالحامل تتجنبها و تحاول الوقاية قدر الإمكان، ذلك بالطقوس الراسخة في المعتقد الشعبي. القبائل بصفة خاصة يعتقدون في وجود قوى خفية تتمثل في الجن، تتعرض لخطف الأطفال الرضع، خطف العرائس و التعرض للحوامل، لذلك يتخذون إحتياطاتهم اللازمة للصّد لقوة الشر التي تضمرها هذه الكائنات، كي تكون الحامل في مأمن عن ضررها، تبعد عن الأماكن التي يعتقد أنها متواجدة فيها كالقبور، الأماكن المهجورة و المواضع النجسة.
الحامل تهيء لها العائلة كل ظروف الراحة و لا تعرضها لأي عامل يمكن أن يسبب لها التعب، الإرهاق النفسي أو الجسدي، تتمتع بالراحة حتى تضع مولودها، تمتد بعد ذلك أربعين يوما، الفترة اللازمة لاسترجاع الأم قوتها و حيويتها.

2- الولادة :

تعتبر عملية الإنجاب الوظيفة الأساسية التي تختص بها المرأة، إنها ذات أهمية كبيرة بالنسبة للعائلة لأنها تضمن إستمراريتها، كما أنها ذات أهمية كبرى بالنسبة للمرأة نفسها، إنها لن تحس بالأمن و الأمان إلا بعد ولادة مولودها الأول خاصة إذا كان ذكرا. فالمرأة تعتبر عنصرا دخيلا على عائلة زوجها و هي مهددة بالطلاق باستمرار، لذلك تسارع لإنجاب أكبر عدد ممكن من الأولاد. فالولادة تغير مكانة المرأة في المجتمع و تجعلها ترتقي من مرتبة الكنة إلى مرتبة الأم، " تعتبر كثرة الأطفال في الوسط التقليدي هبة من السماء، إنها تضمن إستمراريةالجماعة العائلية و أمن الوالدين المنشغلين بكفالتهما في الكبر ..." (1)

فالمجتمع التقليدي يفرض على الأم أن تضع إلى الوجود كمية كبيرة من الأولاد، لأنهم سيكونون السند الأول لآبائهم في المستقبل، دون أن ينتبهوا للخطر الذي يهدد صحة الأم و دون أن يفكروا يوما في ضرورة تركها تتصرف بحرية في شخصيتها، في جسمها و تقريرها- بدون ضغط-، في رغبتها للإنجاب و عدد الأطفال الذين تريد إنجابهم، إن كان الظرف لا يساعدها و ترغب في تأجيل الحمل، يجب على العائلة و على المجتمع أن يعطي لها هذا الحق في تنظيم حياتها و حرية التصرف في شؤونها الخاصة. فكيف يسمح المجتمع للأم التي هي مصدر الوجود أن تضحي بنفسها في الوقت الذي تعطي فيه الحياة لغيرها ؟
إنه ظلم في حق المرأة و إهمال لكيانها، لدرجة أنها تخاطر بحياتها و تنجب رغم عدم قدرتها الصحية على ذلك، لكنها تعرض حياتها للموت، فقط لترضي شراهة المجتمع الذي ينتظر الكم و لا يبالي بالنوع.
ما لا يجب إغفاله هو إستمرارية بعض النساء الريفيات إلى يومنا هذا في وضع حملهن في البيوت، معتمدات على نصائح القابلة و تجربتها. لا ينتقلن إلى المستشفى - المتواجد عادة في المدينة المجاورة للقرية - إلا في حالات خاصة إن تعسر عليهن الوضع أو حدثت مضاعفات بعد الولادة.
أما إذا كان الوضع عاديا، فالقابلة تتولى المهمة، و بما أن القبائل يخافون كثيرا من السحر و الجن، فإن الأم تحرس حراسة دقيقة من اليوم الأول من الولادة إلى غاية الأربعين يوما، هي الفترة التي يعتقد فيها أن الأم و رضيعها معرضان لسحر الأعداء و مس الجن. بعد الوضع مباشرة، تقوم القابلة بدورها الأساسي الذي يكمن في حماية الأم و إبعاد أي عامل يمكن أن يكون سببا في عقد السحر لها، لذلك، تسرع إلى إخفاء المشيمة بعيدا في مكان لا يعلمه أحد، لأن عثور أحد أعداء أو حساد الأم عليها قد يسبب لها العقم مدى الحياة.

(1) ZERDOUMI Nafissa, **L'enfant d'hier, l'éducation de l'enfant en milieu traditionel Algérien**, librairie française Maspero, PARIS, 1982, P, 65

67

كما تتبرك العائلة بالمولود، إن خرج إلى الحياة في الأيام الأوائل للشهر القمري. المهم أن لا تقع الولادة في الفترة التي ينتقص فيها القمر و يبدأ في الزوال. فإن كان ولدا تسمع الزغاريد في البيت، بالتالي تعلن العائلة للقرية بالمولود الذكر. أما إذا كانت فتاة تكتفي القابلة بالتمني لها بالسعادة في حياتها. ولادة الطفل تعلن جهرا، بينما البنت تكون ولادتها في السر و الكتمان. فالزغاريد علامة الفرح تخص الذكور دون الإناث، الأجنبي عن العائلةلا يكاد يقع في الإلتباس إطلاقا، إنها إشارات و رموز إتفقت عليها الجماعة بقيت ثابتة، سارية إلى الآونة و لا تزال أريافنا حاضنة لمثل هذه العادات. القابلة هي التي تقطع الحبل السري، هي التي تبقى بجانب الأم حتى تسترجع صحتها، تحميها بمجموعة من الطقوس السحرية، فعندما تدخل إلى الحمام ترمي الملح لكي لا تأذيها الجن، إعتقادا منها أن هذه الكائنات لا تحتمل مادة الملح فلا تقترب من الأم. ما تخشاه الأمهات في منطقة القبائل هو مرض سحري يصيب الأطفال الرضع يدعى : " أنغلوي " بمعنى السقوط. أي إذا حدث و أن مرض طفل ما، تأخذه الأم إلى بيت المولود الجديد، تسقط مرض إبنها على إبن أو إبنة صاحبة البيت الذي زارته، تظهر أعراض هذا المرض مباشرة، يكثرالبكاء، ينام قليلا، يمتنع عن الرضاعة أو يفقد الشهية في الطعام إن كبر قليلا، يبدو هزيلا، شاحبا، ربما أدى به إلى الموت. و قد صادفتنا حالة كهذه – في خلال بحثنا الميداني–. هي فتاة في السابعة من عمرها، حسب أمها، أصيبت بهذا المرض السحري منذ أن كان في عمرها ثمانية أشهر، أخذتها إلى الأطباء أكدوا عدم وجود أي مرض باتولوجي، و أنها في كامل قواها العقلية، رغم ذلك، فحالتها ساءت و تدهورت صحتها، قد رأيناها مقعدة على كرسي المعوقين، لا تتكلم، لا تتحرك، بدت لنا و كأنها متخلفة عقليا. أما أمها فقد أخبرتنا بأن حالتها اليوم تحسنت قليلا، هذا بفضل ترددها على "الشيخ محند " الذي دلّهم على سبب مرض الفتاة و باشر العلاج بإزالة السحر الذي أصابها، رغم أن زياراتها لهذا الشيخ تفاقمت إلا أن حالة الفتاة لم تتحسن كثيرا.

لهذا فإن الأم تحترس لهذا المرض و لا تخرج برضيعها، أما إن كانت مجبرة على زيارة أقاربها خاصة إن كانت في البيت إمرأة حامل أو أم وضعت حديثا أو حتى لمجرد وجود طفل مختون، إن الزائرة لا تدخل من عتبة الباب حتى تقوم بطقس الحماية من هذا المرض السحري، بحيث تقف أمام الباب هي و صاحبة المنزل التي تكون إما حاملا أو أما، تمسكان أداة من فضة، قرطا أو قلادة، تضعان في فمهما قطعة من خبز الشعير المصنوع بزيت الزيتون، بعد ذلك تدخلان معا إلى المنزل. هذا الطقس يحمي كلا من المرأتين من المرض الذي قد يصيب طفل أحدهما.
دلالة الفضة في هذا الطقس هي الصفاء و اللمعان و البياض هذه الصفات ستضفى على طفليهما و يكون في صحة و قوة و صلابة كالفضة. أما الخبز يدل على تقاسمهما النعمة و الطعام فلا تجرأ الواحدة أن تسقط مرض إبنها على الآخر، أي تتبادل الأمان، الثقة و الإطمأنان. من الشائع أيضا في منطقة القبائل هو أن الطفل الصغير إذا كان نائما لا تسمح أمه لأحد برؤيته بما فيهم الأقارب، لأن رؤية الطفل و هو نائم يعرضه لعين الحسود، تكون أشد حدة من التي تصيبه و هو فاطن، لذلك تتوقى الأم الحذر.

من الإعتقادات الشائعة أيضا أن المرأة التي لا يعيش أولادها تختار إسما خاصا لمولودها، هو "أكلي" بمعنى أسود البشرة، ذلك حتى تتجنب الموت، يسمي القبائل أيضا إسم " إذير" بمعنى سيعيش. نحن نعرف ما للأسماء من تأثير سحري في معتقداتنا، هذه السمة نجدها واضحة في منطقة القبائل، فكما " نعرف الصبغة السحرية للإسم و الإهتمام الذي تضفي عليه بامتثاله مع الروح، و مع المبدأ الأساسي للحياة. عن طريقه، و إتباعا لقوانين السحر يعتقد أنه بإمكانه أن يؤثر على الإنسان. " (1)

و بصفة عامة، يمكن القول أن حياة الأم الريفية كلها مفعمة بالطقوس، متشبعة بالعادات و التقاليد، بحيث لا تخط خطوة إلا و بدأت في طقس يقيها من السحر و يحافظ على رضيعها من العين الحاسدة. تستمر في هذه الوقاية و الإنعزال عن الأجانب و عن الحياة الإجتماعية العادية، مدة أربعين يوما بعد الولادة . في هذا اليوم فقط، تكون بعيدة عن الخطر، بشرط أن لا تخرج من منزلها إلا بعد حمام تطهيري يتبع بطقس وقائي، تضع في الماء ملحا، مرآة و بيضة ثم تغسل. الملح يستعمل لطرد الأرواح الشريرة التي تتربص بها، المرآة كي يكون وجهها لامعا، أبيضا و جميلا، أما البيضة كي تكون ولودة، خصبة، بالتالي تتجب مرة أخرى و لا تصاب بأي مرض يعيقها عن الولادة.

بعدما تنتهي من الإستحمام، تلبس أجمل ما عندها من ثياب و حلي، تقصد مع طفلها أو طفلتها مقام ولي قريتها، ترافقها أم الزوج، أحيانا أمها إن كانت حاضرة في ذلك اليوم، إن كانت تسكن في نفس القرية يتم إستدعاؤها لهذه المناسبة. تشعل الأم الشموع في المقام، تضع " وعدة "، إذا أنجبت ولدا تتصدق بسجادة أو برداء لتابوت الولي. تظل علاقة الطفل بأمه وطيدة جدا، تسهر على حمايته، توفر له الراحة، الأمان، تضاعف الرضاعة فيتعلق الرضيع بأمه حيث ترضعه ساعة أو ساعتين فقط بعد الولادة و كلما بكى، تعطيه ثديها معللة بكاؤه بالجوع أو بالألم، بمجرد أن يشعر بحنان و دفء أمه يهدأ و يستسلم للنوم. عادة ما ترضع الأم و ليدها حولين كاملين أو أكثر، هذا يفسر تعلقه الشديد بأمه، إن نمادى في طلب ثدي أمه، تلجأ إلى وضع قليلا من الحناء على ثديها أو قليلا من القطران أو عشبة مرة المذاق، بهذه الوسيلة تضع حدا للرضاعة.

و تستمر الأم في رعاية و حماية صغيرها من المرض و الأذى، تحاول دوما أن تلقنه مبادىء التربية الحسنة و الأخلاق الحميدة، تعلمه الإحترام و تقدير الآخرين، كيف يتحدث مع الكبار، تغرس فيه الأنفة، العزة و الشجاعة، تربيه كي يكون سندها في المستقبل، تفهمه أن كل إعتمادها منصب عليه، هو الذي سيتولى مسؤولية العائلة، يحمي شرفها و كرامتها. فكلما كبر في السن، كبرت أحلام و آمال الأم وزاد تعلقها بإبنها. بينما إبنتها تربيها على الأخلاق، الحشمة، الحياء و الشرف، موضحة و مؤكدة لها ان إستقامة سلوكها و حسن سيرتها هما عماد أسرتها. تعلمها منذ الصغر شؤون البيت، تعدها لتكون مطيعة لزوجها، تحمّلها مسؤولية المنزل و هي صغيرة، كي تستطيع أن تواجه مسؤولية الزوج و عائلته في المستقبل.

(1) LAOUSTE Chantréaux Germaine, **Kabylie côté femmes, la vie féminine à AIT HICHEM**, 1937, 1939, Présentation de camille Lacoste dujardin, archives maghrébines, EDISUD, Aix en Provence, 1990, P, 150

3- التربية :

تعتبر الأم المسؤولة الأولى عن تربية الأبناء، غالبا ما ينشغل الأب عن أبنائه بمهامه خارج البيت - إن كان متواجدا في القرية - لأن الظروف الإقتصادية الصعبة لمنطقة القبائل دفعت الكثير من الآباء إلى الزحف نحو المدن الكبرى أو إلى الهجرة - كما هو في الغالب - نحو فرنسا طلبا للعمل. تتحمل الأم إذن، مكانة هامة في هذا المجتمع التقليدي، علاقتها بأبنائها علاقة فريدة من نوعها لا يمكن تعويضها أبدا، ذلك يبدو جليا في العديد من الأمثال الشعبية نذكر منها مثالين :

الأول :

" وين أومي كسغ باباس	من أخذت منه أبوه
أرسخذمغ أرا	لم أفعل له شيئا
وين أمي كسغ يماس	من أخذت منه أمه
أرسجيغارا"	لم أترك له شيئا.

المثل الثاني يقول :

" ثيذي أقما ثسذير نبلا ثقلا " أي : عرق أمي يحييني من غير أكل. هذين المثلين يوضحان العلاقة الوطيدة و الحميمة بين الطفل و الأم. فهي موضع ثقة للأولاد، تحقق لهم رغباتهم و تضمن لهم الأمن و الإستقرار، يكون الطفل في حالة إستسلام كلي للأم يتلقى منها الحنان، العطف و الرفق، في المقابل، يكون بمثابة وعاء تصب فيه كل إعتقاداتها، مخاوفها و آمالها. تظهر الأم في صورة الحامية، المغذية، المتساهلة و المتسامحة باستمرار، لكن يختلف تدخلها في تربية أبنائها باختلاف جنسهم، تعمل على تنمية صفات الرجولة من تشدد و تسلط عند الولد، " فالرجل الحقيقي هو الذي يشرف ذويه و يثبت جنسه " (1). في حين تنمي صفات المرأة المستسلمة الخاضعة عند البنت، الأم هي المسؤولة الأولى عن تصرفات إبنتها لأن الفتاة - في منطقة القبائل - تعتبر صورة و ثمرة للتربية التي تلقتها. لذلك عليها أن تتقيد بمجموعة من الإلتزامات مادام الشرف و سمعة العائلة مرهونة بسلوكها. " فالشرف يمثل " حجرة التعويضات " لصراعات البنية الإجتماعية، فإنه نقطة إلتقاء المقدس و المدنس، الفرد و المجتمع، أنساق الأفكار و أنساق الأفعال. " (2). هكذا يدعم و يثبت القانون الإجتماعي مبادءه و تصبح مع مرور الزمن ثابتة من ثوابته، في ذلك كله، يظهر دور الأم رياديا و فعالا في الحفاظ على تقاليد المجتمع من خلال إعتكافها ووفائها في تلقينها لأبنائها بشكل قوي، صحيح تحفظه الذاكرة من جيل إلى جيل.

(1) GENEVOIS Henri, **Eduction familiale en Kabylie**, F.D.B., N° 89, Fort National, 1966, P, 20
(2) KAYSER (B), **Les Sociétés rurales de la méditérranée** , P, 249

ملخص الفصل :

يتشبث الريف بالعادات و التقاليد التي توارثها عن الآباء و الأجداد، يعتبر الإنسلاخ عنها جزء من فقدان الأصالة و إستأصال الثقافة. بما أن المرأة الريفية تحتكر البيت و تسيطر على الفضاء الداخلي، بينما يستحوذ الرجل على الفضاء الخارجي، يكون أكثر تفتحا، بالتالي أكثر إنسلاخا عن تقاليده، بالمقارنة مع المرأة التي يطلب منها إجباريا أن تكون محافظة و حامية للعادات و التقاليد. لذا فشرف العائلة يقتصر على سلوكها الحسن و تبنى السمعة الطيبة على مدى إحترامها للقواعد السلوكية التي ترتكز على الحياء و الإستقامة الخلقية و الجسدية. فالإنزياح عن الحدود التي رسمها المجتمع، يعرّض المرأة إلى عواقب وخيمة لدرجة إقتراف الجريمة لإسترجاع شرف العائلة.

في المقابل يعطيها المجتمع قيمة و مكانة شريطة أن تؤدي وظائفها الإجتماعية و لا تخفق في أدوارها الطبيعية كأم مربية و زوجة مطيعة. أما إذا فشلت في أداء هذه الأدوار كما ينتظر منها المجتمع، فإن نظرته ستختلف حتما و وضعيتها كامرأة محترمة ستتقهقر لا محالة.

الجزء الثاني

مكانة المقدس السحري في المجتمع القبائلي

الفصل الثالث : الإعتقادات السائدة عند القبائل

- تمهيد

I مصادر القوى الخفية

1. الأولياء الصالحين
2. الحراس (إعساسن)
3. الأرواح
4. الجن
5. التابعة
6. التعريضة
7. العين

II طرق التواصل مع القوى الخفية

1. زيارة الأضرحة و المقامات
2. زيارة الزوايا و دورها في علاج المس

III زيارة الأماكن المقدسة

1. الأشجار
2. الأحجار
3. الكهوف
4. المنابع

- ملخص الفصل

الإعتقادات السائدة عند القبائل :

تمهيد :

تجدر الإشارة إلى أن سكان منطقة القبائل كانت عندهم إعتقادات، عادات، ممارسات سابقة للإسلام. كان الإعتقاد بوجود قوى خفية تسيّر الكون سائدا بين الناس منذ القدم. عندما جاء الإسلام لم يؤكد هذه الفكرة فحسب، إنما أفصح و أكد عن وجود عالم الجن و عالم الموتى. ساعدت هذه العوامل على ترسيخ بعض العادات و الممارسات القديمة، كتقديس بعض الأماكن و الأشخاص مع السعي إلى التقرب منهم، " بل هذه العادات و الممارسات القديمة لبست ثوبا إسلاميا، كان ذلك بفضل الأخويات الدينية التي ظهرت في العالم الإسلامي منذ القرن الحادي عشر" (1)، هذه الأخويات أسسها رجال الدين الورعين بحفظ القرآن و أصول الدين و الفقه الإسلامي، أسسوا مدارس قرآنية تخرّج فيها العديد من العلماء. من بين هذه الأخويات المعروفة نذكر : الرحمانية، القادرية، الشاذلية و التيجانية. ظهرت بعض الفرق المبتدعة، التي تتسم بطابع شعوذاتي أكثر مما هو ديني. حاولت دائما أن تستند إلى الأخويات الدينية لتعطي مصداقية أكثر لأعمالها، لكن حاربها العلماء المسلمون و إعتبروها بعيدة عن روح الدين الإسلامي و كان إبن باديس من الذين تصدوا لمثل هذه الفرق. هذا يعود إلى نشاطاتها المصبوغة بالبدعة و الشعوذة، لقد كانت معروفة في منطقة القبائل بتنقلاتها من قرية إلى أخرى، تقيم في كل مكان حفلات تلبس ثوبا دينيا و هي بعيدة عنه كل البعد، بحيث تعلن للناس عن قدراتها الخارقة و براهينها في السحر و الشعوذة، كأن يسير أعضائها على الجمر أو يأكلوا الشوك أو الزجاج تماما كفرقة العساوة التي عرفت بهذه الخوارق فذاع صيتها في الشرق و في الغرب.

I مصادر القوى الخفية :

للقبائل معتقدات كثيرة و هم متيقنون بوجود قوى خفية تسكن معهم في البيوت، الغابات و الجبال، تتنقل بطلاقة و بحرية في الطبيعة، لا يتسن للبشر أن يروها، لكنهم يلمسون وجودها و يشعرون بها من خلال آثارها، يهابونها، أحيانا يسقطون عنها الهيبة بالتقرب إليها بالأضاحي و النذور و يستلطفونها بالطقوس السحرية.

كانت لأجدادهم القدماء إعتقادات تظهر في عبادتهم لآلهة محلية تحل أرواحها في الكهوف و المغارات، يتبركون بينابيع المياه، يقدمون لها القرابين البشرية توسلا لقضاء حوائجهم. يطلعنا تاريخ البشرية بهذه المعتقدات في وجود قوى غير طبيعية، التي كانت معششة في العقلية المغربية، كان " قدماء البربر يعتقدون بوجود إله يسمونه " عمون "، لكن يرون أنه ليس له وجود مستقل، إنما هو روح تحل ببعض الكائنات مثل القمر، الشمس، الرعد و البرق ". (2) فظاهرة تقديس القبائل للكهوف و الأشجار و المغارات إعتقادا منهم أن هذه الأماكن تسكنها أرواح غير إنسانية تعلل أحيانا بالأسياد و أحيانا بالجن، تبقى تفسيرات العامة غامضة، مبهمة، ما تفهمه و تعيه جيدا هو وجود أرواح تسكن بعض المواضع، تضفي عليها صفة القداسة، يُتقرب إليها بالنذور و الطقوس التي تحمل مظهرا دينيا و منطلقا إجتماعيا، هذا يعبّر عن إرتباط الإنسان بالمقدس.

(1) رسالة ماجيستر، بن يونس مخلوف ساجية، **المواجهة الإجتماعية بين المرابطين و القبائل في منطقة القبائل**، تحليل نفسي إجتماعي للعلاقات بين هاتين الفئتين الإجتماعيتين، مظهر سليمان، الجزائر، جامعة بوزريعة، معهد علم النفس و التربية، ديسمبر 1998، ص، 72

(2) الميلي محمد، **تاريخ الجزائر في القديم و الحديث**، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1976، ص، 126

من العجيب حقيقة أن تكتفي العامة بالدعاء في ضريح ولي أو أن تتبرك بالعين المجاورة للضريح طالبة الشفاء و النفع و الخير، دون أن تحاول حل مشاكلها اليومية. لقد صاحب هذه الظاهرة ظهور سلوك العجز الفكري، التصديق بأي خطاب شريطة أن يكون المقدس غطاؤه حتى إن كان خرافيا، وهميا، بعيدا عن روح الين، العقل، المنطق و الحقيقة.

1- الأولياء الصالحين :

قبل تعريف الولي في رأي المعتقد الشعبي، علينا أن نشير أولا إلى أن كلمة " الولاية " أخذت بعدا صوفيا، هو الرجل الذي يواليه الله و ينصره. فالصوفية كان لها الدور الكبير في نشر هذه المفاهيم، لا سيما و أن الظروف السياسية و الإجتماعية التي سادت في المجتمع الإسلامي، خاصة أثناء الفترة العثمانية، حيث فقد الناس ثقتهم في أمرائهم واتجهوا إلى الآخرة، فوجدوا في المتصوفة ضالتهم و راحتهم، كان من الطبيعي أن ينقلب هذا التقدير الشديد إلى التبرك بهم.
أما الولي في رأي المعتقد الشعبي " هو رجل صالح يتميز عادة بالتقوى، يظهر من "الكرامات " ما يدل على جدارته بلقب الولاية هذا ". (1)

كثيرا ما نتباين صورة الأولياء في المعتقدات الشعبية و الممارسات اليومية، تباينا واضحا عن صورة العقيدة الدينية. فالأولياء في نظر الإسلام كما يقول تعالى في كتابه : " الذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ. " (2) هم الذين أخلصو لله في حياتهم، و انطلاقا من وجهة النظر هذه، فالإسلام لا يعرف ما يسمى "بمقامات الأولياء "، إنما لهم قبورا كسائر قبور المسلمين، يحرم تشييدها و الطواف بها و تقبيلها إلى غير ذلك من الأعمال التي يقوم بها الزائر. تجدر الإشارة إلى أن العامة لا ترى في هذه الممارسات خروجا عن حدود الدين، بل إمتداد له بشكل تلقائي، فالطقوس و تقديم الذبيحة و النذر للمقدس هي في الأصل واسطة للتقرب إلى الله " هذه الفكرة مؤداها أن الإنسان و ما يملك إنما هو ملك لله ". (3) الغريب أننا لا نجد نساء وليات، شيدت لهن مقامات و أضرحة و عهد الناس زيارتهن و التبرك بهن، ما نسمعه مثلا في منطقة القبائل هو وجود حارسات لأماكن معينة كالمغارات مثلا أو أعالي الجبال كقمة "" ثامقوت "" بجبال أكفذو، "يما قورايا " ببجاية، و حجرة ضخمة تدعى : " لالا تيمزقيدا " بمنطقة "ماكودة " تبعد عن مدينة " تيزي وزو " بحوالي عشرين كيلومتر (20 كلم) يعتقد أنهافي الأصل كانت ولية، زوجها و أبناؤها أولياء يحرسون قرى المنطقة لكنها عصت أوامر الله فمسخها إلى حجر جامد " ففي الحجر و بداخله، تتحول المرأة إلى سكون، متعرضة للعنة إلهية، أو لقوى غير طبيعية و عن طريق القدر الذي يضرب و يعاقب الرغبات السيئة و النوايا الغير سوية ... " (4) هذه الافكار و المعتقدات رائجة عند القبائل، ما هو غير معروف عندهم هو بناء أضرحة لوليات، رغم أن " لالا فاطمة أنسومر " عرفت بأنها إمراة ولوعة بالدين و الحكمة، كان الناس يزورونها من قرى بعيدة طلبا لنصيحة أو مشورة، يقال أنها تملك القدرة في التنبؤ بالمستقبل، كانت تعطي لزوارها أحجبة تقيهم من المرض و الأذى، المهم أن القبائل يشهدون لها بالحكمة و التقوى و تعرف على أنها ولية، إلا أن قبرها عادي كسائر قبور المسلمين، لكنها لا تذكر إلا بلقب " لالا " بمعنى سيدة، هذا اللقب لا ينطبق في لغة العامة إلا على النساء الشريفات و الوليات، " يطلق على أسماء لمواقع جغرافية ترمز إلى مكان قبورهن " (5).

(1) الجوهري محمد، **علم الفلكلور**، ج 1، ط 4، دار المعارف، القاهرة، 1981، ص، 43
(2) الآية 63، سورة يونس
(3) المرجع السابق، ص 77
(4) DEJEUX Jean, **femmes d'Algérie**, légendes, tradition, Histoire, Littérature, la boite de documents, PARIS, 1987, P 17
(5) Anonymes, **éxploration scientifique de l'Algérie**, pendant 1840, 1841, 1842, Sciences historiques et géographiques, Imprimerie Nationale, PARIS, sans date, P 85

2- الحراس (إعساسن) :

تعرفهم العامة بأنهم أرواح الأماكن، دون أن تعطي توضيحا مفصلا و فاصلا عن طبيعة هذه الأرواح. هناك من يعتقد أنها أرواح الأولياء الصالحين تحل بأماكن معينة كالكهوف، المغارات، الأشجار و الأماكن المهجورة بصفة عامة، هناك من يعتقد أنهم أرواح غير مرئية تحوم في الطبيعة، تختار هذه الأماكن مسكنا لها لأن الإنسان هجرها، مهمتها هي الحراسة و الحفاظ على هذه الأماكن. يعتقد القبائل أن لكل مكان حارس يحميه. حتى البيوت تملك حارس يدعى " أعساس أبخام " أي حارس المنزل و من بينهم حارسات إناث تسكن الآبار و عيون الماء و لا تعرف ملجأ آخر غير المنبع تسمى " ثوكلين " أي الوكيلات، تتشكل في هيئة المرأة و تظهر أحيانا للنساء الورعات في الدين، التقيات، كما تزعم العجائز اللواتي يحترفن طرق العلاج التقليدي بأنهن يشاهدن هذه الفئة و يتبادلن أطراف الحديث، تكشف لهن بعض الأفكار و الأمور الغيبية، كل هذه الإعتقادات الغامضة و المبهمة في آن واحد، راجعة إلى خوف الإنسان الدائم من الطبيعة التي أبهرته لدرجة أنه أضفى عليها صفة القداسة و الرهبة. نعتقد نحن أن هذه الأرواح المعروفة بالحراس ليسوا سوى جن عمروا الأماكن المهجورة منذ القدم، أظهروا لأجدادنا قدراتهم. نحن نعلم أن لهم قوة خارقة تفوق قوة الإنسان، نتيجة إنبهارهم أسندوا تلك العلامات الغير طبيعية – بالنسبة لهم – إلى أرواح مقدسة تحمي و تحرس الأماكن دون أن يفسروا أو يوضحوا طبيعة و صنف هذه الكائنات، ما بقي عالقا في الأذهان هو التبرك بهذه الأماكن و إظهار الولاء و الإحترام لها، فإيذاؤها و مسها بالسوء لا يجلب إلا الشر و الهلاك للفاعل.

3 الأرواح :

تتمثل في أرواح الموتى، يعتقد أنها تتجول في كل أماكن القرية، يمكن أن يراها الناس في أحلامهم و يتم التواصل معها عن طريق السحرة و العرافين، يسمى الذي يؤدي هذه المهمة بـ " أمسنسي " بمعنى المبيت، وظيفته تتمثل في رحلة نحو العالم الآخر، يبلغ عن إنشغالات الموتى و أمانيهم أو مواقفهم تجاه ما يفعله أهاليهم من الأحياء، هذا يتم بعد مرور الأربعينية. يحضر أقارب الميت كل لوازم الطبخ من دقيق، لحم، خضر، قهوة و سكر إلى بيت " إمسنسي " يقيم "وعدة " صغيرة في تلك الليلة و يعد الطعام للزائرين من المواد المستحضرة من عائلة الميت، في الليل يحلم و يرى الميت في المنام، يخبره بحاله و برغباته.
قد لعب " إمسنسي " دورا هاما في الماضي في حل مشكل تبادل العنف – الذي إشتهر به القبائل – في غلق حلقة الإنتقام و لو مؤقتا، كان يستحضر روح القتيل، ثم يحدد ما يجب أن تقوم به كل من عائلة القاتل و المقتول، فمهمة " إمسنسي " الأساسية كانت قديما تتمثل في تحقيق السلم عن طريق الحد من العنف الساند في المنطقة، كما يهتم بشؤون الجماعات و في تحديد معالم حياتهم و الإطلاع على مستقبلهم وقدرهم . قد تأتي مثلا : أم تريد معرفة إن كانت إبنتها ستتزوج أو تلد ، فيخبرها بالغيب عن طريق المنام .يبدو إذن ، أن دوره سياسي وإجتماعي بما أنه يحافظ على الأمن و السلم في القرية ويساعد الأفراد على توجيه حياتهم الوجهة السليمة والصائبة.

4- الجـــــن :

إن المعتقدات الشعبية حول الجن – منذ القدم – إختلفت في تراث الأمم باختلاف الحضارات، كانت معتقدات البابليون و الآشوريون غنية بالتراث الشعبي لذا عرفت بابل بأرض السحر و إنتقل التراث السحري البابلي إلى العرب المسلمين. يحاول المؤلفون تعريف الجن حسب الأخبار التي وصلت إليهم منذ الجاهلية، أكثرهم يجمعون على أن الجن كلمة عربية تتضمن معنى التخفي و التستر، " قال الراغب الأصفهاني : أصل الجن ستر الشيء عن الحاسة ... و الجن يقال على الروحانيين المستترة عن الحواس بإزاء الإنس، فعلى هذا تدخل فيه الملائكة و الشياطين. فكل ملائكة جن، و لكن ليس كل جن ملائكة. " (1) فجميع الجن من ذرية إبليس و لكن ليسوا من الملائكة، لأن الملائكة لا يتناسلون، ليس فيهم إناث "و قد ذكر إبن عربي أن تناسل الجن بإلقاء الهواء في رحم الأنثى كما أن التناسل في البشر بإلقاء الماء في الرحم. " (2)

فالجن نوع مقابل للإنسان، لا يرى و لا تعرف حقيقته و لم تذكر صورتهم الأصلية في الكتب السماوية، رغم أن القرآن أكد على وجودهم و المسؤولية في العقاب و الحساب، ذكر مصيرهم، فرق بين طائفة المؤمنين و طائفة الكفار و كلفهم الله مثلما كلف الإنسان فيقول تعالى : " سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنْ " (3)، المقصود بالثقلان طائفة الإنس و الجن معا، اللتان ستبعثان و تحاسبان يوم الحشر.

الجن عالم آخر غير عالم الإنسان و عالم الملائكة، ما يربطهم بالإنسان هي صفة العقل و الإدراك، من حيث القدرة على إختيار طريق الخير و الشر، هذا ما توضحه الآية الكريمة، لكنهم يختلفون عن الإنس في أمور أهمها أن الإنسان ظاهر، بينما الجني مستتر، و الأصل لأن هذه الطائفة خلقت من النار، إستنادا للآية الكريمة : " وَ خَلَقَ الجَانَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارْ. " (4) يتميزون بقدرات خارقة، كسرعة التنقل و الحركة، لذا يسترقون السمع من السماء و يخبرون العرافين الذين يستعينون بهم في معرفة الغيب، و منهم من يدخل جسم الإنسان بالصرع و يسمون بالأسياد، هؤلاء يتعرضون للنساء و الرجال، تصيبهم علل و أمراض لا يمكن علاجها إلا بإقامة "زردة " أين يهرول المريض على إيقاعات الطبول، فيخرج الجن إثرى هذا الصخب من جسم المريض. بينما القرآن لم يذكر شيأ من هذا القبيل " كدخولهم جسم الإنسان و إستخدامه إياهم في جلب الخير و دفع الشر و إستحضارهم كلما أراد إستطلاع الغيب عن طريقهم أو التزوج بهم و معاشرتهم و غير ذلك مما شاع على ألسنة الناس" (5).

(1) توفيق نهاد نعمة، **الجن في الأدب العربي**، بيروت، 1961، ص 15

(2) الألوسي البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثا ني**، ج 14.13، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د، ت) ، ص، 35

(3) الآية 31، صورة الرحمان

(4) الآية 15، سورة الرحمن

(5) شلتوت محمد، **الفتاوى، دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية و العامة**، ط 7، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1974 ، ص، 22، 24

الجن تسكن هذه الأرض التي نعيش فوقها، يكثر تواجدهم في الخراب و الأماكن المهجورة و مواضع النجاسات كالحمامات، المزابل و المقابر، لذلك نلاحظ السحرة يأوون إلى هذه المواقع. للجن قدرة على التشكل بأشكال الإنسان و الحيوان، فقد يبدو للإنسان في صورة شخص يعرفه أو في صورة حيوان خاصة الكلاب السوداء، القطط و الحيات، فهي أرواح غير محسوسة تختلف صورها باختلاف تصورات الناس و تخيلاتهم. تخبرنا كتب الأدب العربي أن " الجن على ثلاثة أصناف : صنف على صورة الحيات، صنف على صور الكلاب (الكلب الأسود) و صنف على صور ريح طيارة ذات أجنحة، وهم لا يأكلون و لا يشربون " (1). الجن أنواع و طبقات متعددة، يتميزون تبعا لهيئاتهم المتنوعة، كل نوع يختص بأعمال مختلفة و له خصائص أساسية تميزه عن غيره و يتخذون أسماءهم وفقا لها.

5- التابعـــــة :

التابعة كما يعرفها " دالي DALLET " في القاموس القبائلي : " هي من أنواع الجن الشريرة التي تلاحق الأطفال الصغار حتى الموت " (2)، المعتقد الشعبي يدعّم هذه الفكرة و يقرّها بإعتبار أن هذه الجنية تلاحق المرأة الحامل فتسقط حملها، أو تتعرض للأطفال الصغار -بما فيهم الرضع- تسبب لهم المرض و الأذى و تدفع بهم إلى الموت. الأم التي يسقط جنينها أو يموت طفلها بعد الولادة ترجع ذلك إلى ملاحقة التابعة لها، فهذه الجنية دورها يكمن في متابعة المرأة و إيذائها، السبب في ذلك يعود لحقد التابعة على الأم، لأن هذه الجنية لا تلد، تعتقد العامة أن التابعة هي القرينة و نحن نعلم أن كل إنسان – منذ مولده – يملك قرين أو قرينة و تختلف ألوان القرناء، فمنها الأبيض و منها الأسود تبعا للون بشرة صاحبها الإنسان، كما تتنوع أفعالها بين الخير و الشر، تبعا لأفعال الإنسان، و يتزوج قرين الرجل بقرينة زوجته الإنسية مع فارق واحد، هو أن القرينة لا تستطيع الإنجاب، هنا تحقد على المرأة، فتلحق بها الأذى أو بوليدها، تسبب له المرض الذي سيؤدي به حتما إلى الموت.

نلمس من هذا الإعتقاد القوي بوجود جنية تتبع المرأة و تسعى للثأر منها، بدافع الحسد، لأن المرأة في المجتمع الريفي التقليدي لا مكانة لها إلا و هي أما و إذا عجزت عن الإنجاب بسبب من الأسباب التي تتعلق بها أو بزوجها تحاول تعليل عجزها بوجود قوة غير طبيعية تتصدى لها و تتمنعها من تحقيق رغبتها التي هي في الحقيقة رغبة المجتمع، بهذه الطريقة فقط يتفهمها و يتقبل عجزها كما تقبّل ضعفه و عجزه أمام هذا العالم الغريب و المبهم، بالتالي تجد المرأة وسيلة وقائية -و لو مؤقتة- تحميها من الإقصاء.

---

(1) نعمة، **الجن في الأدب العربي**، ص، 15

(2) DALLET (J. M), **dictionnaire Kabyle**, Français, Société d'études linguistiques et anthropologiques de France, Paris, 1982, P 821.

6 - التعريضـــــة :

يتقارب مصطلح التعريضة مع مصطلح التابعة، الفرق بينهما هو أن التابعة جنية، بينما التعريضة فعل إنساني، الأولى تتعرض للحامل و الأم بدافع الحسد و الغيرة. الثانية، تتعرض للفتاة قصد منعها من الزواج و يكون الدافع أيضا الحسد و الغيرة أو العداوة. التعريضة من فعل عرض بمعنى منع، وضع حاجزا، عرقل مشروعا. و يستعمل هذا المصطلح للدلالة على الفتاة التي وصلت سن الزواج و لم يتقدم لخطبتها أحد، أو بمجرد أن يطلبها شخص ما، يحدث عارض يمنع تحقيق هذا الزواج، هنا تعلل النساء ذلك بأن الفتاة وقعت عليها التعريضة بفعل إرادي أو غير إرادي. عندما تحسد الفتاة، تقوم الحاسدة بعقد سحر على الفتاة لتمنعها من الزواج، إن دفن في قبر تظل بدون زواج طول حياتها فهذه التعريضة إرادية. النوع الثاني يكون غير إرادي. فعندما تقوم أي فتاة بطقس سحري يهدف إلى إزالة التعريضة عليها، ترمي الماء الذي غسلت به إلى مفترق الطرق و في الحين قد تمر فتاة أخرى في سن الزواج على هذا الماء السحري، هنا تلقائيا، تنتقل التعريضة إلى الفتاة التي وطأت الماء.

المجتمع الريفي يخضع لقوانين طبيعية، بالنسبة له الفتاة مصيرها هو الزواج. عدم تحقيق هذه المرتبة يعتبر وضعها غير طبيعي و يفسر مباشرة بوجود إرادة قوية مانعة و معارضة يحفزها الحقد و الكراهية،لا سبيل لإزاحة العارض إلا بتوظيف الطقوس السحرية أي الثأر و الدفاع عن هذا الحق بنفس الوسائل. ما نريد أن ننوه إليه، هو أن دافع الغيرة و الحسد و مبدأ الثأر عنصران يتكرران في التابعة و التعريضة، كأنهما قوتان خارقتان تفوقان إرادة الإنسان و يتخذهما غطاء لفشله و عجزه في أداء مهامه الطبيعية. في المقابل، يبحث عن ذرائع يستقيها من إديولوجية و ثقافة مجتمعه. التعريضة، ليست سوى وسيلة تقنع الفتاة بها مجتمعها، هي بمثابة ملجأ تعوض في أطاره النقص الذي تشعر به إزاء عدم تحقيقها لوظيفة الزواج.

7- العيـــــن :

إن الإعتقاد بالعين الحاسدة ظاهرة إجتماعية قديمة، واسعة الإنتشار في المجتمعات الريفية التقليدية. تعود إلى الغيرة من عدم إمتلاك الشيء أو عدم الوصول إلى هدف مرجو، بينما وصل الغير إليه، هو ما يعبر عنه علماء النفس بـ " مركب النقص "، يلجأ الإنسان بطريقة لا شعورية لتمني الشر لغيره. أحيانا يصيب الإنسان أقرب الناس إليه بالعين و هذه تسمى " عين المحبة "، فلشدة حبه و إعجابه للشخص يلحقه بالعين. فالعين لا تكون دائمابدافع الحسد و إنما قد تحدث لمجرد إعجاب أو محبة. عادة ما يرجع الإنسان فشله في الدراسة أو في العمل أو شعوره بإحباط و يأس أو تغيير طارئ في حياته و وجّهه إلى نتائج سلبية، يفسره دائما بالعين، كما يجد الإنسان نفسه أمام ظواهر لا يمكن توضيحها علميا فيكون عاجزا عن تحليلها و دراستها، لكنه يبحث عن تفسير آخر قد يكون غير منطقي، ذلك لا يهم مادام يحقق له الراحة و التوازن النفسي. أمام عجز العلم عن إعطاء تفسير للعين، لجأ الناس إلى تفسير ورثوه عن الآباء و الأجداد و إختلقوا أساليب للإستشفاء من ظاهرة العين.

تعتقد النساء أن الشخص المعيون في صغره، تظل تتبعه إلى كبره، لذا فالأمهات يحتطن كثيرا لهذه الظاهرة و نادرا ما تعرّض الأم إبنها الرضيع للأجانب و لا تأخذه إلى مكان يوجد به أناس كثيرون كالعرس مثلا. خاصة إذا كان الطفل وسيما تخاف أمه من إصابته بالعين، فلا يراه الأجانب حتى يكبر قليلا، رغم ذلك، فإن العين قد تلاحقه. لا تعرف سنا معينة، بل تصيب الصغير و الكبير، فقط الأطفال أكثر عرضة للعين، بحيث تبدو عليهم تغيرات فيزيولوجية و إضطراب في الأكل، النوم و البكاء بدون إنقطاع. في هذه الحالة، تعرف الأم مباشرة أنها العين و تتقن وسيلة ناجعة لإزالتها، هي مادة الملح، تلفه على رأس الطفل سبع مرات يمينا و سبع مرات شمالا ثم ترميه إلى النار أو مكان خرب أو إلى موضع قذر لأن في هذه المواقع تتواجد قوى الشر التي ستأخذ العين معها باعتبار أن الكائنات الغيبية لا تحتمل الملح الذي يملك قوة لإبعاد الشر. هنا يمكن الحديث عن تحويل العين التي أصابت الطفل إلى الملح، عندما يرمى إلى النار يتم حرق العين و الشر الذي أصاب الطفل، بطريقة غير مباشرة يتم جلب عنصر رمزي هو الملح، يحوّل إليه المرض، هي العين ثم يعالج الطفل و يتحرر منها عن طريق حرق الملح الذي أصبح يحمل قوة الشر. بما أن العين مصدرها خارجي، بمعنى أن الطفل لا يشكو من مرض عضوي داخلي فإن العلاج يتم بوسائل خارجية، هي استحضار عنصر الملح و تحويل العين عليه، هكذا تطرد العين الشريرة التى أصابت الطفل.

يمكن أن نستنتج أن الملح عنصر إيجابي، يظهر ذلك في الوظيفة التي يؤديها في الطقس، فهو يبعد الشر و يجلب الخير. من خلال تجربتنا المتواضعة في الميدان لم نشاهد توظيف الملح لأهداف سلبية، بل دائما يستعمل لطرد الشر. لاحظنا أن هذه المادة توظّف لغرض الزواج أيضا، إن تعطلت الفتاة عن الزواج، تضع الساحرة الملح في قطعة قماش و تلفه على رأس الفتاة، تقرأ عليه ثم ترميه على الأرض .فاذا كانت الفتاة قد تعرّضت لعائق ما كا"لتعريضة " مثلا يتم تحويلها إلى الملح و يرمى على الأرض التي تزيل العارض نهائيا، هذا راجع لفكرة مؤداها أن الملح لا ينبت .ثم يرش بالماء الذي هو مطهّر لكل الأمراض كالنار تماما التى تحطم الشر و تحوله الى الرماد .فالماء يأخذه بعيدا حيث لا يعود.فوظيفة هذين العنصرين الماء و النار وظيفة تطهيرية وإستأصالية للشر الذي تم تحويله إلى الملح، هناك من النساء من ترمي الملح بعد القراءة عليه في إناء من الماء حتى يذوب فيه، بالتالي يذهب الشر، هناك طرق عديدة تتقنها الأم لإزالة العين، لكن يبقى الملح أكثر إنتشارا و يبدو أكثر فعالية.

هكذا يتبين لنا أن مصطلح العين، التعريضة، التابعة و يضاف إليها عدد كبير من المصطلحات التي تنبع من إديولو جية المجتمع القبائلي و المعتقدات التي يكونها – عن قناعة – بوجود قوة غيبية تؤثر على أفعاله، تسبب له الأذى و السوء فعليه أن يتصدى لها، أحيانا يستلطفها و يتقرب إليها بالنذور و يتواصل معها بشتى الطرق.

II - طرق التواصل مع القوى الخفية :

لقد عرّفتنا الأديان أن الإنسان كان دوما يتوسل إلى القوى العليا، كالآلهة، القديسين و الفتش " Fétishe " عن طريق الصلاة، يسترضيها بتقديم النذور و الأضاحي و الزيارة و يستعين بها للحصول على البركة، يحقق أيضا أغراضه السحرية التي يمارسها، فما العادات التي نشاهدها في منطقة القبائل سوى تعبير عن معتقدات شعبية معينة. مما لا شك فيه أن العادة تؤدي وظيفة و حاجة ملحة في كل طور من أطوار هذا المجتمع، كم من العادات الوثنية التي يؤمن بها أجدادنا، لاتزال حية إلى يومنا هذا، فإعتقاد القبائل بوجود إله المطر يدعى : " أ نزار "* عادة توارثها القبائل جيلا بعد جيل، كلما قلّ المطر، طلبوه من هذا الإله و تقربوا إليه بالطقوس و الأضاحي. " فالعادة الشعبية ... مهما كانت بدائيتها و بساطتها تحمل بصمات شعب معين، و تعبر عن شخصيته، فالعادة دائما بنت شعب معين و منطقة معينة، و تراث تاريخي معين " (1).

قد جرت العادة في قرى القبائل أن تكون و ضعيات و أدوار الرجال و النساء تخضع لنظام إجتماعي- ثقافي منسق بشكل يكون فيه الفضاء العام : كالسوق و المقهى مثلا خاص بالرجال، أما البيت و المنبع فضاءات ضيقة، محدودة خاصة بالنساء، كل فضاء يكون بعيدا، منفصلا تماما عن الآخر وفق قانون " الحرمة " و " النيف" الذي يحافظ على ديمومة هذا الترتيب بشكل يمنع إندماج الجنسين، بالتالي إبعاد الفوضى التي تؤدي حتما إلى إنهيار القيم السابقة الذكر و إحلال صفات أخرى دنيئة يقيّمها المجتمع " بالعيب " و " العار". مهما يكن من فصل بين الجنيسين في الحياة الإجتماعية إلاّ أن هناك فضاء خاص لم نشاهد فيه هذا التمييز، إنه فضاء المقدس.

في هذا الفضاء نجد النساء و الرجال، الشبان و الصغار، خاصة في المواسم و الأعياد الدينية كعاشوراء و المولد النبوي، تقام " زردات " في مقام الولي، كأنه موسم الحج يقصده المريدون من كل مكان، تبركا بضريح الولي الذي يشعّ بالبركة و الخير و النعمة، كما هو مصدر طاقة و شفاء و رخاء، هذا المكان المقدس يمكن أن يهب الحياة أو على الأقل، هذا ما ينتظره القاصدون. فالفتاة التي لم تتزوج، تأتي مع أمها إلى ضريح الولي تربط الحناء في المقام و تغتسل بالماء المباركة كي تجلب الحظ، و الزوجة التي لم تنجب بعد أشهر من الزواج، يعتريها الخوف من عدم قدرتها على الإنجاب، هذا سيجعلها في وضعية تشعرها بالنقص الدائم، ربما تقصى لأنها لم تؤدي دورها الطبيعي، فلا مكان لها في عائلة الزوج، يبقى لها أمل واحد، هو لطف الولي بها، إذ تطلبه أن يرزقها ولدا، تعده بنذر، فإن تم ذلك حملت إليه كبشا تقدمه نذرا. المرأة التي تعاني مشاكل مع زوجها، بحيث تصاب بإحباط و تفقد الثقة في نفسها، ربما تصل إلى اليأس و تعيش في شك مستمر لدرجة تفقدها توازنها النفسي، تلجأ إلى مقام الولي، تشعل شمعتين و تضع " الوعدة "، مبلغا من المال، قد تقضي ليلة الخميس إلى الجمعة في المقام، تكرر ذلك ثلاث مرات، تشعر براحة نفسية و هدوء و إسترخاء في ذلك المكان المقدس، بقدرة الولي تشفى من يأسها و تسترجع حيويتها.

* القبائل يشخصون الإله أنزار، ما دامت له عروس تسمى " تسليث أنزار "، تتجلى في صورة قوس قزح.
(1) الجوهري، علم الفولكلور، ج 1، ص، 102 .

لاحظنا في إستطلاعنا الميداني أن الزيارات إلى المقامات لا تقتصر فقط على هذه الفئة المذكورة آنفا، إنما وجدنا فئة أخرى أثارت إنتباهنا، إنهم الرجال و النساء المغتربون خاصة المهاجرون إلى فرنسا، أكد لنا أحدهم أنه متعود على زيارة مقامات المنطقة، لا يكتف بولي قرينه فحسب، إنما يزور الأولياء المشهورين بالمنطقة مثل : مقام سيدي " عبد الرحمان اليلولي "، مقام " سيدي علي وذريس " بمنطقة عزازقة، مقام " سيدي منصور " بقرية تيميزار و غيرهم من الأولياء المشهورين بمنطقة " تيزي وزو ". هذا الرجل المهاجر من بلده إلى بلد أجنبي يشعر كأنه إنسلخ ثقافيا و فقد كل صلة بأرضه و أجداده، و تراثه و دينه، فالغربة يراها بشكل سلبي، تمحو كل ما يربطه بأصالته. خوفا إذن من فقدان هويته و جذوره، يعود مرة في كل سنة إلى هذا المكان المقدس الذي يمثل -بالنسبة له – مصدر ثقافته و دينه و تراثه، هكذا فقط، يبقى مرتبطا بأرضه التي يحميها الأجداد، بالتالي، لا يشعر بالخيانة إزاء تراثه لأنه ظل وفيا لهويته، كما يقول " مولود معمري " : " إن المهاجر، بمجرد أن يغادر الوطن أين توجد كل روابطه الإجتماعية، يعتريه شعور بعدم الأمن و الذل، و نوع من الخوف يكتسي القلوب. " (1)

هكذا إذن، كلما شعر الإنسان بضيق أو إحباط أو نقص، هرع إلى المقدس يلتمس منه شفاء أو بركة أو خيرا، بمجرد أن يغادر المكان تغمره راحة نفسية و سكينة روحية كأن الأحياء ينتظرون دائما من الأموات و من الأولياء الحماية و الخصوبة، إنهم يرتبطون بعالم الأموات بالنذور و الأضاحي التي يذبحونها و يقدمونها قربانا لهم، ثم يتقاسمونها في مكان مشترك هو الفضاء المقدس. فعن طريق الأضحية يتواصلون مع القوى الخفية، يشكلون معها أقصى درجات الإلتحام و ينتقل التقارب من فضاء إلى آخر و من مستوى إلى آخر شريطة أن يكون المقدس طابعه، فيندمج الأحياء مع القوى الخفية في المقامات و الأضرحة، في الزوايا، و في الأماكن المقدسة من أشجار و كهوف تسكنها هذه الأرواح، فتتدمج الحياة بالموت في معتقدات الأحياء و تتجلى أهمية الواحدة للأخرى كأنها ضرورة حتمية.

1- زيارة الأضرحة و المقامات :

عرفت ظاهرة زيارة الأضرحة و المقامات تطورا واسعا في السنوات الأخيرة، بعدما شهدت ركودا ملحوظا في بداية التسعينات خلال فترة حكم أصحاب التدين السياسي الذين حاربوا مثل هذه الظواهر الشعبية و رأوا في ذلك بدعة و شعوذة. خوفا من عنف هذه الجماعة إرتأى الناس إلى التقليل من الزيارات إلى المقامات بحيث لا تقصد النساء هذا الفضاء المقدس إلا خلسة و بحذر شديد، لم تعد تقام زردات و لا وعدات. بالتالي شهدت منطقة القبائل جمودا محسوسا في تراثها الشعبي و التي كانت – منذ القديم – مركز إشعاع للكثير من العلماء و الصالحين الذين ساهموا في إقرار السلم و الأمان في منطقة عرفت حروب لا نهاية لها بين القبائل. و في هذا يقول باحث في التراث القبائلي: " السلم و الأمان المنتشرين بين القبائل لم يتأخرا في جلب الطمأنينة و الإزدهار في ربوع جرجرة و في كل منطقة القبائل " (2).

(1) MAMMERI Mouloud, **Les Isfras de Si Mohand**, Edition de la Fondation, PARIS, 1978, P, 35

(2) Thèse de Magistèr, HADIBI Mohand Akli, **Etude d'éscriptive et analytique des pratiques socio-culturelles dans un lieu saint en Kabylie, le cas de Wedris pendant les années quatre vingt dix**, Fanny Colonna, Université de Tiz-Ouzou, Département de langue et culture amazigh, sociologie, anthropologie, décembre 1994, P, 99

بمجرد أن هدأت الأوضاع في الآونة الأخيرة، أحيت المنطقة طقوسها الشعبية و عادت الحياة إلى المقامات، علما أن القبائل يؤمنون بحماية الأولياء لهم، فكل قرية لها ولي بحيث يتجسد برهانه و كراماته في القبة التي تبنى له و يزورها آلاف المريدين، يتقربون إليه بالنذور و يستلطفونه بالأضاحي، يدرك الملاحظ و الزائر شمولية الفضاء المقدس، بل تجاوزه للحدود الجغرافية، فيستمد كل فضاء في القرية قدسية خاصة بمجرد أن يسجل التراث الشعبي مرور الولي و تركه بصمات في ذلك المكان، كأن يستريح تحت شجرة، أو يشرب من عين أو يجلس على صخرة، تصبح إثر هذه الحادثة مقدسة و مادة للطقوس و البركة ، تدخل في نطاق المحرمات، الويل ثم الويل لمن يتعدى حرمة الفضاء المقدس. في ذلك تحفظ الذاكرة الجماعية حكايات طريفة عن غضب الأولياء و سخطهم، فمن تعدى على حرمتهم ألحقه بضرر كبير و ربما أرسلوا عليه لعنة أو ما يسمى بالمصطلح الشعبي " الدعوة "، بمعنى يدعي الولي في حياته على شخص أغضبه أو تعدى عليه فتصيبه لعنة تتمثل في مرض أو فقر أو موت أو جنون. بما أن الأولياء منحدرون من عائلات شريفة يعود نسلها إلى الرسول (ص)، فإنهم يتميزون عن غيرهم من عامة الناس بما يسمى بالبركة، بحيث، " نلاحظ أن من ينحدر من أصل الرسول (ص) يكمن وجودهم في إستمرارية الجماعة التي لا ضمان لها إلا بتتابع، الأشراف و البركة، هذا ما يسمح لهذه الجماعة الدينية في تثبيت وضعيتها عبر الأزمان، فلا وجود للنسل الشريف دون تتابع للأولياء " (1). نظرا لإكتساب الأشراف للبركة التي توارثوها جيلا عن جيل، فإن القبائل المنحدرين من أصل بسيط، يكنّون الإحترام و الخوف الشديد للفئة السابقة، و هم مدركون للخطر الذي يصيبهم من طرف جدهم الأول الذي عادة و غالبا ما يكون وليا، فيولون لهم الطاعة بل، يقدمون لهم أموالا كي يرضى عنهم الولي الذي يتولى حمايتهم و رعاية قريتهم و ممتلكاتهم. كثيرا ما نسمع قصص و حكايات عجيبة عن قدراتهم الخارقة كتحويل الحجر إلى ذهب، أو ضرب الأرض بالعصى، فيتدفق الماء منها، أو نزول المطر، بل من الأولياء من مسخ إنسانا عصاه إلى حيوان أو حجر أو شجر، كلها قصص غريبة، بعيدة عن العقل و المنطق، لكن تحفظها الذاكرة الجماعية و لا يستطيع أحد أن يمس هيبة و إحترام المقدس إلى يومنا هذا.

تستوقفنا هذه الحكايات العجيبة التي تسرد لنا غضب الأولياء لنتأمل في محتواها، ويتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي :

كيف يمكن لولي يزعم أنه رجل تقي، صالح في إلقاء الغضب و السخط على الناس لمجرد أن ينتزعزع ولاءهم و إخلاصهم له ؟

يفترض على الولي أن يكون متسامحا ما دام أن الله ولاّه لخدمة البشرية لا للسخط و الغضب، لذلك نعتقد أن إقبال الناس أو معضمهم على مقامات الأولياء و تقديم الأضاحي و النذور لهم ليس حبا فيهم فحسب، إنما نتيجة الخوف الذي يعتريهم إن أهملوا المقدسات لأن ذلك سيجلب لهم الضرر الكبير كما لقّنوهم أجدادهم و لا يزالون مخلصين لكل ما إكتسبوه من عادات و تقاليد دون أن يفكروا لحظة في كنه الأشياء و يدركوا بالعقل و المنطق أن الخوف و الرهبة دافعان أساسيان في إستمرارية ظاهرة زيارة المقامات، هكذا نستند إلى فكرة "DERMENGHEIM " حين يقول:" أن الولي الحقيقي لا يعرف حتى أنه ولي ... لا نستطيع أن نقول عن الرجل أنه ولي قبل موته، و أحسن دليل على قداسته هو أداءه لواجباته بوفاء و تعاطفه مع كل الكائنات و تقبله للإحتقار و إبتعاده عن أي شعور بالكراهية أو الثأر و تسامحه و رغبته في تحقيق سلام عالمي ". (2) فالولي الحقيقي يكون قريبا من الله و صديق للناس أجمعين، قلبه خال من البغض و الكراهية، لا يكنّ لغيره سوى الحب و الرحمة و المودة، إنه أيضا رجل صالح، طاهر، عادل، يحمي الناس و يشملهم برعايته، لدرجة أنه ينسى نفسه و لا يفكر إلا في خدمة الآخرين فيكون هدفه في الحياة عطاء مستمر و ولاء كامل لله تعالى.

---

(1) BAROIN Catherine, Gamps Gabriel, Gast marceau et d'autres, **Islam, Société et Communauté**, anthropologie du maghreb, centre de recherche et d'etude sur les sociétés méditeranéennes, Edition du centre national de la recherche scientifique, PARIS, 1981, P, 38

(2) DERMENGHEIM Emile, **le culte des saints dans l'Islam Maghrebin**, Edition Gallimard, PARIS, 1954, P, 19,20

2- زيارة الزوايا و دورها في علاج المس :

تعرف منطقة القبائل إنتشارا واسعا للزوايا، نذكر على سبيل المثال : زاوية سيدي منصور بقرية " تيميزار "، زاوية سيدي بهلول بقرية " الشرفة " ضواحي عزازقة، زاوية سيدي بوبكر بقرية " الشرفة " بتيقزيرت و عدد لا حصر له من الزوايا و المدارس القرآنية التي تعج بها المنطقة و تعتبر مركز إشعاع للفكر الإسلامي و منهلا للفقه و الحديث. لن نتحدث في هذا الموضوع عن دور الزوايا في نشر الدين و لا عن الوظيفة الدينية التي تكرّسها هذه المؤسسة التي عمادها تثبيت الدين و الحفاظ عن المعالم الروحية للإسلام، كما لا نتحدث عن الوظيفة الثقافية التي عهدتها الزوايا، فهي بمثابة مدرسة لتعليم القرآن و ترسيخ التربية الإسلامية. إنما نحن نهتم بالوظيفة الإجتماعية التي تغذيها العادات و التقاليد الصارمة التي تسيّر و تنظم المجتمع القبائلي، فالحياد عن هذه العادات يزعزع النظام الإجتماعي الذي وضعه الأجداد، غالبا ما يكون جائرا أو تعسفيا يصدره المرابطون والأشراف و نبلاء المنطقة لدرجة أنه لا يزال قائما و حيا، يتدعم من جيل إلى جيل. كي نلمس هذا الثبات علينا فقط أن نشاهد كيف تتمثل صورة الخضوع التام لهذه الفئة من الأشراف التي تسيّر الزاوية، بوضوح يظهر تأثير هذه الأخيرة على أديولوجية سكان القرية، بحيث، يعتقد كل زائر و كل من يؤمن ببركة و قدرة الزاوية أن طلبه سيكون مستجابا، بفضل ولائه لهذا المكان المقدس و إيمانه الراسخ في القدرات الخارقة للرجل الصالح الذي أسس الزاوية و كرس حياته للدين و خدمة الناس دون أن يأخذ لنفسه شيئا، إنما ينتظر مقابل عطائه، وفاء الناس له و لا يحدث ذلك إلا بكثرة الزوار و المريدين و إقامة " وعدات " في المواسم الدينية و تقديم الأضاحي و الأموال بهدف خدمة الزاوية و تطويرها دينيا، ثقافيا و إجتماعيا.

نعلم جميعا أن العزوف عن الزواج بالنسبة للرجال أمر مثير للشك و الشبهة، التفسير الوحيد الذي تعطيه العائلة و يراه أيضا المجتمع هو العجز الجنسي الذي يسببه السحر أو صرعة الجن التي تجعل الشاب غير قادرعلى الزواج، بمجرد أن يطول الوضع، تسرع الأم بابنها إلى الزاوية، تطلب من الشيخ أن يكتب لها حجابا يقي إبنها من السحر، و إن إتضح أنه مصاب بالصرع تقام له "حضرة " في الزاوية، يهرول لسماعه صوت الدفوف. بمجرد أن يعود إلى وعيه يشعر بالراحة، ربما أفصح بعد ذلك عن رغبته في الزواج. إن كان عدول الشاب عن أداء وظيفة إجتماعية ملحة، وضعية لا يتقبلها المجتمع، فإن عنوسة الفتاة تجعلها في حالة محتقرة تعرضها للشتيمة و الغمز و اللمز، لذا فإن فضاء الزاوية يصبح المكان الأنّق و الواسع لعدد كبير من الفتيات و الشبان، يقصدون قبة الولي الذي له القدرة في إرضاء رغبات المجتمع، فإن البركة تشع من ضريحه، بالتالي، تصبح الزاوية مكانا للإلتقاء و التعارف و كثيرا ما تنشئ عن هذه اللقاءات علاقات زواج، رغم محدوديتها، فإن هذا الفضاء يبقى أمل الفتيات لأنهن يجدن منفذا - و لو مؤقتا - يتحرّرن من النظام الحاد القائم على التفرقة بين الجنسين. ففي الزاوية و بالتحديد عند إقامة " زردة " يختل النظام و تندمج المرأة بالرجل في فضاء واحد، موحد.

كذلك بالنسبة للمرأة المتزوجة التي لا تلد، تجعلها هذه الوضعية تعيش في يأس و خوف دائم و إكتئاب يدفع بها إلى الإنهيار نفسيا، فإن الزاوية هي المكان الذي تأمل فيه أن تسترجع مكانتها الإجتماعية و تحقق مرتبة الأم. تتجاوز ما يعتبر في نظر العائلة و المجتمع نقصا و عجزا. في هذه النقطة بالذات، إستوقفتنا حالة مثيرة، كشفنا عنها خلال ترددنا على زاوية " سيدي بهلول " بتيزي وزو، إذ لاحظنا إمرأة في الثلاثينات، رافقتها أمها و خالتها، كانت شاحبة، هزيلة، يبدو عليها المرض جليا، لم تتفوه بكلمة واحدة، كانت تحدق بعينيها في مكان واحد، يداها ترتعشان، ترتبك و تنزعج لأتفه الأسباب، يبدو أنها فقدت الثقة في نفسها، حاولنا إستنطاقها، لكن بدون جدوى، إستطعنا أن نفهم من أمها أن حالتها تدهورت منذ سنة، بعدما أطلعها زوجها عن رغبته في إعادة الزواج لأن زوجته الأولى لم تنجب. فأحضرتها الأم إلى زاوية " سيدي بهلول " كي تتخلص من مس الجن الذي أصابها حسب إعتقاد الأم. فكل العائلة و كل الجماعة يتقاسمون نفس الأمل، إنه إنتظار الولي الذي يستجيب للمرأة. فإن رزقت بوليد، تقدم العائلة كبشا للزاوية، يذبح في أحد " الزردات " عرفانا بالجميل.

من هذا المنطلق، فإن الزاوية تسمح للأفراد الذين يشعرون بالنقص و عدم الإندماج مع الآخرين باسترجاع وضائفهم الإجتماعية و بتحقيق وضعيتهم اللائقة لدى الجماعة، و إعادة إدماجهم في المجتمع قد يكون نفسانيا أو إديولوجيا لأن ذلك يمكّن لهذه الفئة أن تتجاوز ما يحكم عليه المجتمع بوضعيات ناقصة لتتطور – و لو نسبيا – في وضعيات جديدة آمنة. ننوّه في هذا الصدد، أن الزاوية فضاء مقدس، بإعتبار أن مؤسسها الأول رجل صالح، برهن في حياته و في مماته عن قدراته في العلاج و إرضاء رغبات الناس و حاجاتهم، بالإضافة إلى أن هؤلاء الرجال عادة يعرفون بسيطرتهم على الجن. سمعنا حكايات كثيرة عن إستخدام الأولياء لهذ الفئة و تحكمهم الصارم فيها، لهذا نجد الزاوية مكانا مؤهلا لبعض ممارسات الشعوذة، من بينها طريقة شائعة في منطقة القبائل، شدت إنتباهنا، هي علاج المس الذي يرمي إلى إخراج الجن من بدن المريض، بواسطة " الجدب " كما يسمى بالمصطلح الشعبي، أي الهرولة على صوت الطبول حتى يفقد الشخص وعيه، من ثم، يدخل الشيخ في حوار مع المريض الذي يتكلم بلسان الجان الذي يسكنه.

إرتأينا إذن، أن نميط اللثام عن هذه الظاهرة و نكشف طريقة علاجها، و ما هو دور زوايا منطقة القبائل في علاج المس ؟
قبل توضيح دور الزاوية و طريقة شيوخها في علاج المس أو صرعة الجن، من اللائق، علينا تعريف ما يسمى بالصرعة، في هذا يقول إبن القيم الجوزية " هذه الأرواح إنما تتسلط على القلوب الضعيفة، تلقاها مستعدة لتسلطها عليها بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح و لفراغها من القوة الإلهية، فتتمكن من التأثير على الإنسان بصرعة، تجعله مضطربا، تبدو عليه حركات غريبة، كالتي تظهر على المكتئب الذي يعيش أوهاما و هلوسة... " (1)

(1) إبن القيم الجوزية، زاد المعاد، ج 1 ، ط 8، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، 1985، ص، 127

نفهم من هذا التعريف أن الجن التي تتخبط الإنسان، تصيبه باضطرابات نفسية و فيزيولوجية. تجده ضعيف الشخصية، فاقد الثقة في نفسه، متردد في أفكاره و أفعاله، بالإضافة إلى نقص إيمانه، لأن هذه الأرواح قريبة من الشيطان، لذا إن كان الإنسي ضعيفا أمام الشيطان، منقاد لأوامره تهزمه هذه الأرواح و تجعل من بدنه مسكنا لها بالتالي، يعيش في اليأس و الأوهام، بحيث تبدو عليه أعراض تشبه تماما حالة المكتئب. لهذا السبب، يعلل أطباء علم النفس الصرع بالإكتئاب. فينهار تماما المريض و يفقد توازنه الإجتماعي، لكن تمرعليه فترات يعود فيها إلى صوابه، فهو يختلف عن المجنون، لأن المسكون لا يفقد الصلة مع محيطه و كما يقول الباحث "وتيس " : " في خلال هذه الفترة يكشف عن الغيب في ألفاظ غير مباشرة، يحاول فيها إطلاع الناس عن شيء معين. إنها الفترة التي يرخي فيها الجان تسلطه عليه لسبب أو لآخر ". (1)

يظل المصاب في حالة إضطراب و هيجان طالما لم يعالج نفسه، لهذا الهدف، تعرف الزوايا إقبالا واسعا لمثل هذه الحالات، يقصدها الناس يومي الإثنين و الخميس، و بعض الزوايا الأخرى تخصص كل الأسبوع لإستقبال المرضى ما عدا يوم الجمعة، لأنه يوم مقدس عند المسلمين، لا تنزل فيه الشياطين و لا الجن.

علينا أن نشير هنا إلى نقطة هامة لا يجب أن تفوتنا ألا و هي الزوايا المختصة في هذه الممارسات التي تنعت بالشعوذة، تلك التي تملك مقامات و أضرحة الأولياء الذين هم مؤسسوا هذه الزوايا أو ما يسمى بالمصطلح العامي القبائلي " ثمعمرث "، هي زوايا صغيرة أنشأها المرابطون لحفظ القرأن و تلاوته، تمارس بعض الظواهر التي تتبع من معتقدات الشعب، لكنها ليست بمثابة معاهد يتخرج منها الطلبة في الشريعة و الفقه و الدين، كالزوايا المعروفة التي تخرّج منها علماء أجلاّء و فقهاء، توّطرها و تسيّرها وزارة الشؤون الدينية. إنما الزوايا التي نتحدث عنها لا ترتق إلى هذا المصاف، يكمن دورها في زيارة مقاماتها و إقامة " الزردات " في المواسم و علاج بعض الأمراض النفسية، يقصدها جمع كبير من " الخوان "، هم المريدون الذين أخذوا العهد أو ما يسمى " بالميثاق " عندهم، من الشيوخ الأوائل و أصحاب هذه المقامات، كانوا أوفياء لهم في حياتهم و ظلوا كذلك بعد مماتهم. فالزوايا التي نقصدها هي من هذا الطراز الذي وضحناه، فلا نريد أن نقع في الإلتباس، ذلك يكون إجحاف في حق الزوايا التي تعتبر معاهد و مدارس لنشر الإسلام و ترسيخ ثوابته.

(1) OUITIS Aîssa, **Les Contradictions sociales et leur expréssions symbolique dans le Sétifois**, société nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1997, P, 80

إنما نحن نهتم بتلك الزوايا التي تضرب فيها الطبول، يسمع فيها صوت الدفوف و يتم فيها الرقص الجماعي على وقع المدائح التي يرددها " الخوان "، بحيث تكون الهرولة في هذه الحالة "و الرقص يهب الفرح لأرواح الناس ... " (1) ما دام الشعور بالراحة و الهدوء يغمر روح الإنسان لحظة رجوعه إلى وعيه مباشرة. حسب المعتقد الشعبي، الجن لا تتحمل صوت الدفوف، فهي تنزعج و تنفعل و تهيج في جسم الشخص الذي يسكنه، تحدث بذلك نوترا و هيجانا عند المريض يتجلى في دخوله حلقة الرقص الوحشي الذي " يحمل إزدواج شخصيتين بصفة كاملة أو جزئية و تتبعه أوهام و هلوسة " (2) أي الشخص يفقد وعيه بصورة كاملة بحيث يتحدث بلسان الجان الذي يسكنه، أو يكون فقدان الوعي جزئيا، يدرك المريض ما حوله و يعي كل ما يجري أمامه، لكن لا يتحكم في شخصيته، بل ينقاد لأوامر الجان الذي يسيطر عليه، فيبدو مزدوج الشخصية، يفقد وعيه و روحه للحظات معينة. كما تعرف و تدرج " الأنتروبولوجية عادة هذه الحالة في نظرية " " فقدان الروح " ... و الصراع لا يظهر إلا إذا حدث في نفس الوقت " فقدان الأنا " " .(3) عندما يفقد الشخص وعيه، يتم الحوار بينه و بين الجان الذي يسكن بدنه و الشيخ الذي يتولى عملية إخراج الجن من جسم المريض، فالهرولة تدفع إلى فقدان الروح مؤقتا. الشخص يكون ساعتها غائبا، يحاور الشيخ الجني ، يطلب منه أن تقدّم له أضاحي يشترط في إختيار نوعها و لونها، حتى يقبل الحوار و التفاهم و الخروج من جسم المريض. في هذه الظاهرة الغريبة، عايشنا تجربة حية و لاحظنا خطوات العلاج عن قرب، حين علمنا بإمرأة نعرفها جيدا أنها تصطحب إبنتها إلى "سيدي بالوا" بأعالي " تيزي وزو"، إعتقادا منها أن الفتاة أصيبت بالسحر و المس، فرافقنا الأم في إحدى زياراتها إلى مقام " بالوا "، كان ذلك يوم خميس، بعد الظهر، أقيمت " زردة " على شرف الحاضرين، بعد تناول الطعام، النساء في غرفة منعزلة عن الرجال، حضر الخوان، يتقدمهم الشيخ " محند " ببرنوسه و عمامته البيضاء، النساء في حلقة، و الرجال في حلقة بعيدة قليلا عنهن. بدأ الخوان بضرب الدفوف و المدائح و ذكر خصال و قدرات الولي، ثم الإستنجاد به ليشفي المرضى، و يخلصهم من الأذى. بينما المدائح تتعالى، نهضت بعض النسوة إلى وسط الحلقة و بدأن في الجدب، يتصببن عرقا و يقفزن بقوة خارقة، حيث إستغربنا لذلك لأن بينهن عجائز من العجيب أن يملكن هذه القوة، بينما إبنة صاحبتنا لم تتحرك من مكانها. بعد الهرولة سقطت النساء أرضا يعتريهن التعب، توقف صوت الدف لحظات ليستمر في حلقة الرجال. بينما كنا نحن الحاضرين نراقب من بعيد، خاصة و أننا مضطرين إلى إحترام الحدود القائمة بين الجنسين، نهض رجل في الأربعين يهرول حتى كاد أن يسقط أرضا بدت عليه علامات العذاب و الألم، كأنه يريد التخلص من شيء يكبل خناقه، كان يمسك بيده على رقبته يحاول أن أن يتكلم، لكنه عاجز. و بعد لحظات نطق بعبارة واحدة شدّت إهتمام الجميع و قال بصوت قوي "لا أريد أن أخرج"، هنا أمسك به الشيخ " محند " و توقف صوت الدف و خيم الصمت الرهيب على المكان، ضغط الشيخ على يد المريض، بالتحديد على ضفر إبهمه الأيسر، و ردّد الرجل نفس العبارة " لن أخرج ". هنا دار حوار بين الشيخ " محند " و الجن.

(1) العنتيل فوزي، **الفلكلور ما هو ؟** ، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1965، ص، 143

(2) LEWIS (I,M), **Les Religions de l'extase**, présses universitaires de Frances, PARIS, 1971, P, 39

(3) نفس المرجع، ص، 47

الشيخ : ما إسمك
صوت الجن : منصور
الشيخ : ماذا أتى بك إلى هذا الشخص ؟
الجني : أعجبني و أريد أن أسكن جسمه
الشيخ : ماذا تريد منه ؟
الجني : أريد أن أبقى فيه
الشيخ : أناشدك باسم سيدي بالوا و سيدي منصور و كل سادات المنطقة أن تغادر جسم هذا الرجل و سنعذبك حتى تخرج منه، هو يضغط بقوة على ضفر إبهام المريض، ثم يردد له نفس القول، أخرج و إلا سنعذبك. أنظر كيف أصبح لا يأكل و لا يشرب، إنك تعذبه، يضغط بشدة على إبهامه و يحدّثه بلهجة مخيفة.
الجني : لقد تعبت سأخرج منه لكن بشرط...
الشيخ : لا يترك الصوت يكمل شرطه، حتى يقول له، سنعطيك عجلا أو كبشا أو دجاجة سوداء أو حمامة.
الجني : أريد دجاجة سوداء.
الشيخ : سنعطيك إياها، و لكن تعدنا بعدم الرجوع إليه و لن تتعرض له مرة أخرى و تعود حيث ما جئت و إلا سنعود لتعذيبك.
الجني : لا أعود.
الشيخ : تعدنا باسم سيدي بالوا و كل السادات أن لا تعود و لا تتعرض لهذا الرجل .
الجني : أعدك باسم سيدي بالوا أني لن أتعرض لهذا الرجل. يكرر ذلك ثلاث مرات بطلب و أمر من الشيخ.
الشيخ : أخرج إذن من أصبع هذا الرجل و إتجه نحو الباب.

يطلب الشيخ من الرجل أن ينهض لأنه منهك، مترامي على الأرض، يأمره بالرجوع إلى بيته و العودة إليه يوم الخميس المقبل يحمل معه دجاجة سوداء تذبح في المقام كما طلب الجني.
يبدو أن الرجل لم يستوعب ما جرى له، لم يسترجع وعيه كاملاً بعد، كأنه مخدّر، ساعده رجلين على النهوض وأخرجاه من الحلقة لعلهم أقرباءه .

هكذا، وبهذه الطريقة يتم علاج المصروعين ويظهر على العامة أنه علاج مريح إن لم نقل مجد، لأن الإعتقاد فيه علاج و الإيمان بهذه الممارسة شرط أساسي للعلاج،مايهم هو إقتناعهم بأن هذه الطريقة تجلب لهم الراحة وتطلق العنان لصراعاتهم النفسية وآلامهم لأن البعض من الأفراد نفوسهم رهيفة وشخصيتهم ضعيفة، لذا يضخمون ويعقدون أبسط الأمور، فأبسط المشاكل تجعلهم ينهارون نفسيا ويعيشون في يأس وإكتئاب دائم، لذا يجدون في الجد ب متنفسا لغرائزهم وآلامهم وأحزانهم " ففرح الإنسان يكمن في الحركة ". (1)

(1) MUCCHIELLI Arlette, vexliard alexandre, **l'homme et ses potentialités**, les éditions ESF, Paris, 1984, P, 148.

إنطلاقا، من هذه الممارسات التي تعرفها بعض زوايا منطقة القبائل،التي تعرف بقدرتها في إستقطاب حجيج من الناس، يقبلون عليها في المواسم الدينية كعاشوراء والمولد النبوي، تتميز عن غيرها من الزوايا بقدراتها في علاج هذه الأمراض النفسية، كلما كثرمريدوها وطائفة الخوان التي تعززها معرفتها وتحكمها في الإنشاد ومدح السادات وأولياء المنطقة، خاصة إذا كان موقع الزاوية عامر بأضرحة شيوخ المنطقة المشهورين ورجالها الصالحين، ذلك يزيدها رهبة وقوة.
لعل هؤلاء الخوان وشيخهم هم فئة تخرج عن المألوف و ما نعهده في حياتنا العادية، فمجرد إنزياحهم عن القالب المعروف لدى العام والخاص يغرس فينا الرهبة والخوف إزاء هذه المجموعة هذا ما يجلب عددا كبيرا من الناس إليهم ليس إقتناعا في العلاج السحري الذي يتزعمونه، لكن خوفا منهم وكما يقول DERMEINGHEIM : " هؤلاء المجاديب قد يكونوا مجانين في خدمة عدد كبير من الجمهور الذين يؤمنون بهم." (1)
نعتقد أن إيمان الناس بهذه الطائفة وبالعلاج السحري الذي تقدمه ليس إقتناعا بهم و لا بممارساتهم، لكنهم لا يبحثون في إشكالية العلاج لأن الدواء من عند الله – هكذا أخبرونا من إستجوبناهم من النساء أو الرجال– بقدر ما يتطلعون إلى الهروب من الواقع وعدم البحث في الحقيقة، إنما التشبث بالخيال والأوهام ولو لفترة مؤقتة.

III– زيارة الأماكن المقدسة :

عرف المجتمع القبائلي منذ القديم قوى خفية و أرواح غير مرئية قدسوها بشتى الطرق و إستلطفوها بوسائل قد تبدو اليوم بدائية بإشعال المصابيح في الأماكن المقدسة تصنعها النساء بالفخار خصيصا للولي أو للروح التي تحرس المكان و بالتالي ترعى و تحافظ على ممتلكات الأحياء. المرأة تظل وفية للمقدسات، عن طريقها و من خلالها وصلتنا هذه العادات و التقاليد التي حاولت المرأة أن تنقلها إلى الأجيال اللاحقة. هي أكثر تشبثا بالثقافة من الرجال، بحيث نجدها محافظة للرواسب الثقافية إلى يومنا هذا، بينما الرجل، إنسلخ ثقافيا بسبب إحتكاكه بالعالم الخارجي. فكانت المرأة الريفية في منطقة القبائل تصنع مصابيح و صحون من الفخار، تقدمها للأرواح التي تحرس قريتها، إما تعبيرا لهم بالشكر و العرفان أو لطلب أو رجاء تطمح في الوصول إليه. و تقصد النساء هذه الأماكن المقدسة جماعيا أو فرديا، فالمقبلات على الزواج يذهبن جماعات إلى الفضاء المقدس الذي يكون مقاما أو منبع ماء، أو ربما كهفا أو حجرا أو شجرة، هذا ما سنوضحه لاحقا. يذهبن فرادى في حالة عقم المرأة و توظيفها لطقوس تخلصها من المرض أو من السبب الذي يعيقها عن الإنجاب، فتترك في المكان شيئا من لباسها، هكذا تطرد مرضها، تتركه في المكان المقدس كما تركت لباسها.

(1) DERMENGHEIM Emile, **le culte des saints dans l'islam Maghrébin**, P, 29.

اليوم و قد حدث تطور في الذهنيات، حاول سكان الريف أيضا أن يسايروا العصر و يبتعدوا قدر الإمكان عن عادات الأجداد البدائية، فلا نجد النساء تحمل مصابيح الفخار تقدمها للولي أو للمكان المقدس و لا تعقد ثيابها على غصن شجرة بغية الإنجاب و غيرها من الطقوس السحرية التي تملك المرأة الريفية تجربة خاصة لا تبوح بتقنيات العملية السحرية إلا لبني جنسها، و لا تحيد عن توظيفها كلما إقتضت الضرورة و إستوجبت الظروف ذلك، تثبت جدارتها و قدرتها في هذا الميدان. في الحقيقة، لم تندثر تماما هذه الممارسات في أريافنا، لكن إتخذت شكلا آخر و وسائل أخرى لتحقيق نفس الغاية و نفس الهدف. بمعنى أن القبائل لازالوا يعتقدون إلى يومنا هذا بوجود أرواح غير مرئية تتعت أحيانا بالأولياء، "بالسادات" أو بالحراس، المهم، أن هناك أرواح تسكن أماكن معينة كالأشجار، الكهوف، الأحجار و الينابيع، يزورونها و يشعلون فيها الشموع و يحترمونها بل يقدسونها و لا يجرأ أحد أن يمسها بضرر أو سوء، إن فعل تصيبه لعنة أو مرض. لذلك، نرى، أن النساء الريفيات خاصة، أهملت بعض الطقوس التي تعتبر بدائية و تجاوزها العصر و لا يقبلها المنطق و لو كان ساذجا. أبقت و حافظت على طقوس أخرى، و ممارسات ترى أن المجتمع يتقبلها نسبيا، بالتالي، أهملت ما تراه غير مجد، و تمسكت بكل ماهو ناجع بالنسبة لها و تشبثت بكل ما يخدم مصالحها و يساعدها على تعديل حياتها و تحقيق رغباتها الإجتماعية. ما تلك الممارسات التي نشاهدها اليوم في الأماكن المقدسة كإشعال الشموع و إطلاق رائحة البخور لإبعاد قوى الشر و الجن إلا " تقنيات لتثبيت الروح الرهيفة. " (1) هذه الأرواح التي تحمي وتحرس بإمكانها أيضا أن تكون واسطة بين الإنسان وخالقه ، فإرضاؤها هو كسب لها ، لأنها تتوسط إلى الله ، فتكون رغبة الإنسان مستجابة. هكذا ،نلمس العلاقة القا ئمة بين أرواح الموتى و بين الأحياء، كأن هذه الفئة التى تعيش في العا لم الأخر، لها القدرة في التسيير والتحكم في عالم الأحياء، فهل الأموات لازالوا مرتبطين بالأرض التي غادروها بحتمية ؟ أم الأحياء هم الذين يشاركون ويتقاسمون مع الأموات–في عالمهم المثير–أشياء تربطهم ببعظهم البعض ؟ فالأحياء يبدوا أنهم يبحثون عن علاقة تربطهم دائما بالأموات كأنه تأكيد مستمر بعدم نسيانهم والوفاء لهم. والدليل على ذلك، أن القبائل يضعون على قبور موتاهم إناء من الماء، إعتقادا منهم أن الميت يرى الأحياء من خلال الماء وذلك بمجرد أن ينظرالزائر فيه.

كما أن فكرة إقتسام الخبز مع روح الميت ، لاتزال حية في الريف القبائلي، شاهدنا في العديد من المرات، كيف تتقاسم النساء الخبز بينهن داخل ضريح الولي أو في مكان مقدس يعرف بأن أرواح تسكنه، بعدما تنتهي من الأكل، تترك في المكان خبزا أورغيفا ، هذا يدل على الرباط و العهد القائم بين الأحياء و الأموات، فتقاسم الأكل في عادة القبائل يدل على العهد والوفاء والإخلاص بحيث يقولون : "تشا ثقلا ذا الملح" أي أكلنا الطعام و الملح معا، فلا تحدث خيانة أبدا بين الطرفين ، فمن أكل طعام الأخر أعطي له الأمان في المجتمع القبائلي. ولهذه العلاقة الوطيدة بين الأحياء و الأموات، يطلبون منهم أن يساعدوهم ويتوسطوا إلى الله فيعطيهم الزرع والخصوبة والماء والنعمة ولهم الحق في ذلك بما أنهم شاركوهم في أكلهم وأضا حيهم، "هكذا يتم التوازن ... بين الحياة والموت وتتجلى ضرورة الواحدة بالنسبة للأخرى ."(2)

(1) SERVIER Jean , **Tradition et civilisiation bérbéres , les Portes de l'année** ,édition du Rocher, Monaco,1985, P, 94

(2) SERVIER Jean, **Les Bèrbères, Que Sais-je ?** Présses Universitaire de France, PARIS, 1990, P, 71

لازلنا إذن، نشاهد إخلاص الأحياء لفئة الأموات أو ربما خوفهم من الغضب الذي سيلحقوه بهم إن عزلوهم عن حياتهم ، لذا نرى في قرى منطقة القبائل إستمرار هذه العادات التي عرفناها عن أجدادنا، فإن أصيبت عائلة ما بفقدان أفرادها بسبب المرض مثلا ،يقوم رب العائلة بتقديم عجل أو كبش للقرية صدقة، تدفع السوء عن باقي أعضاء وأفراد العائلة،يذبح العجل في مقام القرية ويوزع اللحم على جميع السكان.نلاحظ أن حصة الميت في هذه الذبيحة هو الدم المراق، فقد أخبرنا شيوخ قرية "واقنون" أن الدم و بالتحديد دم الذبيحة يجلب الحراس الذين يتولون حماية القرية . هكذا ، يشاركون الأحياء في طعامهم ،فيقوى الرباط بينهم و بين أمواتهم عن طريق الزيارات وتقديم الأضاحي والنذور لكل الأماكن المقدسة.

1- الأشجار :

يتوجه القبائل و بالتحديد النساء إلى القوى الخفية التي تسكن الطبيعة، حسب إعتقادهم تأخذ أرواحهم الأشجار مسكنا لها، خاصة، شجرة الزيتون، التي لا تنتج، شجرة البلوط و شجرة الضرو، أحيانا، نجد شجرة الخروب، لاحظنا في عدة قرى من منطقة القبائل، وجود هذه الاشجار و إعتبارها كحارسات، سألنا الشيوخ و العجائز عن تقديس هذه الأشجار دون غيرها و ما هو سبب إتخاذ الحراس هذه الأصناف مساكنا لهم و لم يتخذوا أشجار أخرى مثمرة ؟ قالوا لنا : " وجدنا أجدادنا يقدسون هذه الأشجار لما فيها من فوائد و أدوية ". حقيقة، تستعمل النساء أغصان، أوراق وعروق هذه الأشجار لعلاج بعض الأمراض كوجع البطن و يستعمل نبات الضرو للجروح، قديما كانت الأمهات تستعمله للختان، تعصره، تأخذ الماء و تضعه على مكان الجرح، هكذا يتوقف نزيف الدم، الذي سببته عملية الختان. كما توظّفه النساء أيضا في الطقوس السحرية، خاصة فيما يخص طقوس التطهير التي تؤديها الفتاة رغبة في الزواج. ربما، إختار الحراس هذا النوع من الأشجار للسبب الذي ذكره لنا الشيوخ، و نحن نعتقد أن ثمة سبب آخر، لم ينتبه إليه من إستجوبناهم، فقد لاحظنا في خلال بحثنا عن الأماكن المقدسة أن الحراس يختارون و يفضلون الأماكن المهجورة، الوعرة و الخشنة، إما في الكهوف و الغيران، أو في قمم الجبال أو في الأحجار أو في ينابيع المياه أي تحت الأرض و كلها أماكن مظلمة، مقفرة، حزينة لا ترى النور، بالتالي لا ترى الحياة، فالجبل و الحجر و الكهف أماكن ثابتة إذن ميتة. إنطلاقا، من ثنائية الحياة و الموت، نفهم و نكتشف سببا آخر يبدو لنا أكثر أهمية جعل هذه الأرواح المخفية تختار هذه الأماكن ملجأ لها. و يحيلنا هذا إلى فكرة الزهد و الإبتعاد عن ملذات الحياة و إتخاذ الخلوة مكانا للتقرب إلى الله عزوجل.
ما يدعّم إعتقادنا و فكرتنا هو إيمان القبائل بأن هذه الأرواح خيرة، صالحة، تقية، زاهدة، قريبة من الملائكة، و كم من الحكايات تروى في شأن زهد حراس و سادات الأماكن، نسرد على سبيل المثال، زهد أحد أولياء قرية " إيمسونن " بمنطقة " إفليسن " يسمى " سيدي أمحند أمغزي "، قيل لنا إسمه الحقيقي هو " عبد العزيز أورشيد " (أنظر الصورة رقم (1)) تحيط بمقامه شجرة الخروب و مقبرة دفن فيها أبناء و أحفاد الولي، قيل لنا أن الشموع تشعل في الليل و تنطفئ قبل الفجر، أصبحت هذه الشجرة مقدسة يسكنها حراس المنطقة (أنظر الصورة رقم (2)). بما أن الولي زاهد لا يحب الزهو، فإن كل الأرواح التي تعمر المكان و تحرسه لا تحب اللهو أيضا و تنبذ كل ما يتصل بزينة الحياة، لذا أخبرتنا الحاجة " فاطمة " مخلصة لهذه الأماكن أن سكان القرية حاولوا بناء قبة في هذه المكان و في الصباح يجدونها مهدمة، بقيت آثار الأحجار إلى يومنا هذا مقدسة لا يجرؤ أحد أن ينتهك حرمتها. (أنظر الصورة رقم (3))

الصورة رقم (1)

مقام " سيدي أحمد أمغزي "، إسمه الحقيقي " عبد العزيز نورشيد " بقرية " إمسوذن ".

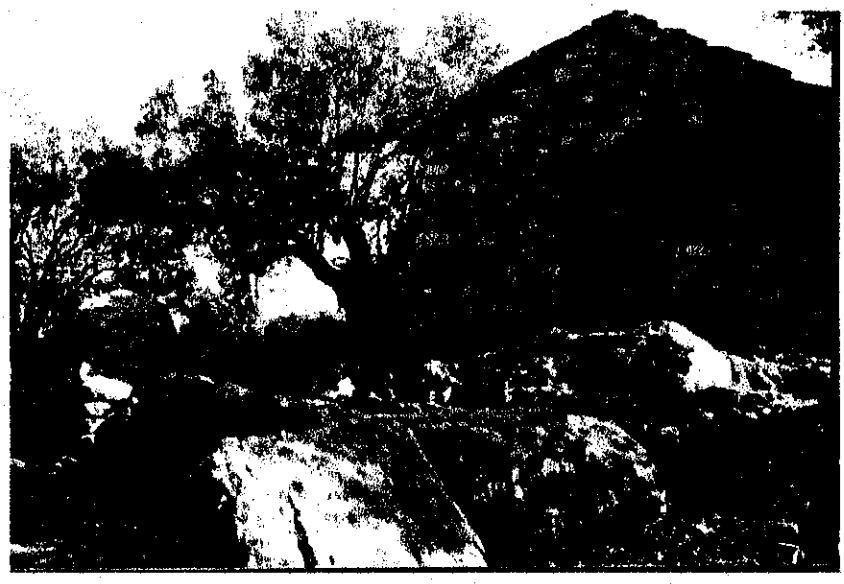

الصورة رقم (2)

شجرة الخروب مقدسة، يعتبر حارسة، تقع على بعد ميترات من مقام " سيدي أحمد أمغزي "، تحيط بها مقبرة، في الليل تشتعل فيها الشموع.

الصورة رقم (3)

الولي " سيدي محند أمغزي " زاهد، يبني له سكان قريته قبة و يجدونها مهدمة في الصباح.

لاحظنا أن المعتقد الشعبي يرى أن أرواح الحراس الذين يعمرون منطقة القبائل هم أرواح طيبة، صالحة و خيرة لذا تساعدها الملائكة. غالبا ما نجد تعارض و خلط في المفاهيم لدرجة أن معظم المستجوبين من الرجال و النساء يمزجون بين الأولياء، السادات و الملائكة، يطلقون عليهم مصطلح حراس. وجدنا في بعض القرى آثار لمساجد يعتقد أن الملائكة هي التي بنتها و يطلق على هذه المواقع إسم " جامع الملائكة " كما هو الحال في جبل " لالا الثلاثاء " بإفليسن، يعتقد سكان المنطقة أنها حارسة، إختارت هذا المكان المنعزل لتعبد الله و تتصدى للأعداء، بذلك تحمي كل المنطقة و تحرسها من أي خطر يتربص بها، اليوم نشاهد في ذلك المكان بقايا أسوار من الحجر بنته الملائكة في ليلة واحدة،، عندما بقي على شكل جدران، لم تكمله الملائكة، قرر السكان مواصلة بناء الجامع، في الصباح، وجدوه منهارا، بقيت فقط الأسوار التي بنتها الملائكة، لازال يسمى جامع الملائكة، (أنظر الصورة رقم (4)) أصبح إثرذلك، مكانا مقدسا، تتبرك به النساء، بحيث عندما ندخل نجد أطراف الخبز أو الرغيف بين ثغرات الجدران، كما تشعل النساء الشموع كلما زارت هذا المكان (أنظر الصورة رقم (5)) و شاءت الصدف أن يكون اليوم الذي زرنا فيه هذا المكان المقدس هو يوم ثلاثاء. إنه يوم الزيارة، هذا نسبة إلى إسم حارسة المكان " لالا الثلاثاء ". وجدنا مجموعة من النساء و الفتيات جئن للزيارة و قامت إحداهن بإشعال شمعتين في جدار " جامع الملائكة "، سألنا عن السبب، أجابتنا بأنها يائسة لم يسعفها الحظ في الزواج، رغم أنها جربت كل الطرق السحرية و الطقوس التي تعرفها، لكنها ستزور دائما " لالا الثلاثاء " كي ترضى عنها و تبعث لها نصيبا من الحظ، و الشمعتين أشعلتهما لتضيء المقام، لعل ذلك النور سيعكس على مستقبلها و حياتها. (أنظر الصورة رقم (6)).

تتوسل النساء إذن إلى حراس المنطقة، تلتمس من أرواحهم الخير و النعمة، تنتظر منهم البركة و الرعاية، بل هذه الأرواح لا تحرس الإنس و الحيوان فقط، إنما الطبيعة أيضا يتجسد في بعض الأماكن التي تعتبر مقدسة و لا يوجد فيها ما يمثل هذه القداسة من حجر أو شجر، إنما مكان وقعت فيه حادثة لولي ما و يصبح إثرها هذا المكان مقدسا، يشير إليه سكان المنطقة بركام من الأحجار ربما شجرة صغيرة لا يجرؤ أحد أن يمسها، تدل على قد سية المكان، كما هو الحال في مكان يسمى " سيدي علي أوبلقاسم " بقرية المرابطين " ثيمليلين " بضواحي إفليسن، إنه حارس البحر كما يعتقد سكان القرية، في أسفل هذا المكان توجد مقبرة، في القرية بالذات، شجرة زيتون مقدسة، يحكى أنها إقتلعت من جذورها ذات يوم بدون سبب، بقيت مترامية أغصانها يقتات منها المعز و الكباش، بعد مرور زمن معين على إقتلاع الشجرة، ذات صباح، وجدها السكان عادت إلى أصلها و كأن أحدا غرسها في الأرض، إستعادت أغصانها و أوراقها التي كانت علفا للأغنام، لذا تسمى " ثزبوجث إغلين ثكر " أي الزيتونة التي سقطت ثم نهضت. من ذلك اليوم أصبحت مقدسة بفعل الروح التي تسكنها، إلى يومنا هذا لا يستطيع أحد أن يقطف أوراقها أو يقتلع أغصانها (إنظر الصورة رقم (7)).

دائما فيما يتعلق بالأشجار المقدسة، نجد شجرة زيتون قديمة جدا في " أزفون " تبعد عن مقام " سيدي القرشي " بحوالي ثمانية كيلومتر (8 كلم). هذه الشجرة تدعى " ثزبوجث إحمّامن " أي زيتونة الساخنين (أنظر الصورة رقم (8))، تسكنها أرواح كثيرة تتولى حراسة هذه المنطقة ، يعرف هؤلاء الحراس "بالساخنين" لأنهم متشددون لايتسامحون مع من أغضبهم ومن تجرأ ومسهم بسوء ألحقوه بمرض أو لعنة تتلف عقله . قرب الشجرة ، نجد مقام "سيدي يعقوب" (أنظر الصورة رقم (9))، تزوره النساء كل يوم خميس ، تضع "وعدة" مبلغ من المال في مكان خاص لذلك ، يقفل بالمفتاح ، فوقه نافذة صغيرة تشعل فيها الشموع (أنظر الصورة رقم (10))وتترك فوق الشجرة المقدسةرغيفا، تأخذ من أوراقها ، تستعملها للإستشفاء والتطيب التقليدي .

الصورة رقم (4)

" جامع الملائكة " مقام " لالا الثلاثاء " بإفليسن، يقال أن الملائكة هي التي بنت الجدار.

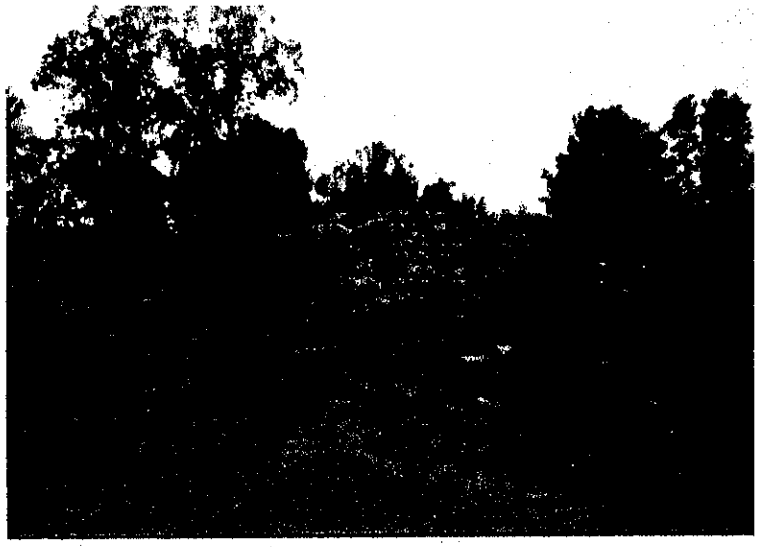

الصورة رقم (5)

إشعال الشموع في ثغرات جدار "جامع الملائكة".

الصورة رقم (6)

تظهر شمعتين في ثغرة من جدار " جامع الملائكة " بمقام الحارسة " لالا الثلاثاء".

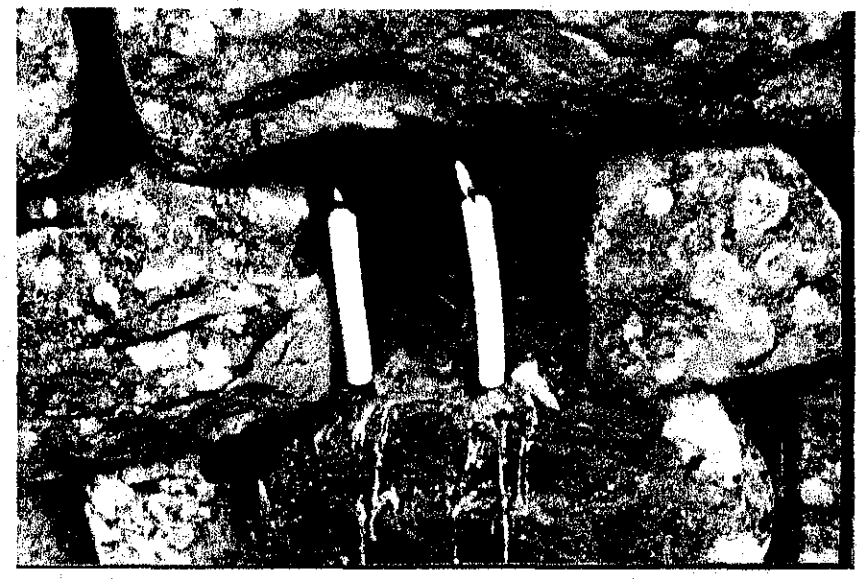

الصورة رقم (7)

" ثازبوجث أغلين ثكر " الزيتونة الساقطة، الواقفة، بقرية " تمليلين ".

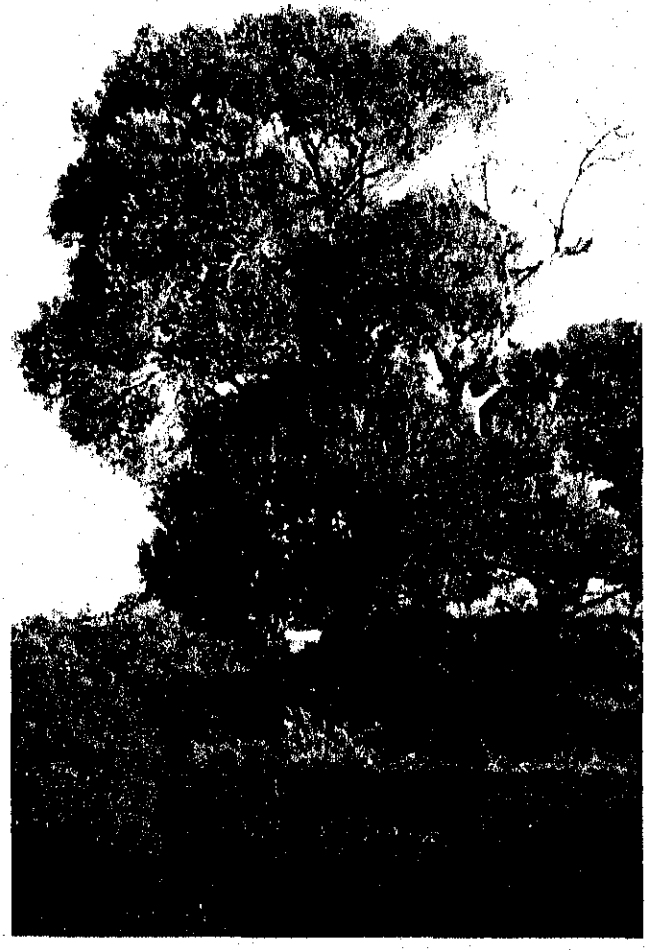

الصورة رقم (8)

" ثازبوجث إحمامن "، زيتونة الساخنين بجوارها مقام سيدي يعقوب.

الصورة رقم (9)

مقام " سيدي يعقوب " بالداخل.

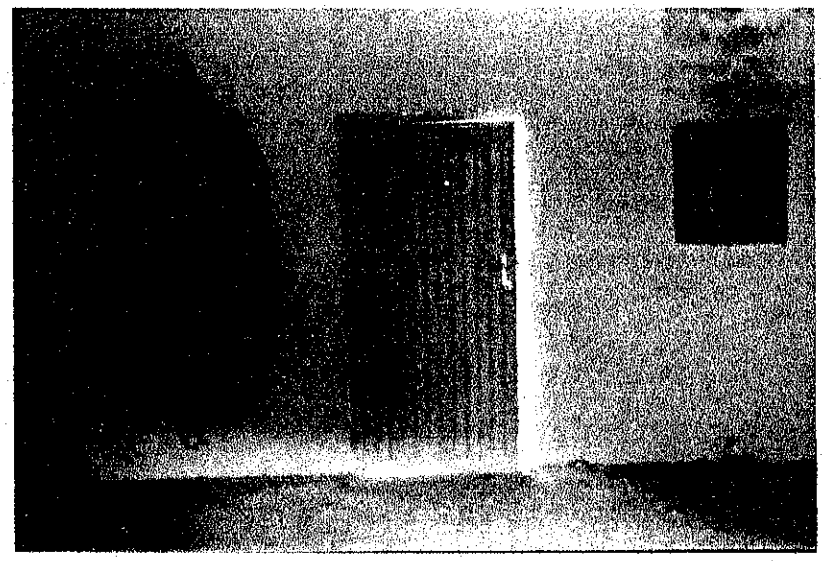

الصورة رقم (10)

صندوق معلّق على الجدار بداخل مقام " سيدي يعقوب "، توضع فيه الأموال التي يقدمها الزوار. فوقه نافذة تشعل فيها الشموع.

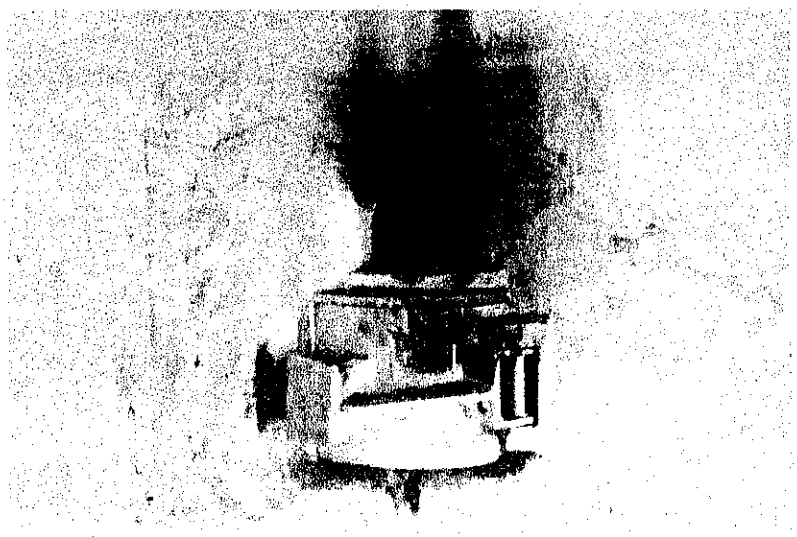

كما تتوجه المرأة الريفية في منطقة القبائل بالأضاحي والنذور ، محاولة إرضاء " باب أبمكان "أي رب المكان هكذا يسمى الحارس بإعتباره مسيطرا ومالكا للشجرة المقدسة أو للحجر كما سنراه لاحقا .

2 ـ الأحجار :

تشمل منطقة القبائل على عدد كبير من الأحجار الضخمة ، الواقعة في الأمكن الوعرة عادة ، ما يثير انتباهنا هو كثافتها الجغرافية وتعدد وظائفها وأهميتها في حياة النساء الريفيات اللواتي يتخذن هذه الأحجار لأداء طقوس سحرية ، ترى أن الأرواح التي تسكن هذه الأحجار الضخمة تملك القدرة علىالإستجابة وإرضاء رغباتهن، يشهدن بحكايات تروي تجربتهن الخاصة ، وكلما تحققت لهن أمنية بالصدفة غالبا ، تتعمق وتترسخ في أذهانهن فكرة وجود أرواح خفية تعمر الأحجار والمكان الذي سيصبح مقدسا بمجرد وجود أثر لمقام ولي، تتخذه النساء ملجألهن ، يهربن إليه كلما صادفتهن عراقيل أو صعوبات في حياتهن الإجتماعية كاللواتي لم ينجبن ،يقمن بتكسير صحون أو مصابيح من الفخار ، أوقدور مسوّدة بفعل النار حين الطبخ ،بذلك الكسر تطرد اللعنة والعين الحسود و تتخلص من الحظ السيء ، لأن إناء الفخار المسود بالرماد والنار يعتبر فألاسيئا، لهذا السبب نجده عادة في البيوت ، علىالجدران ، يعتقد القبائل أن في ذلك وقاية للمنزل والعائلة من العين .

إتخذت هذه الأحجار الضخمة في حرب التحرير كمركز للمراقة من طرف المعسكرين الفرنسين لإستراتيجية مواقعها كما كانت هذه الأحجار العظيمة ، مخبأ للأولياء وحراس المنطقة ، يضربون الأعداء من فتحات الأحجار . هذا لاحظناه في عدة أحجار و مغارات منطقة القبائل ، فعادة الحجر الذي يملك فتحات يعتبر مقدسا ومكانا للحراس و السادات، فقد عثرنا ـ في خلال استطلاعنا للميدان – علىحجر ضخم يملك فتحتين يدعى "أبلاظ نطويقان "أي حجر له نوافذ (أنظر الصورة رقم (11)). هذا الحجر يملك فتحتين، وجدناه بقرية "إمسونن" بنواحي "إفليسن "، توظف فيه طقوس لطرد العين، الحسد، اللعنة و التابعة التي تمنع المرأة من الإنجاب ، فيه تطرد أمراض عديدة ، فمن كان مريضا و به علة معينة يمر بصعوبة من الفتحة الأولى، ليخرج أيضا بصعوبة في الفتحة الثانية، أما من كان معافا ،سالما لا يجد صعوبة في المرور . في نفس القرية ، و جدنا حجرا أخر، أصغر من الحجر الأول يدعى " أبلاظ أبغريب " أي حجر الغريب، تصعد النساء عليه و تنادي زوجها أو إبنها الغريب (أنظر الصورة رقم (12))، قديما كانت تؤدي طقوس النداء بواسطة "التهجيجة " و هو طقس تقوم به المرأة لتنادي زوجها الغائب عنها و الإسم يدل على تهييج الزوج على زوجته، هذا الطقس تعيده الزوجة ثلاث مرات أو سبع مرات، بحيث تجمع أعمدة الرمان تعقدها بقميص زوجها الغائب ، تصعد على الصخرة المقدسة تتجرّد من ثيابها ، يكون النداء في وقت معين ، تبدأ بعد العشاءأو قبل الفجر، تنتهي من أداء الطقس بعد ظهر اليوم الثاني، أي ثلاث مرات .
تأخذ حزمة الرمان تلفهاعلى كل جسدها و تقول :

" شبلغك أوين يوران ذي الراس — بمعنى :أهيجك يا من كتب لي
أدياس غوري أما يسع أما يفلس " — تأتي إلي إن كنت غنيا أم مفلسا .

الصورة رقم (11)

" أبلاظ نطويڤان "، حجر ذو فتحتين، أو نافذتين بقرية " إمسونن "

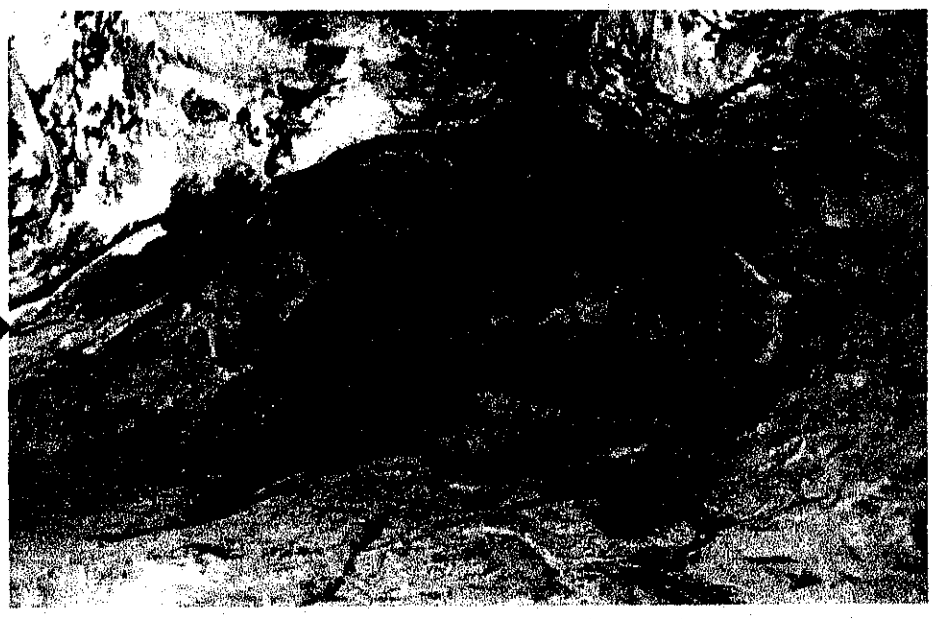

الصورة رقم (12)

" أبلاظ أيغريب "، بقرية " إمسونن "، حجر الغروب.

هذه العبارات ترددها بعد العشاء و قبل طلوع الفجر ، و في زوال اليوم الثاني ،عندما يشتد الحر، تخرج لتكمل طقس " التهجيجة " فتقول :

" شبلغك ذقزال	بمعنى :	هيجتك في الحر الشديد (بعد الظهر)
لمحبك غوري أدتزال		حبك يسرع إلي
أم العنصر ذ قذرار "		كالعنصر في الجبل

عندما تنتهي، تضع حزمة الرمان فوق غصن شجرة عالية، كي يهتز قلب الزوج كما تهز الرياح أغصان الشجر و تقول :

" سرسغك سفوس أيفوس	بمعنى :	وضعتك باليد اليمنى
لمحبك غوري أتدوير		حبك يقبل إلي
أمسفن إملالن إلبحور		كما تلتقي الأنهار في البحار

تبقى الحزمة فوق الشجرة حتى يأتي الزوج. ثم تنزعها، تحرق الأعمدة، تأخذها بعدما تحولت إلى غبار تمزجها بالصابون و العسل و قطرات من ماء الورد و الياسمين و قليل من السكر، تمزج كل هذه المواد، تصنع بها صابونة، تغسل بها فترة وجود زوجها في البيت حتى يطول حبه لها و لا يهجرها.

هذا الطقس لم يعد له أثر في منطقة القبائل رغم نجاعته كما تؤكد بعض النساء اللواتي قمن بالتجربة، لخطورته و صعوبته لأن من شروط نجاحه، تجرد المرأة من ثيابها. هذا يجعل الطقس مستحيلا في أيامنا هذه. و ما تبقى منه، هو صعود المرأة فوق الصخرة منادية لزوجها بأعلى صوتها، تعتقد أنه يسمعها، حتى هذا النداء أصبح اليوم نادرا إلا في بعض الأماكن. كما رأيناه في قرية " إمسونن " (أنظر الصورة رقم (12)).

دائما في هذه القرية، بالتحديد قرب مقام " سيدي أمحند أمغزي " توجد صخرة كبيرة تقف عليها الفتيات المقبلات على الزواج، بحيث تتجه الفتاة إلى القرية أو الجهة التي يسكن فيها من ترغب الزواج به، تغمض عينيها و تنوي في قلبها الزواج بالشخص الذي تريده، فإن كانت رغبتها مستجابة تظل واقفة متجهة إلى الناحية التي ستتزوج إليها، أما إذا لم تتحقق حاجتها، فتحركها قوة بطريقة لا شعورية نحو الجهة التي ستتزوج إليها، فإن كانت القرية أو المدينة التي ستتزوج إليها توجد في منطقة جبلية و هي واقفة باتجاه البحر تتحرك بقوة لا إرادية صوب الجبل، و قد أخبرتنا " جميلة " أن أختها وقفت على الصخرة باتجاه قرية الرجل الذي خطبها و لم تتحرك، بالفعل تزوجت إلى تلك القرية، اليوم جاءت بدورها لتؤدي نفس الطقس و لم تتحرك، هذا يدل أنها تتزوج إلى ناحية قريبة من البحر (أنظر الصورة رقم (13)). بينما فتيات أخريات أكدت لنا أن قوة ما تدفعهن و تغير وجهتهن، يعتقدن أنه حارس المكان.

هناك بعض الأماكن التي تعتبر مقدسة عند القبائل، لم تعد تمارس فيها الطقوس، لكن السكان يحترمونها و يقدسونها و يروون حكايات عن مرور الأولياء و التقائهم و تشاورهم، ذلك ما نلاحظه في المكان الذي يسمى " إرواحن " بقرية " تيمليلين " هذه التسمية تعني الأرواح، فيه يلتقي حراس كل المنطقة (أنظر الصورة رقم (14)) منذ عهد قريب، كان أجدادنا، يقرأون الفاتحة في ذلك المكان، من دخل القرية ووصل إلى " إرواحن " نزل من دابته و واصل طريقه راجلا، إحتراما لأرواح الحراس، إن مرّ أجنبي عن القرية، يجب أن يتصدق بمبلغ من المال، يتركه في مقام " سيدي علي أوصالح ". حاليا زالت هذه العادات و لم يبق في المكان سوى صخرة صغيرة كانت الأرواح تشعل فيها الشموع، تقدس و لكن لا تمارس فيها الطقوس (أنظر الصورة رقم (15) .

الصورة رقم (12)

" أبلاط أبغريب "، بقرية " إمسوذن "، حجر الغريب.

الصورة رقم (13)

صخرة في " إمسوذن "، تقف عليها الفتيات المقبلات على الزواج.

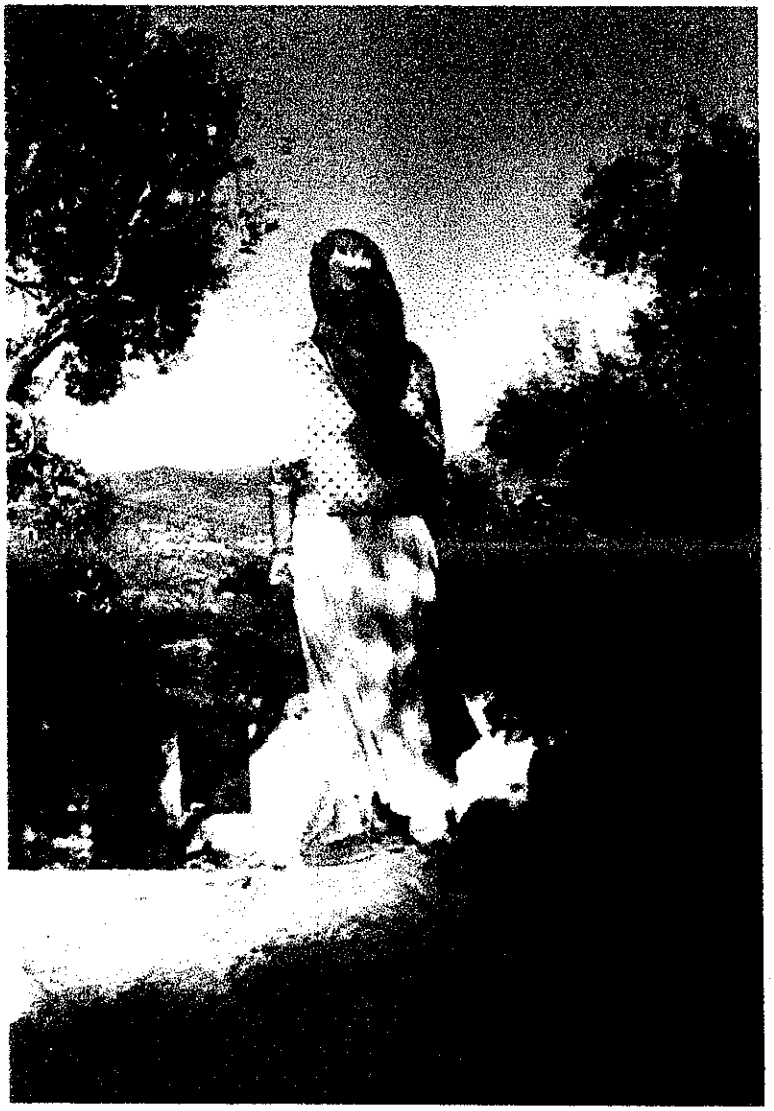

الصورة رقم (14)

" إرواحن "، مكان يلتقي فيه الحراس و كل أرواح المنطقة.

الصورة رقم (15)

صخرة مقدسة "بـإرواحن " بقريـة " إمسوتن ".

بالإضافة إلى الأحجار المقدسة التي تسكنها أرواح خفية، يوجد نوع آخر من الأحجار تسمى أحجار القسم، تعتبر مقدسة، لأن أحد الأولياء يكون قد جلبها من مكة المكرمة و تستعمل للحلف و اليمين. فمن أقسم بها أو عليها و كان إفتراء أصابته لعنة أو سوء، تحاط عادة بنوع من الرقابة و الرعاية، قد نجدها في الجوامع أو المقامات أو في الطبيعة.

من النوع الأول ، نجد صخرة تسمى " ثبلاط ثزقزاوث " الصخرة الزرقاء، لم نتمكن من رؤيتها لأنها محفوظة داخل صندوق من الخشب، توجد في مقام " سيدي أبو بكر " بقرية الشرفة، على بعد ثلاث كيلومترات من مدينة تيقزيرت، لذلك لم نعرف حقيقة لون هذه الصخرة، يقسم عليها الناس و لا يزال سكان المنطقة يحلفون بها. يقال، أن " سيدي السعيد أوعمار " والد " سيدي بوبكر " هو الذي أحضرها من مكة المكرمة. في قرية قريبة من " الشرفة " تسمى " تيفرة " من " إفر " بمعنى : إختبئ، توجد بها صخرتين مقدستين، تستعملان للقسم. الأولى تسمى " ثامزلوث " أي المصلية، الثانية " بوعبادة " أي : العابدة. أما في قرية " ماكودة " على بعد عشرين كيلومتر من " تيزي وزو " نجد صخرة ضخمة جدا للقسم تدعى: " لالا تيمزقيدا " في منطقة تسمى: " أقني الخميس"، حسب الأسطورة الشعبية، هذه الصخرة هي في الأصل زوجة الولي؛ " سيدي علي مبارك " إنه ولي هذه المنطقة. كما يوجد حجر معروف في نواحي جرجرة يسمى: " أزرو أنطهر " حجر الظهر، نسبة إلى صلاة الظهر، يقسم و يحلف به أهل المنطقة.

فمنطقة القبائل، غنية و ثرية بالأماكن المقدسة، يستحيل حصرها في هذا المقام، يمكن أن نضيف إلى الأماكن المذكورة التي تناولناها بالبحث و الدراسة، الكهوف التي إستوقفتنا و أثارت إنتباهنا و فضولنا، إستغربنا لشكلها الطبيعي، أكثر من ذلك، شعرنا بوجود قوة سحرية كانت تعمر المكان و ربما لازالت. هذا الشعور لم يصادفنا من قبل في بحثنا عن الأشجار و الأحجار المقدسة، لكننا تأملنا هذه الكهوف و سلّمنا بتأثيرها على الإنسان، فإنك حينما تدخلها، يعتريك خشوع و هيبة يملأ كل المكان.

3- الكهـــــوف :

تختلف الكهوف عن الأحجار لسببين : الأول، لا توجد بها أو بقربها مقابر أو مقامات، والثاني، لا تسكنها أرواح الحراس كما شاهدناه بالنسبة للأشجار و الأحجار، إنما تعمرها أرواح أخرى غير مرئية، إنها أرواح الجن الذين أسلموا لربهم، و كانوا تقاة، صالحين. فالنساء لا ينتظرن حماية و رضاء الولي أو الجد الأول للقرية، إنما يزرن المكان و يتوجهن إلى الجن الخيرين، يتوسلن إليهم طلبا للزواج و الإنجاب أو لعودة غريب. فالطقوس واحدة بالنسبة للشجرة و الحجر و الكهف، المهم، هو أن هذه الأماكن مقدسة، بمثابة باب مفتوح للزائرات يربطهن بعالم آخر و يكون همزة وصل بين عالم الأحياء و عالم الأموات.

يبدو شكل الكهف من الخارج مثيرا جدا، عادة ما يشمل على أبواب، كالحجر الذي رأيناه سابقا يحمل فتحات أو نوافذ. أما الكهف فله أبواب مثل الكهف الذي زرناه بقرية " الشرفة " بتقزيرت يسمى: " إفري بوثبورا " أي كهف ذو أبواب (أنظر الصورة رقم (16)). مدخل الكهف عبارة عن رواق، تدخله المرأة التي تريد الإنجاب، تحاول المرور من الرواق الضيق لتصل إلى أعلى الكهف، تخرج من الفتحة التي تظهر على الصورة (رقم (17))، إذ لم تستطع المرور من الرواق إلى الأعلى، لأنه يضيق عليها، في هذه الحالة، يكون فألا حسنا، تزغرد النساء في الخارج، تتمكن المرأة من المرور، هذا يدل أنها ستحمل قريبا. أما بالنسبة للفتاة التي قصدت المكان لغرض الزواج، تترك عادة فتيلة من حزامها داخل الكهف، تدخل من الفتحة الأول و تنوي الزواج ثم تخرج من الفتحة الثانية، هكذا سبع مرات. إذا شعرت أنها تمر بصعوبة في الفتحات المستديرة، ذلك يعني أن زواجها لن يطيل. (أنظر الصورة رقم (18،19)).

الصورة رقم (16)

" إفري بوثبورا " بقرية " الشرفة " مدخل الكهف.

الصورة رقم (17)

الفتحة أو الباب الذي تخرج منه المرأة بعد عبورها رواق " إفري بوثبورا "

الصورة رقم (18)

الفتحات التي تمر فيها الفتاة بغية الزواج في كهف " إفري بوثبورا "، المظهر الداخلي.

الصورة رقم (19)

المظهر الخارجي لكهف "إفري بوثبورا " بالشرفة.

فيما يخص دائما الطقوس التي توظفها المرأة بغية الإنجاب، تمر في هذا الكهف من الفتحة الأولى لتدخل في الفتحة الثانيةو هكذا سبع مرات، ثم تقلب حجرة داخل الكهف فإن وجدت تحتها نملة مثلا، ستلد بنتا، أما إذا عثرت على صرصور يكون مولودها ذكرا، قبل أن تغادر الكهف و من يحرسه، تشعل شمعة في الجدار، كي يكون مولودها مشعا بالنور كالشمعة. صادفنا في زيارتنا للمكان نساء جئن للزيارة، أشعلن الشموع داخل الكهف، تبدو آثار النار واضحة في ثقب الجدران (أنظر الصورة رقم (20)). تزور النساء أيضا هذا الكهف، لتؤدي فيه طقوس النداء للغريب و قد أكدت لنا السيدة " فاطمة " أنها نادت زوجها الذي غاب عنها مدة ثمانية سنوات، لم يمض أسبوع على النداء، حتى عاد زوجها، مخبرا إياها أنه سمع صوتها يناديه، لم يشعر كيف قرر الرجوع. قالت لنا الزوجة، أنها صعدت إلى أعلى الكهف، في يساره توجد فتحة ثالثة تخصص فقط لطقس النداء (أنظر الصورة رقم (21)) أخرجت رأسها من الفتحة و نادته قائلة " ثباقثيك أثهق، أكسوميك إهق، ثغنجوثيك أثهاق " أي صحن طعامك حضرته، حصتك من اللحم حضرتها، و ملعقتك حضرتها.

لا نستطيع أن نبرهن على حقيقةو نجاعة هذا الطقس السحري، فنحن نأخذ بأقوال الزائرين لهذا المكان، هن مقتنعات بفعالية الطقس، ما نستطيع ملاحظته و إستخلاصه من خلال هذه الطقوس التي تؤديها المرأة لغرض الزواج أو الإنجاب أو لعودة الغائب، و بالتحديد، ما لاحظناه في كهف " إيفري بوثبورا " هو تكامل بعض الثنائيات التي تجسدت في هذا الكهف المشحون بالقداسة و هي ثنائية : الخارج و الداخل، بحيث المرأة تدخل من خارج الفتحة لتدخل من فتحة الداخل و تخرج مرة أخرى، تفعل ذلك سبع مرات، عندما تصل إلى نهاية الطقس، أي في المرة السابعة تخرج من فتحة الداخل إلى فتحة الخارج. فداخل الكهف يوجد الظلام و في خارجه يكمن النور. هذا يحيلنا إلى فهم طقس العبور الذي تنتقل منه المرأة من العقم الذي يرمز إليه ظلام الكهف إلى الإنجاب الذي يرمز إليه النور خارج الكهف. كما تتجلى ثنائية الهدوء و الثبات داخل الكهف ترمز إلى الموت، و ثنائية الحركة و الصخب ترمز إلى الحياة. لا يفوتنا أن نشير إلى ثنائية أخرى ملموسة في هذا الكهف، ألا و هي : تكامل الحجر مع الماء. فكل المنطقة التي يتواجد بها الكهف تسمى " السور أبعوين " أي سور العين، رغم أن الماء لا يظهر وجوده في تلك الناحية، و إنما يوجد على مقربة من الكهف مقام " سيدي منصور" يقال أنه غريب، كل غريب عن المنطقة يدفن في هذا المقام، عندما يشتد المطر و يهطل بغزارة فيكون نقمة على الزرع، يتجه سكان قرية " الشرفة " إلى المقام يسدون الثغرة التي توجد بسقفه، فيكف المطر عن النزول. لعل تسمية هذه الناحية بسور العين يعود إلى هذه الأسطورة. بينما في مقام " لالا التلاثاء " وجدنا مغارة، كانت حارسة هذا المكان تعبد فيها الله، و تضرب أعداءها من داخلها، تزورها النساء بغية الزواج و الإنجاب، تشعل فيها الشموع (أنظر الصورة رقم(22 ،23))، بقرب هذه المغارة، عين للماء، سنوضح طبيعة الطقوس التي توظفها المرأة فيما يتعلق بمنابع المياه المقدسة.

الصورة رقم (20)

آثار الحرق التي سببتها الشموع على جدران كهف " إفري بوثبورا ".

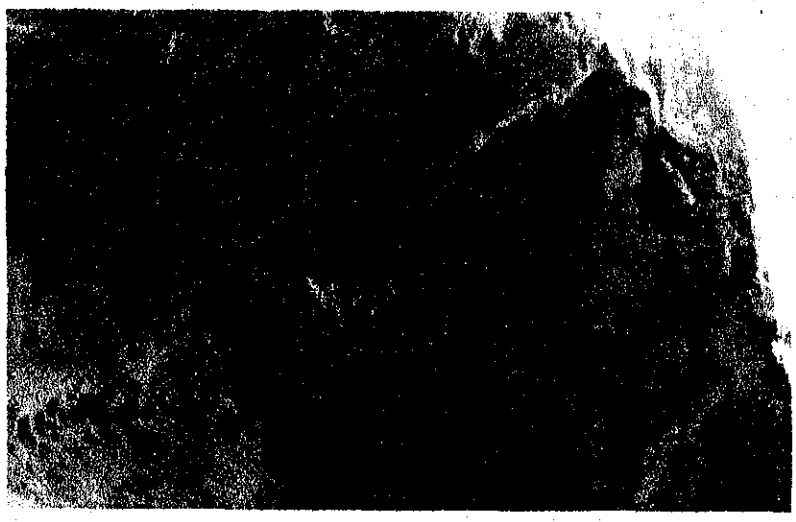

الصورة رقم (21)

فتحة على يسار كهف " إفري بوثبورا "، تخصص لطقس الفداء.

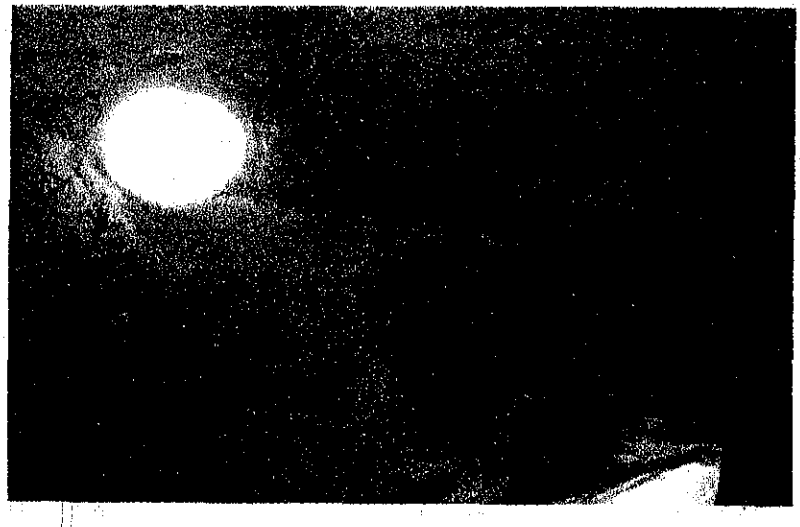

الصورة رقم (22)

مدخل مغارة " لالا الثلاثاء "

الصورة رقم (23)

داخل مغارة " لالا الثلاثاء "، أشعلت الزائرات الشموع في المكان الذي تجلس عليه الولية.

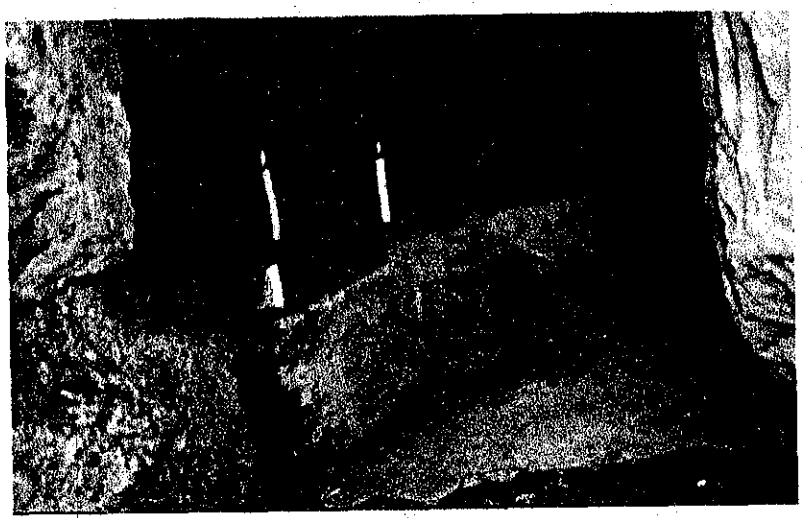

4 – المنابع :

الماء هو الحياة، الماء يروي الأرض العقيمة، فيجعلها خصبة، ثرية، لكن ما يجعل المنابع – التي نخصها بالدراسة – تحمل قدرة خارقة في الإستشفاء هي الأرض التي نبعت من أعماقها، هذه الأرض التي تعتبر مقدسة بفضل الولي الذي يعيش فيها، فيعطي للماء قوة سحرية، تشفي الأمراض و تبطل مفعول السحر.

من المنابع المقدسة التي قمنا بزيارتها، منبع " لالا الثلاثاء "، يعتقد أن الولية تسكن فيها فتعطي الخصوبة و تطهر من الحسد و العين، إنها عين تقع قرب شجرة البلوط، يقال أنها مقدسة أيضا، و تحيط بالعين أعشاب برية، توحي للزائر بتوغلها في القدم (أنظر الصورة رقم (24))، وجدنا قطع نقدية، خواتم و أساور من الفضة، ألقت بها في المنبع، إنه تعبير الزائرة عن ولائها للولية، فهذه القطع تحمل قيمة جوهرية تعكس إخلاص المرأة ووفائها للمكان المقدس، في المقابل، تنتظر و تأمل في إستجابة الولية لحملها و تحقيق طلبها. الفتيات الراغبات في الزواج، يعدن إلى بيوتهن محمّلات بليترات من الماء، يغتسلن به و يتطهرن من العين و الحسد. يشعلن البخور بالجاوي، الخزامى و قطرات من الماء المقدس، يفعلن ذلك كل يوم إثنين و خميس بعد أدانهن لطقس التطهير (1). تداوم على ذلك سبع مرات. فحارس المنبع يعطيها الحماية، الحظ، السعادة و هي تعطيه النقود و الفضة، إنه عطاء متبادل بين عالم الأحياء و عالم الأموات.

شاهدنا أيضا نفس الطقوس توظفها النساء للزواج أو الإنجاب، لكننا لم نجد قطع نقدية إنه منبع ماء يوجد قرب قبة الولي الصالح " سيدي القرشي " حارس البحر، كما يسميه أهل منطقة " أزفون " (أنظر الصورة رقم (25)). أخبرنا " الوكيل "، هو الإسم الذي يطلق على حارس القبة، أن " سيدي القرشي " غرس عكازته في الأرض، فتدفق الماء و أصبح هذا المنبع إلى يومنا تزوره النساء للإستشفاء، بينما وجدنا مجموعة من الشبان يستحمون فيه بعد رجوعهم من البحر، ينظرون إلى ممارسات و طقوس النساء على أنها خرافات لا تزال عالقة في الأذهان المتحجرة، بينما سألنا شاب آخر، عرفنا أنه أحد أحفاد " سيدي القرشي " عن مدى إعتقاده في فعالية هذا المنبع فأجاب أنه لا يقوم بالطقوس السحرية و لا يتبرك بهذا الماء، لكنه يحترم المكان لأنه وجد أجداده يقدسونه، فلا يجرؤ مخالفتهم.

أما النساء اللائي وجدناهن بالمكان و إقتسمنا معهن الخبز و الحليب داخل الضريح، يؤمنن إيمانا راسخا بفعالية الماء و صلاحيته لكل ما ينويه الإنسان، فإن كانت نيتك في الشفاء، ستشفى و هكذا، المهم هي النية، إنعدامها يعني إبطال المفعول السحري للماء. كانت زيارتنا يوم خميس، أطلقت النساء رائحة البخور في القبة، أشعلن الشموع، و بينما كنا نقوم بتصوير المكان، منعتنا النساء، أي الزائرات من تصوير القبة من الداخل، هذا إحتراما لروح الولي الطاهرة التي تحوم حول الضريح و التابوت، فمن تجرّأ و صوّره، ألحقه بضرر أو سوء.

طلبت منا زوجة " الوكيل " أن نترك مبلغا من المال "وعدة " داخل المقام كي يحقق لنا الولي ما نصبو إليه، دخلنا المنبع لنملأ زجاجة من الماء المقدس كي لا نثير الشكوك و نبدو كسائر الزائرات (أنظر الصورة رقم (26-27)).

---

(1) سنتناول لاحقا طقس التطهير الخاص بالزواج.

الصورة رقم (24)

عين مقدسة تقع جوار "جامع الملائكة" بـ" لالا الثلاثاء".

الصورة رقم (25)

قبة الولي الصالح " سيدي القرشي " حارس البحر " بأزفون ".

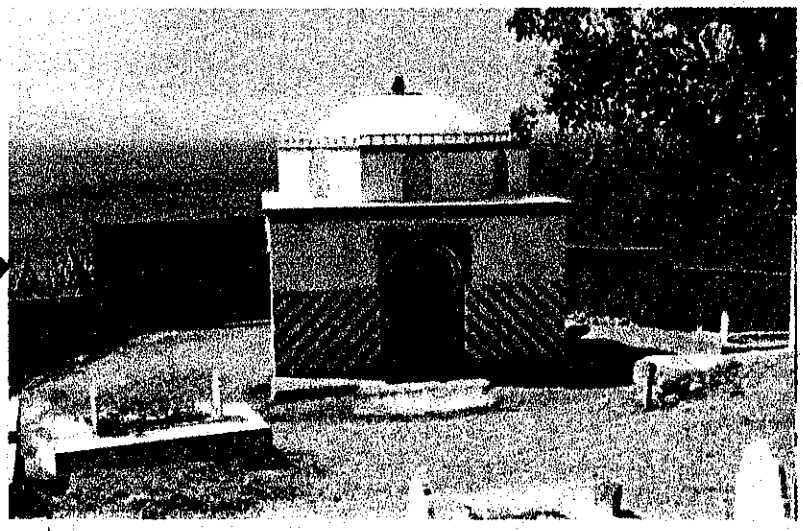

الصورة رقم (26)

منبع ماء مقدسة بضريح " سيدي القرشي "، المظهر الخارجي.

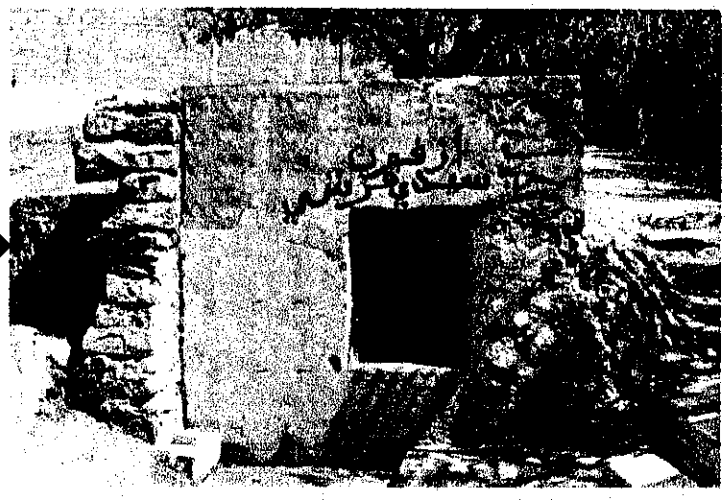

الصورة رقم (27)

منبع الماء "بسيدي القرشي" من الداخل.

في خلال زيارتنا للمنابع المقدسة في منطقة القبائل، صادفنا نوع آخر من المنابع هي التي إلتهمت إنسانا، أي غرق فيها شخص. هذا الصنف من المنابع تستعمله النساء قديما للإستشفاء من أمراض عديدة كالجنون، العصاب، بعض الحساسيات، مرض العيون و الجرب. مثل المنبع المسمى " أقلميم السلامة " بمعنى غدير السلامة (أنظر الصورة رقم (28)) الغدير تغطيه أعشاب طويلة، أخبرنا سكان قرية " إمسونن " أن هذا الغدير غرقت فيه عروس و كل من رافقها، تداوى بمائه أمراض الأطفال، خاصة الجرب، و تستعمل الفتيات ماءه للزواج، تغتسل به و ترمي في الغدير ثيابا لها، قديما كانت نساء قرية " أبيزار " بضواحي " عزازقة " بمنطقة " تيزي وزو"، يلجأن إلى عين تسمى: " ثلا إوط " أي عين الدود، يقال أن طفل غرق فيها، عندما يمرض أبناءهن و لم يجدن سبب علته، تدخله أمه في العين ثلاث مرات و تقول مخاطبة العين :

" أثلا يشان الروح ذوثيد نغ أويث " أي : أيتها العين التي أكلت الروح، إشفيه أو خذيه إليك. هذه الممارسات زالت و لم تعد تمارس في مناطقنا، لتطور الطب و تفتح العقليات.

وجدنا أيضا صنف ثالث للمنابع التي تحمل سيمات القداسة، هي التي تحتوي على عناصر الملح و قد ذقنا طعم مائها فوجدناه مالحا، لا يصلح للشرب. من بين هذه المنابع عثرنا على " ثلا ملاحة " عين ملاحة على بعد ميترات من مقام " سيدي خالد البحري "، بتيقزيرت، ماؤها مالح جدا. تستعمله الفتيات في طقس التطهير بهدف جلب الحظ، و النساء بغية الإنجاب، الملح في المعتقد الشعبي يعتبر عنصرا هاما، يحافظ و يقي من قوى الشر و الحسد. و الجن تكره الملح، لذا تبتعد " التابعة " عن المرأة الحامل بمجرد أن توظف هذا الماء في طقوس سحرية وقائية. توجد عين أخرى مالحة تسمى دائما " ثلا ملاحة " بقرية " ثامدغث " بين قرية " جبلة " و " واقنون "، توظف فيها نفس الطقوس المذكورة، بحيث تقصدها النساء يومي السبت و الثلاثاء سبع مرات وتذهب دائما في الأيام العشر الأوائل من الشهر القمري، تتجنب الأيام الأخيرة من الشهر، لأنها خاصة للشر و السحر.

الصورة رقم (28)

" أقليم السلامة " غدير السلامة
بقرية " إمسونن "

ملخص الفصل:

هكذا يبدو إرتباط المرأة الريفية بالمقدس وتظهر صورة الحراس والأولياء معششة في ذهن المرأة القبائلية، فتتصل بهم وتتواصل معهم عن طريق الأضاحي والطقوس، ليتكرس العطاء المستمر بين عالمين مختلفين في الطبيعة، لكنهما يلتقيان من خلال الطقس، فيحدث خطاب سحري بين المرأة والشجرة بين المرأة والحجر. بين المرأة والمنبع، فتمتزج الطبيعة بالثقافة. يظهر حراس منطقة القبائل في صورة مسالمة، يتعايشون مع الأحياء، يقاسمونهم أرضهم وأكلهم وبيوتهم، مادام حارس البيت القبائلي يتمثل في أعمدة المنزل، و يتشكل أحيانا في صورة رجل أسود أو في هيئة قط أو ثعبان.
لذلك عندما يدخل القبائلي منزلا جديدا، عليه أن يذبح قربانا لحارس البيت، وإلا سيغضب عليه، يجب أن يسيل الدم لتبتعد الأرواح الشريرة علي أصحاب البيت، إنها تضحية للأموات ورموز لتجديد الحماية من العالم المخفي.

الفصل الرابع : أهمية المقدس السحري في حياة المرأة الريفية.

- **تمهيد.**

المبحث الأول :

I المقدس و المدنس

1.تعريف المقدس

2.الطقوس وسيلة للتقرب إلى المقدس

II العملية السحرية و أركانها

1.تعريف السحر

2.القوة السحرية

أ – عامل الزمن

ب– المواد المقوية للعملية السحرية

جـ– الخروج عن المألوف

المبحث الثاني

I الساحرة و طرقها

1.ثادرويشث (الدرويشة)

2.ثامرابطث (المرابطة)

3.ثاسحارث (الساحرة)

4.ثامكشفث (العرافة)

5.ثاقزانت (القزانة)

6.القابلة

II فعالية المرأة في توظيف السحر

1.السحر بدافع الزواج

2.السحر لاستمرار العلاقة الزوجية

3.السحر وسيلة للإنجاب

- **ملخص الفصل**

أهمية المقدس السحري في حياة المرأة الريفية.

تمهيد:

تتجلى بوضوح أهمية و مكانة المقدس السحري في حياة المرأة الريفية، إذ يقوم بتعديل وضعيتها الإجتماعية و يخفف من حدة الضغط الذي تعيشه يوميا. فعندما تتفاقم آلامها و معاناتها وتكبر الفجوة بينها و بين زوجها أو عائلته، تتقرب من المقدس بواسطة الطقوس، تلتحم معه لتشكل أقصى درجة من الحميمية المطلقة و الإندماج الروحي مع عالم غامض، مبهم، تستحوذ على فضائه، تنافس عن طريقه الرجل الذي لا يفهم سر القوة الكامنة فيه، يترك للمرأة الحرية في إحتكاره هذه الطاقة المشعة من المقدس. كلما شعرت المرأة الريفية بالضيق، هرعت إلى المقدس تلتمس منه العون و الشفاء، تقدم له الأضاحي تبركا به و إستلطافا له.

I- المقدس و المدنس :

يوجد دائما عالمين مختلفين عن بعضهما البعض، عالم المقدس و عالم المدنس. في العالم الأول، الأشياء تخرج عن المألوف، تنزاح عن مجموعة الأنظمة الطبيعية التي عهدها الإنسان. بينما عالم المدنس هو العالم العادي، الطبيعي الذي تكون فيه الأشياء بسيطة، مألوفة و ملموسة " هذين النوعين، كما كتب " دوركايم "، إذا إلتقيا و تقاربا لا يمكن أن يحافظ كل واحد منهما على طبيعته الخاصة " .(1) بحيث تتحول الأشياء من طبيعتها العادية إلى أشياء ما فوق الطبيعة، فالحجرة أو الشجرة شيء مدنس في طبيعتهما الأولى، لكن عندما تدخلهما روح الولي مثلا، تصبح هذه الشجرة أو الحجرة العادية مقدسة بسبب الروح التي تسكنها. فكل شيء في هذه الحياة يمكن للإنسان أن يضفي عليه قوة و طاقة ميتافيزيقية، فتصبح المادة الجامدة تتحرك، تبعث فيها الحياة و تتحول من مادة مدنسة، طبيعية، محسوسة، في متناول الإنسان، إلى مادة مقدسة، غير طبيعية و مجردة، لا يتجرأ الإنسان أن يقترب منها فتصبح محرمة. نحن نعلم جميعا، أن كل شيء مهما كانت بساطته و تداوله بين الناس، إذا قمنا بإخفائه و منعه، أصبح في نظرهم جذابا و مثيرا للذة و المتعة، كما يقول " إنشتاين " : " أجمل شيء يمكن لنا أن نشعر به هو الجانب المبهم من الحياة " (2) كل ما هو في متناولنا و بحوزتنا لا يثير إهتمامنالمعرفتنا له و لأسراره، هو مدنس بالنسبة لنا، لا يحمل ما يثيرنا و يبهرنا، لكن إذا أضفنا طاقة ما على هذا الشيء، أو شعرنا بوجود قوة تمنعنا من الإقتراب منه، أو إذا كان يشكل لغزا غامضا لنا، لم نتوصل إلى كشف حقيقته و جوهره لوجود حاجز بيننا و بينه يمنعنا في الوصول إليه و الإلتحام معه، يتحول ساعتها إلى شيء مقدس.

يحتاج الإنسان دائما إلى قوة و طاقة سحرية تدفعه للخروج أحيانا من عالمه الطبيعي، العادي إلى عالم آخر غير عادي، ينزاح فيه عن المألوف و عن كل ما هو محسوس، كما يقول " MIRCEA ELIADE " : " الإنسان إذا كان منطقيا بحتا فهو تجريد لا يلتق أبدا في الواقع فكل إنسان مركب – في نفس الوقت – من نشاطه الشعوري و تجاربه اللا منطقية " (3). كل تغيير في أنظمة الواقع و انحراف عن قوانين الطبيعة و خروج الإنسان عن النسق الإجتماعي المعهود، يشكل له وضعية مضطربة لأنه يفقد في هذا النسق الجديد إرتباطه بالنظام الطبيعي الذي يشعر فيه بالأمان و الإطمئنان، يدخل في عالم آخر من القيم يفلت فيه عن الأنظمة التي يعرفها الإنسان، بالتالي، يجعل حاجزا بينه و بين النسق الجديد و يخلق التابو " كوسيلة إحتياط يوظفها ليمنع روحه من الإنفلات و الإلتحام مع أرواح مثيرة و شخصيات متسلطة أو حيوانات أو نباتات ... " (4)

(1) CALLOIS Roger, **L'homme et le sacré**, Edition Gallimard, France, 1950, P, 20
(2) BESSY Maurice, **Bilan de la Magie**, Edition Albin Michel, PARIS, 1964, P, 230
(3) MIRCEA Eliade; **Le Sacré et le profane**, Edition Gallimad, PARIS, 1965, P, 177
(4) MAUSS Marcel, **Les Fonctions Sociales du sacré**, Edition de minuit, PARIS, 1968, P, 156

أحيانا، يرغب الإنسان في الإندماج بكل ما هو غير مألوف لهدف يسعى إليه لا يصله إلا بالإستعانة بقوة خارقة للعادة، يتخذ في ذلك الطقوس وسيلة للتقرب من المقدس يزيح بها الممنوع و يسترجع إطمئنانه و توازنه كلما حقق غايته. هكذا، يبدو لنا عالم المدنس عاديا، في متناول الناس، لا يتطلب إحتياطات وقائية للخوض فيه، يترك الإنسان يمارس نشاطاته بحرية و بدون تهديد أو خوف، إنه في قبضة الإنسان يتحكم فيه و يسيطر عليه، بينما المقدس يظهر في شكل يخيف الإنسان، في الوقت نفسه يجلبه إليه، يثير إهتمامه، يتوسل إليه كي يحقق فيه قوته و سعادته. فالمقدس كالنار بالنسبة للطفل الصغير، تثير فيه المتعة و إن لمسها أحرقته. ما نخلص إليه إذن، هو أن المقدس يعارض المدنس، لكي نفهم أكثر حقيقة المقدس، نحاول الكشف عن مجموعة من التعريفات التي قدمت من طرف الباحثين في الإثنولوجيا و علم الإجتماع. محاولين حصر مفهوم المقدس و إعطاء تعريف مقنع وشامل، لكننا نجد أنفسنا أمام تعريفات عامة لا تحصر طبيعة المقدس و كيفية تعارضه مع المدنس.

1- تعريف المقدس :

كما أشرنا إليه سلفا، إتفق الباحثين على أن المقدس يعارض المدنس، لكنهم لم يصلوا إلى إعطاء تعريف دقيق، ثابت، هذا راجع إلى طبيعته المعقدة و في هذا الشأن يقول : " CALLOIS (R) " : " المقدس يعارض المدنس، كلما حاولنا تحديد طبيعته و خصوصيته هذا التعارض، يصطدم بعراقيل عديدة " (1) فكل محاولة لفهم و تحليل طبيعة هذه الطاقة و القوة التي تنبع من المقدس أو حتى البحث في أصوله، ذلك يجعلنا نتوه في مشاكل ميتافيزيقية. لهذا السبب إرتأى السوسيولوجيون و الإثنولوجيون في الإكتفاء بوصفه، معتمدين في ذلك عن مظهره الخارجي و تأثيراته العميقة على مواقف الأفراد و التي تتجلى بوضوح في معتقداتهم. فالمقدس : " هي هذه القوة المبهمة و اللاشخصية، الخيرة و المريبة التي هي أصل كل قدرة، كل سعادة و كل مصيبة، من جهة أخرى، إنها وضعية فيها، يتواجد الأشخاص و المواد في إقصاء من العالم المدنس " .(2)

إن المقدس قوة غامضة، تخرج من قبضة الإنسان و من إرادته، قد تجلب له الخير و النعمة بشرط أن يقدم لها الأضاحي و القرابين إرضاء لها، من جهة أخرى خوفا من نقمتها عليه و غضبها، هذا دليل على المكانة الهامة التي يحتلها المقدس في حياة الإنسان، مادامت قوته و طاقته هي مصدر السعادة و الشفاء، قد تتحول نعمتها إلى نقمة، و نظامها إلى فوضى ما دام المقدس يحمل وجهين متناقضين، الأول : إيجابي و الثاني، سلبي. هذه الفكرة يدعمها " RENE GIRARD " الذي يترجم مفهوم " sacrer " " أو sacer باللاتينية أحيانا، بالمقدس و أحيانا أخرى باللعين، لأنه يحتوي على الشر و على الخير أيضا. نجد مفاهيم مماثلة في عدة لغات، كما هو الحال بالنسبة للمانا * عند المالزيين ... " .(3)

---

(1) CALLOIS, **l'homme et le sacré**, P, 11

(2) CHELHOD Joseph, **les structures du sacré chez les arabes**, Edition Maisonneuve et larose, PARIS, 1986, P, 35

* المانا : ترتبط بقوة تعتبر مادة للطقوس في ممارسات سحرية، تدل على أماكن، طقوس و مواد بحيث تكون للأفراد علاقة مع هذه القوى. أنظر: (Encyclopédie du monde actuel, charles-Henri Favrod, Anthropologie, 1977, P, 136)

(3) GIRARD René, **La Violance et le Sacré**, Edition Grasset, 1972, P, 356

فالمقدس هو كل ما يبهر الإنسان و يشعره بالإعجاب أو بالخوف، بالإرتياح أو بالإضطراب، أمام قوة تفلت عن طاقته و تخرج عن الطبيعة التي يعرفها و يتعايش معها. لدرجة أن هذه الطاقة السحرية و الغامضة يمكن أن تصبح عنيفة، تهدم و تسبب الألم، هذا ما يراه هذا الباحث، فلا يفرق بين المقدس و العنف، إذ يقول : " العنف أو المقدس، لعبة المقدس و العنف واحدة . التفكير الإثنولوجي يعترف – بلا شك – أن في المقدس يوجد كل ما يدل على مفهوم العنف. لكن يوجد أيضا في المقدس ... النظام و الفوضى، الهناء و الحرب، البناء و الهدم توجد... أشياء كثيرة متعارضة و متناقضة أدت بالمختصين ... أن ينسحبوا عن إعطاء تعريف بسيط نسبيا للمقدس". (1)

فهناك مجموعة من الممنوعات التي تبدو في وهلتها الأولى عنيفة و متحجرة، لكنها في جوهرها تحمل فائدة و قيمة دينية، إجتماعية، أخلاقية أو حتى إيكولوجية. إذا لاحضنا هذه الأشجار المقدسة التي تسكنها أرواح غير مرئية، بحيث يقدسها الفرد و لا يلمسها بسوء ، لدرجة أنه أحيانا لا يجرؤ أن يقطف ثمارها أو أغصانها هذا " التابو " أو الممنوع كما يفضل أن يسميه السوسيولوجيون سيما " دوركايم " خاصة عندما لا يتعلق الحديث عن المجتمعات البدائية. هذا الممنوع تتجلى قيمته في الحفاظ على التوازن الإيكولوجي، توجد مجموعة من الممنوعات التي تثبت النظام الإجتماعي و تكرس قوانين أخلاقية في المجتمع.

يحمل المقدس إذن وجهين. الوجه العنيف، السلبي و الوجه الجذاب، الإيجابي. لنوضح هذه الإزدواجية الظاهرة في المقدس نستعير فكرة" CLASTRES " حين يرى أن : " الثقافة دائما تعيد نفسها، تتشكل و تتثبت سواء في إحترام الأنظمة المؤسسة أو في إطار الطقوس التي تضمن السيطرة الرمزية لهذه الطاقة المهددة دائما " (2) إذن، توجد طاقة في المقدس تهدد الفرد، يسيطر عليها بواسطة الطقوس، يضفي للأشياء و المواد رمزية خاصة، يصنفها حسب القيمة الخيرة أو الشريرة التي تحملها هذه الأشياء، لعلها تتشكل من قيمة خيرة و شريرة في آن واحد، لذا تكون المادة الواحدة إيجابية و سلبية، هذا يعود أساسا إلى ثقافة المجتمع، فماهو إيجابي في مجتمع ما قد يكون سلبيا في مجتمعنا، ذلك لأسباب عديدة ، منها الدين، الإيديولوجية و إعتبارات أخرى كثيرة. لتوضيح هذه الفكرة أكثر، نأخذ عنصر الدم كمثال. الدم عموما إيجابي، فيه تكمن أيضا خاصية سلبية. نلاحظ، أن دم الختان مثلا يحمل قيمة جوهرية عند العبريين " إنها رمز قاطع لإرتباطهم الوثيق مع الله. " (3) فيصبح دم الختان مقدسا لأنه هبة البشر لله. كذلك بالنسبة للمسلمين يعتبر الختان أيضا دليلا على الإنتماء لهذا الدين " فالمسلم يطهر جسده و كذلك عقله، فيقوي بذلك إيمانه و يتقرب أكثر من الله " (4).

كذلك دم الشهداء يعتبر مقدسا، لأنه تضحية في سبيل الدين و الوطن. بينما الدم المراق في حوادث المرور مثلا، يحمل صفة سلبية، لأنه يتعفن و يشكل قشور على جسد الميت، كثيرا ما يستعمل الدم المراق عنفا في السحر الأسود، لذا يعتبر الدم فاسدا و غير صالح و متعفن و بالتالي يكون مدنسا. يمكن القول أن الدم هو في الوقت نفسه ما " يوسخ و ينظف، ما يطهر و يدنس، هو ما يدفع الرجل إلى الثورة و إلى الموت، هو كذلك ما يهدؤهم و يبعث فيهم الحياة ". (5) من خلال هذا المزيج من الصالح و الفاسد، الإيجابي و السلبي، يصل الإنسان أحيانا إلى غسل أكبر فساد و أبشع جريمة – في نظر المجتمع القبائلي – تطهير العار و إسترجاع الشرف بالدم و ذلك في مسألة الثأر أو جريمة الشرف.

---

(1) نفس المرجع السابق، ص 357، 358

(2) CLASTRES Piérre, **L'esprit des lois sauvages**, Edition du seuil, PARIS, 1987, P, 64

(3) TOUALBI Noureddine, **La circoncision, bléssure narcissique ou promotion sociale**, S.N.E.D. Alger, 1975, P, 29

(4) نفس المرجع، ص، 40

(5) GIRARD (R), **La Violence et le sacré**, P, 60

رغم أن فعل القتل يحمل قيمة أخلاقية، هي إسترجاع الشرف، إلا أنه عنف، لذا في نظرنا، لا يوجد فرق بين العنف الإيجابي أو العنف السلبي، فعل الجريمة، شيء مقرف، لا إنساني و يبقى في حد ذاته جريمة، لكن المجتمع يضفي على الفعل قيمة أخرى يراها سامية و يعللها بدافع ديني، أخلاقي أو إجتماعي، " فعندما يتجه الناس إلى فعل ما أو إلى نشاط، ما يظهر جليا ليس الأخطار التي يأخذها و إنما الخطر الذي يكون مضطرا لأخذه " (1) فالرجل القبائلي عندما يقتل إبنته أو أخته، فهو مضطر لإقتراف هذه الجريمة، إحتراما لتقاليد الجماعة.
يبدو هذا الفعل بالنسبة للمجتمع مقدسا، بالتالي، صفة القداسة، قيمة جوهرية يضفيها الإنسان على شيئ ما أو أداة أو شخص بحيث تسيّر حياته وتقنّن وجوده، في كل وقت يشعر فيه بالحرج، الضيق أو الخوف، يبحث عن ملجأ آمن يهرب إليه إنه المقدس الذي يحافظ دوما عليه، يرعاه و يستلطفه " يعود إليه عموما كلما إحتاج إلى وجود مقدس آني و سريع و قريب منه ".(2)

للوجه العنيف الذي يحمله المقدس أيضا، نجد الحديد كمعدن يحمل قيمة إجابية و خاصية سلبية، إنه يساعد الشعوب على الدفاع عن ممتلكاتها، ذلك بالأسلحة المتطورة و يدمر شعوبا أخرى، فهو سلاح فتاك ذو حدين، يدفع الإنسان أحيانا إلى التقدم و التطور و أحيانا أخرى يكون مصدر الصراعات و الثوارات بين الشعوب " فمن أجل الرخاء و الشقاء يبدو الحداد مصدر العنف، لذلك يعتبر مقدسا في تعدد المعنى الخاص بهذا المفهوم ". (3) يظهر الحداد في مجتمعاتنا الإسلامية، خاصة المجتمع القبائلي على أنه يقوم بعمل مقدس، بل و تضفي المعتقدات الشعبية قدرات و قوة خارقة للحديد لا توجد في المعادن الأخرى. ففي إعتقاد القبائل، الحديد معدن يحمل طاقة مقدسة، لأنه مصدر خوف القوى الشريرة، فالجن تهرب و تخاف من هذا المعدن، لذا نجده كمادة وقائية يضعه القبائل على موتاهم كي لا تقترب منهم الجن و عادة ما يضعون السكين لأنه يرمز إلى التضحية، فالقربان الذي يقدمه القبائلي لحراس و أولياء منطقته يذبح بالسكين، فيصبح إثر ذلك مقدسا، زيادة على كونه معدن حديدي يبعد الأرواح الشريرة. فالمعدن الذي يكون بالنسبة للإنسان مصدر الخير و الشقاء في آن واحد، كهذا السكين الذي يكون سلبيا، مدنسا إذا وظفه الإنسان لأهداف دنيئة كالقتل مثلا. قد يأخذ صفة إيجابية و قيمة مقدسة إذا وظف لغاية سامية كالذبيحة التي تقدم في " الوعدات " و " الزردات "، يصبح هذا السكين في حد ذاته مادة أو شيئا ممنوعا، يحاط بالعناية و الرقابة، ربما يستعمل لطقوس إيجابية، كطقوس طرد الأرواح الشريرة على الميت " فالممنوع يفرق، كما يقول دوركايم بين كل ما هو مقدس مع كل ماهو مدنس. " (4).

نخلص إلى أن المقدس الذي يلتمسه الإنسان هو ذلك الذي لا يشكل له خطرا في حياته، إنما يراه ملجأ يحتمي فيه و يتطهر من خلاله، بل يلتحم معه عن طريق الطقوس " فالمقدس يتعايش مع الحياة، يدخلها و يقتحمها دون أن يفرق بين الأشخاص و الأشياء التي يظهر من خلالها ". (5) هكذا، تتشكل حميمية مطلقة و علاقة عطاء مستمرة بين الإنسان و المقدس.

(1) GOFFMAN Erving, **Les Rites d'interaction**, traduction par ALAIN Kihm, Edition de minuit, PARIS, 1974, P, 225
(2) ISAMBERT Francois, **Religion Populaire**, Extrait des archives de sciences sociales des religions, 1977, P, 164
(3) GIRARD (R), **la Violance et le sacré**, P, 361
(4) DURIKEIM Emile, **les formes élementaires de la vie religieuse**, Edition Alcan, PARIS, 1937, P, 431
(5) CHELHOD, **les structures du sacré** ... P 58

2- الطقوس وسيلة للتقرب إلى المقدس :

قبل الخوض في الحديث عن دور الطقوس و علاقتهما بالمقدس، يجدر بنا أن نعرّف الطقس إستنادا إلى معجم علم الإجتماع " فالطقوس هي مجموعة حركات سلوكية متكررة يتفق عليها أبناء المجتمع و تكون على أنواع و أشكال مختلفة تتناسب و الغاية التي دفعت الفاعل الإجتماعي أو الجماعة للقيام بها ". (1) قد تكون الطقوس فعلا فرديا، يصدر من شخص ما بغية وصوله إلى هدف شخصي يرجوه، أو تكون فعلا جماعيا و حركات سلوكية مقننة. أي تخضع لقواعد معينة تستوجبها شروط نجاح الطقس التي تتطلب وقتا معينا، مكانا خاصا و كلاما رمزيا، أي تعديل أو تغيير في الزمن أو الوقت يبطل مفعول الطقس الذي يعتبر " نشاطا رمزيا أو دينيا يعطي للإنسان القدرة في توظيف قوى ما فوق الطبيعة للتأثير على مظاهر طبيعية " (2)، فالمجتمعات توظف الطقوس كلما أرادت الوصول إلى تحقيق حاجات إجتماعية تخرج عن نطاق قدرتها. فإن غضبت الطبيعة و عزّ المطر تلجأ إلى مقدساتها تتوسل إليها عن طريق الطقوس و تطلب منها أن تنزّل المطر. أما "MAUSS " فيقسم الطقوس إلى إيجابية و سلبية إذ يقول : " عدم العمل هو أيضا نشاط، كل فعل مجمد هو أيضا نشاط " ،(3) حسبه الطقوس الإيجابية تشكل دائما رباط بين عالم المقدس و عالم المدنس فكل ما يجعل مكانا ما، أداة أو شخصا مقدسا يعتبر إيجابي تندرج في إطارها كل طقوس التطهير، الأضاحي، النذور و القرابين. كلها تحمل وظيفة إيجابية، بينما كل ما يسمى "بالطابو" يعتبر ممنوعا يهدف إلى حماية الإنسان من عالم المقدس الذي يهدده، يسميه " MAUSS " بالطقوس السلبية، لذا يقول أن عدم الفعل أم عدم القيام بشيء ما بسبب مانع يعتبر في حد ذاته نشاطا.

بينما " CASENEUVE " يرى أن الطقوس الدينية و السحرية تقريبا كلها فعالة كالتي توظف لإنزال الغيث أو للشفاء من أمراض عدة كالصرع مثلا : " يجب القول بأن الطقس فعاليته (الواقعية أو المعتقدة) لا تذوب في التسلسل الإمبريقي للأسباب و الأحداث. إذا كان فعالا ليس بطرق طبيعية بحتة، من هنا يختلف عن الميدان التقني ". (4) يسطر إذن " CASENEUVE " عدد من التعقيدات التي تعتبر أساسية في فعالية الطقس، بحيث كل جزء، حركة وكلام رمزي، بالإضافة إلى الأدوات و المواد المكرسة لفعالية الطقس و حدوثه في وضعية و في زمن ووقت محدد، هذا البحث الدقيق في عناصر الطقس و أسباب نجاحه أو فشله لا يعود فقط إلى عوامل تقنية بحتة، إنما يتعلق نجاحه بثبات عملية الطقس، هذا ما يجعل منه مادة إثنوغرافية هامة.

---

(1) **معجم علم الإجتماع**، دينكن ميشال، ت، إحسان محمد الحسن، ط 2، دار الطليعة، بيروت، 1986، ص، 176

(2) Encyclopédie du monde actuel, Charles Henri Favrod, **Anthropologie** 1977, P, 178

(3) MAUSS Marcel, **Manuel d'éthonorgaphie**, présses universitaires de France, PARIS, 1939, P, 192

(4) CASENEUVE Jean , **Sociologie du Rite**, Présses Universitaires de France, PARIS, 1971, P, 16

كان لأجدادنا طقوس يراعونها قبل البدء بأي عمل، خاصة في الفلاحة، فقد كان هنالك وقت للبذر، ووقت للحصاد. قبل أداء هذا العمل يجب القيام بطقوس و بعد الإنتهاء منه أيضا، و كانوا يكتشفون الأوقات الملائمة للحرث و البذر بما لديهم من تجربة. هناك أشياء كثيرة يقبل عليها أسلافنا و يمارسونها تكون مرتبطة بالزمن، بالمكان أو بالحدود التي تفصل بين الأشياء، كانوا يحسون بالقوى الظاهرة و الخفية التي تحيط بهم. لذا يحتاطون لها خاصة عند قدوم الليل، تظهر عندهم بعض الممارسات المحظورة، فالقبائل مثلا لا يخرجون الطفل الرضيع بين صلاة العصر و المغرب، لأنه وقت تخرج فيه الجن. و إن إستلزم خروجه لأمر إضطراري، لا يتم ذلك إلا بالطقوس الوقائية. نفس الشيء بالنسبة للمرأة الحامل التي تخاف " التابعة "، خاصة إن حدث و ألحقتها بضرر، أي إن مات لها أولاد، لا تخرج من بيتها إلا بعد أدائها طقوس تحتاط بها من التابعة، تعلق في صدرها حجابا، يشمل على مواد سحرية وقائية، كلها مواد مقدسة تحتوي على قدرة و طاقة قوية تصد و تدفع خطر الأرواح الشريرة المتربصة بالمرأة..الطقوس تقرب الإنسان من المقدس و تهدم الحاجز بينهما. في هذا تحضرلنا عادة شعبية في منطقة القبائل تخص المرأة التي أنجبت و تعتبر غير طاهرة بسبب دم النفاس الذي يمثل محظورا، بحيث لا تستطيع المرأة أن تدخل مكانا مقدسا كأن تزور وليا مثلا خلال هذه الفترة ، لا تتطهر إلا بعد مرور أربعين يوما من الولادة، رغم ذلك، لا تدخل الفضاء المقدس إلا بعد طقوس تطهيرية تقتضي الإستحمام بماء مباركة، طاهرة تكون قد جلبتها من منبع أو عين مقدسة. تضع الماء في " جفنة " كبيرة تظيف الملح، بيضة، و قرميدا، الماء يعتبر مطهر، الملح يبعد الأرواح الخبيثة التي تتربص بالمرأة التي تكون مدنسة بدم النفاس، هذا يجلب هذه الأرواح، البيضة، كي يكون وجهها جميلا و بشرتها بيضاء، أما القرميد فيرمز إلى القوة و الصلابة و الصحة التي ستحضى بها الأم و وليدها. بعد إنتهائها من طقس التطهير، تصبح إثرها طاهرة، تعود إلى حياتها العادية، تمارس نشاطاتها الإجتماعية و الدينية. هكذا تبدوا فكرة " المقدس و المدنس لا تتعلق فقط بمعتقدات بدائية، نجدها في كل نشاطاتنا و في كل المجتماعات، حتى و إن كانت التسميات مختلفة. إذا كان المقدس يشمل على حقيقة، فهي ليست فقط محتوى نفسي- لا شعوري إنما هي أساس ضرورة وجود و تفكير إنساني " .(1) لعل، ديمومة بعض الطقوس البدائية التي يمارسها أجدادنا الأوائل في مواسم الحرث أو لإنزال المطر، لا تزال حية إلى يومنا هذا، إذ تضل ظاهرة " أنزار " في منطقة القبائل تمارس من طرف النساء كلما قل المطر. كما إكتشفنا في دراستنا الميدانية أن للمرابطين علم يسمى بالأمازيغية " السانجاق "، هو علم بألوان علم الجزائر، كان المرابطون قديما يخرجونه كلما أقاموا " وعدة " في مقام وليهم، و لا زالوا اليوم يحتفظون به و يخرجونه في المواسم كعاشوراء (أنظر الصورة رقم (29)) وجدناه في مقام " سيدي أعلي والطلبة " بقرية " أيث سي أعلي " ضواحي " إفليسن "، لا تزال هذه الأدوات تؤدي وظائف طقوسية، تعتبر رمزا حيا لإندماج الإنسان بالمقدس.

عندما يشعر الإنسان بوجود خطر يهدد حياته، يلجأ إلى توظيف الطقوس إستعطافا للمقدس، والقبائلي لايتوان في إستعمال أي طقس يعرفه لوقاية نفسه و ممتلكاته من الخطر، يتخذ كل الوسائل الإحتياطية و الطقوس الوقائية لذلك، لا يهدأ حتى تنفذ كل وسائله، إن حدث وأصابه مكروه رغم وقايته بطقوس شتى،يجد نفسه مجبرا للخضوع للقدر ويفسر ما وقع له " بالمكتوب" إنها إرادة الله.

(1) MOHIAT-Navet Nadia, **Les Thérapies Traditionnelles dans la Société Kabyle, pour une anthropologie psycanalytique**, Edition l 'Hamartan, PARIS, 1993, P, 102

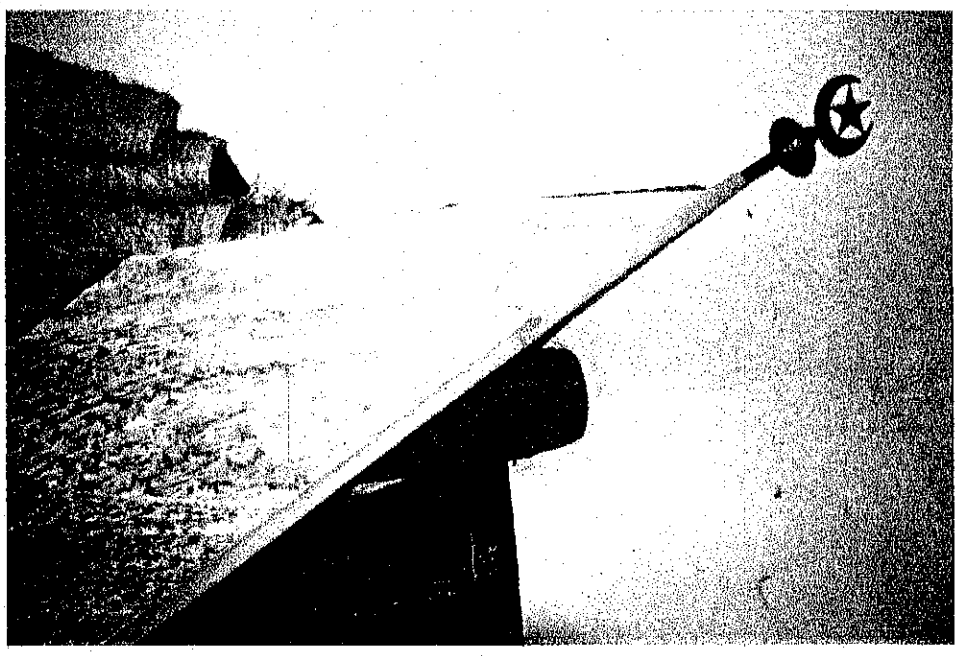

الصورة رقم (29)

" السانجاق " علم المرابطين، يرفعونه في المواسم الدينية، كعاشوراء و المولد النبوي و عند إقامتهم لزردة أو وعدة.

المرأة القبائلية أكثر إعتقادا و إيمانا من الرجل بالمقدسات إنها تستخلص قوتها وتثبت وجودها بواسطة المقدس، من خلال الطقوس التي تتقن سر نجاحها فتأخذها وسيلة للإرتقاء وغاية تجد فيها راحتها، إتحادها مع المقدس يشعرها بالسعادة وتوظيفها للطقوس للتقرب منه يكون ذو فعالية سيكولوجية. كما يقول"طوالبي": " هذا النمط من الطقوس يهدئ حالات القلق، يعزز الأنا و يسمح بالتصدي لضائقات الحياة بثقة تامة ". (1)، فالمرأة الريفية، تحاط بمجموعة من المحظورات و القيود التي تدفع بها إلى القلق و التذمر، لا تجد متنفسا لآلامها النفسية سوى بلجوئها إلى المقدس، تفرغ فيه الضغط الذي تعيشه يوميا، يضيف " طوالبي " قائلا : " من المؤكد أن الممارسة الأنثوية للمقدس على الصعيد الرمزي هي تحد للقدرة الذكرية المطلقة "،(2) فالرجل يحتكر الخارج و يترك البيت للمرأة، حتى أنها تحرم من أداء واجباتها الدينية في المسجد و لا يعط لها المجتمع الحق في ذلك إلا بعدما تصبح عجوزا، فكلما تقدم بها السن، كلما حضت بحرية أكثر، إحاطتها بكل هذه المحرمات يجعلها تبحث عن ملجأ لا يعرفه الرجال و لا يتقنون تقنيات التقرب منه إنه المقدس. إصطدام المرأة في الواقع بالممنوع، دفع بها إلى السيطرة على فضاء سحري، يحقق لها مكانتها المفقودة في الواقع ووجدت فيه متنفسا مقبولا جماعيا، حيث إبتعد الرجال عن هذا الفضاء رغما عنهم، فهم يعترفون بهزيمتهم أمام قدرات المرأة الخارقة في التعامل و التعايش مع المقدس السحري.

توظف المرأة الريفية المقدس و الطقوس و السحر من أجل تعديل حياتها و تأمين مستقبلها، لكن في بحثنا عن أشكال المقدس و المظاهر التي يبدو عليها، إنه ذلك المقدس الذي يتعلق بالأولياء الصالحين و حراس الأماكن، إنه أيضا مقدس النساء اللواتي يمارسن طقوس سحرية من أجل الزواج أو لتمتين العلاقة الزوجية، أو للإستفاء من أمراض سببتها قوى خفية " كالتابعة " التي تمنع المرأة من الإنجاب. للمقدس مظهر آخر،مشاع في عصرنا هذا، إنه مقدس العرافين الذين يكشفون الغيب عن طريق التنجيم و ضرب خط الرمل وقراءة الطالع في الفنجان. أحيانا، تصل غيرة المرأة على زوجها وخوفها من فقدانه الى ممارسات سحرية تأخذ طابعا سلبيا وتتدرج في إطار الشعوذة. عثرنا في زيارتنا لمقام "لالا الثلاثاء" على عظمين تآكلا بمرور الزمن،وضعتهما النساء بين ثغرات سور "جامع الملائكة"، إستغربنا ، عن سبب وجود العظمين وعن دلالتهما. فسألنا، الشوافة لالا فاطمة بقرية " بوقلال " لا تبعد كثيرا عن " لالا الثلاثاء " عن رمزية العظمين، فأخبرتنا، أن المرأة التي تريد عقد سحرعلى زوجها ، بحيث لا يرغب في إمرأة أخرى، بل يصبح عاجزا جنسيا إذا تزوج بغيرها، فتأخذ الزوجة عظام ميت، تكون قد جلبتها من قبر مهجور، تضعها تحت السرير في الموقع الذي ينام فيه زوجها ، سبعة أيام، ثم تأخذه الى القبر الذي إنتزع منه أو إلى مكان مقدس كالمقام مثلا، هذا ما شهدناه في سور جامع الملائكة. (أنظر الصورة رقم :(30))

(1) طوالبي نور الدين، **في إشكالية المقدس**، ت، وجيه البعيني، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1988 ، ص، 42 ,
(2) طوالبي نور الدين، **الدين، الطقوس و التغيرات**، ت، وجيه البعيني، ط1 ، منشورات عويدات، بيروت، 1988 ، ص، 128,

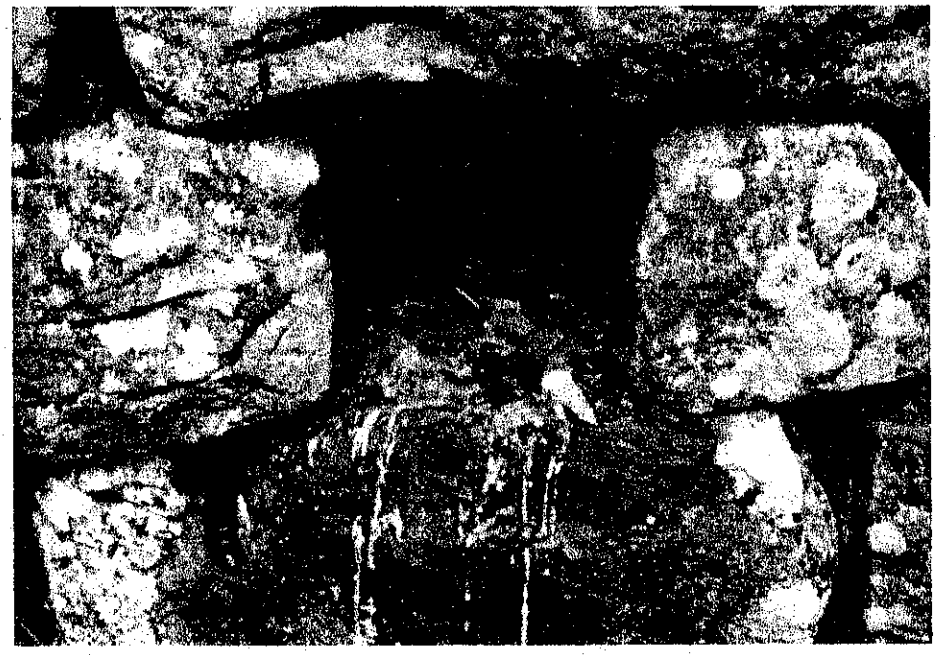

الصورة رقم (30)

يظهر على الصورة عضدين متمسكين في جدار " جامع الملائكة "، بمقام " لالا الثلاثاء " واحد على يمين الثغرة و آخر على شمالها، تتوسطهما فتحة كبيرة، تراكم فيها الشمع.

دلالة هذا الطقس السحري تكمن في موت قلب الزوج تجاه النساء، كما مات صاحب القبر، فأحيانا " يصبح المقدس البؤرة التي توفر فيها الشعوذة " . (1) فهل ذلك يكون شكلا من أشكال إنحراف المقدس؟ أم مظهر من مظاهر تعدد وظائفه و شمولية طبيعته وجوهره ؟.

في الحقيقة ، الإجابة عن هذه الأسئلة ، يثير مشكلا فلسفيا، علينا أن نكتفي بتحليل المقدس السحري ، انطلاقا من مواقف، ممارسات ومعتقدات المرأة الريفية، ونحاول فهم المقدس بمنطق السحر الخاص به لا بمنطق العقل و الواقع المقنن بالعلم والذي يبقى حائرا أمام تفسير بعض الظواهر التي تتعلق بميدان السحر، كما يقول " كلود ليفي ستروس" (C.L. STRAUSS) موضحا كمالية السحر تماما كالعلم،" إنها كاملة مثله، متناسقة ومترابطة في وسائلها الخاصة ... الفكرة السحرية ليست بداية، إنها ليست جزء من كل لم يحقق بعد ، إنها تشكل نسقا محددا ومستقلا..."(2) هكذا يجب دراسة المقدس السحري مستقلا بذاته، مميزا نتيجة طبيعته، مختلفا في جوهره، في طريقته ووظائفه. هذا ما سنحاول توضيحه لاحقا.

II – العملية السحرية وأركانها :

يمارس السحر في كل المجتمعات ويعرف عند كل الشعوب ، مارسته الأقوام البدائية ولا زالت تمارسه الشعوب المتحضرة ، في كل مكان نجد العرافين والسحرة والمشعوذين.فالسحر ليس محتكر عند النساء فقط، كما هو مشاع، لكن ما يهمنا نحن في دراستنا، هو السحر الذي تمارسه المرأة الريفية في منطقة القبائل، نقصد بذلك السحر الإيجابي، فالعملية السحرية ليست مجموعة طقوس توظفها المرأة بشكل ثابت، في المواسم و الأعياد بدون هدف، إنما الطقس السحري يرمي دائما إلى غاية معينة، تسعى المرأة من خلاله إلى تحقيق هدف محسوس يتعلق بواقعها، بحياتها أو بالطبيعة التي تعيش فيها. لذا تخضع العملية السحرية لشروط عديدة، تتصل بالزمان و المكان و الوقت، ذلك حسب الهدف الذي تسعى إليه العملية السحرية. نحن نعلم جميعا كيف يؤثر الشهر القمري على فعالية الطقس السحري، إن القاعدة العامة و المتعامل بها في أوساط النساء هي تخصيص الطقوس السحرية الإيجابية للأيام التي يكتمل فيها القمر، أي بداية من اليوم السادس من طلوع الهلال و تستمرصلاحيتها مدة عشرين يوما. تخصص العشرة أيام الأخيرة للقمر للسحر السلبي، هي الأيام التي يبدأ فيها القمر في الزوال. تختار الساحرات هذه الأيام خاصة لعقد السحر الأسود كالسحر الذي يفرق بين الزوج و زوجته. العملية السحرية معقدة، لنجاحها يجب مراعاة كل جزء من أجزائها، فأي تعديل أو تحريف في الطقوس اللفظية، سيغير المعنى و بالتالي تكون العملية السحرية فاشلة " فالعالم السحري مفعم بالإشارات و الأشكال التي تعتبر رموزا أو تمثيلات، إنها القوة الخيرة أو الشريرة، تعطي لمن يكتسبها قدرة خاصة ". (3)

(1) LEVINAS Emanuel, **du sacré au saint**, édition de minuit, paris, 1977, p, 89.
(2) LEVI-STRAUSS-CLAUDE, **la pensée sauvage**, librairie plan, PARIS, 1962, P, 21
(3) BANNEFOY Claude, **Science et magie,** la nouvelle encyclopédie, librairie Hachette, France, 1964, P, 36

تنقسم العملية السحرية إذن إلى نوعين مختلفين و متناقضين : نوع خير، و نوع شرير، فهي التي تربط بين القلوب و هي التي تفك هذا الرباط. عن طريقها يتم عقد السحر، عن طريقها يبطل مفعوله، ففعل الربط و الفك يكون أساسا نشاطا سحريا و بنية العملية السحرية – بهذا الشكل – واحدة بالنسبة لغاية إيجابية، خيرة أو لغاية سلبية، شريرة. هنا تكمن عقدة العملية السحرية، فهي توظف بعض الطقوس أو بالأحرى طقسا واحدا يشمل على دلالات و رموز متباينة، مثلا : الخيط المعقود، يوظف غالبا، في السحر السلبي، عند الزواج مثلا يعقد الزوج على زوجته فيعجز عن ممارسة العلاقة الجنسية، كما نجده أيضا في بعض الأحجبة التي يضعها شخص لعدوه حين يريد أن يبطله عن بناء بيت أو إفشال تجارة أو مشروع ما. بينما يسجل " ELIADE " بأن العقد توظف لأغراض وقائية و طقوس إحتياطية تحمي صاحبها من الأمراض و تبعده عن الأرواح الشريرة و يقول بأن : " العادة الشائعة هي الوقاية من الأمراض و الشياطين بواسطة العقد و الخيوط و الحبال، بالتحديد في فترة الإنجاب، في كل العالم، نعلق عقدا تكون بمثابة حجاب ". (1)

نقف حائرين كلما حاولنا تفسير طبيعة العملية السحرية، المهم، أنها تخضع لشروط خاصة بها تميزها و تصنف غايتها و أكثر من ذلك تحقق الأمان و المستقبل الناجح للإنسان، حتى و إن فشلت العملية السحرية، تجد تفسيرا مقنعا و خاصا بها ربما يتعلق بالوقت أو بمكان الطقس، يعود الإنسان إليها ليكرر التجربة و يطلب طلسما أو حجابا " لا يتعلق بالشفاء من الأمراض فقط و إنما يهدف إلى النجاح في العديد من المؤسسات ". (2)

هذا ما نلاحظه في أيامنا هذه، قبل أن يدخل شخص في مشروع هام، يتعلق بمستقبله يلجأ إلى السحر، وسيلة سريعة، ناجعة تهدئ من روعه، تساعده في التقرير، تصبح عادة زيارة الشوافين و العرافين مقبولة إجتماعيا، ما دام الفرد يجد فيها راحته و غايته المزعومة، فكلمة واحدة من الساحرة تطمئنه و تريحه، كما تستطيع بكلمة واحدة أن تغير وجهة نظره و تثير فيه الشكوك و الأوهام فيعدل عن أمر يكون فيه صلاحه، من هذا الباب، يستغل بعض الدجالين و المحتالين سذاجة الناس. رغم ذلك، يبقى الفرد رهينة لأحلامه و لرغباته، يريد أن يحققها في الواقع فيتشبث بالخيال و يجد في العملية السحرية فضاء واسعا يمارس فيه رغباته و حاجاته. لذلك، يعيش في إطمئنان مؤقت و يصبح " السحر بالنسبة له حلم يقظة " .(3) يجد ركيزة أساسية يتكئ عليها و يستند على ثوابت نفسية نابعة من اللاشعور الجمعي. من خلال هذه الركيزة، تتقوى العملية السحرية و تكتسب قدرات عديدة لأنها العملية الوحيدة – حسب المجتمع – القادرة على حصر المشاكل اليومية نفسية كانت أم إجتماعية، فالسحر وحده قادر على ضبط و تقليص قوى الشر من الطبيعة، و هو المسيطر على الخير و على الشر في آن واحد.

تعزز العملية السحرية و تظهر موهبتها في تكامل أركانها التي تتضمن القوى السحرية و قدرات الساحرة التي توظفها، هي التي تملك تقنيات نجاحها و فعالية طقوسها، فتساهم في جلب السعادة أو فتح أبواب الشقاء.

قبل ذلك، سنعرج على بعض التعريفات التي قدمت من طرف السوسيولوجيين و الإثنوغرافين عن السحر حتى يتسنى لنا فهم طقوسه و حصر تقنياته و طرقه.

---

(1) ELIADE Mircea, **Images et symblismes, essais sur le symbolisme magico-religieux**, édition guallimard, France, 1952, P, 174

(2) BOUTEILLER Marcelle, **médecine populaire d'hièr et d'aujourd'hui**, édition mesonneuve et larose, PARIS, 1987, P, 61

(3) ANTOINE Rony - Gerome, **la magie, que sais je ?** 3 éme édition, presses universitaires de Frances, Paris, 1959, p, 80

تعريف السحر :

إن السحر قوة غير عادية تجلب للإنسان الحظ و السعادة و تبدد آثار الخوف من المجهول الذي يقلقه، لذلك إتفق علماء الأنتروبولوجيا على تعريف السحر بأنه عبارة عن " تقنيات تمنح لصالح الجماعة قوى فوق الطبيعة عادة ما تخافه "، (1) عن طريق السحر، يتوصل الإنسان إلى إخضاع قوة خارجة عن نطاقه و عن سيطرته، يوظفها لأهدافه و حاجاته، التي تخيفه أو تهدده، كما يعرفه معجم علم الإجتماع : " السحر عبارة عن طقوس و أساليب حركية يستعمل الساحر فيها أحيانا بعض المواد بغية إنجاز أهداف تقع خارج نطاق قوة السيطرة الحسية للإنسان الإعتيادي ". (2) غالبا ما يستعين الساحر بطقوس خارجة عن الطبيعة الحسية للإنسان، كالجن مثلا في جمع الأخبار أو بالأرواح الخفية " كالسادات " (الأسياد) التي تتعامل مع الساحر، يزعم أنه لا يفعل إلا الخير، ولا يتصل إلا بالأرواح الطاهرة، في هذا المعنى يرى " CAUSELIET EUGENE " أن " السحر قبل كل شيئ هو فن رباني يتصل مع الروح العليا من خلالها يسيطرعلى القوة الروحية "،(3) هذا التعريف يحيلنا إلى محتوى السحر الأبيض كما يسميه "البوني القرشي " في كتابه " شمس المعارف الكبرى " حيث يصف طرق إتصاله مع الأرواح الطيبة كيفية إستنزاله لأرواح الملائكة، بقيام الليل والصلوات، ترديد أسماء الله الحسنى، وعملية إستحضار الأرواح الطيبة من الأعلى إلى الأسفل تخضع لقوانين و قيود صارمة كالطهارة ونقاء الروح، والعبادة، ولا يوظف هذا السحر إلا للخير.

ما اتفق عليه العلماء والسوسيولوجيون هو أن السحر " فن يهدف إلى خلق ظواهر مناقضة لقوانين الطبيعة ". (4) أما نظرة الإسلام للسحر مخالفة، بحيث كل ما يتعلق به كفر و شرك. لا يوجد خير و سحر شرير، فالسحر كله عمل الشيطان ومن إستعان به فهو كافر. يقول تعالى في كتابه العزيز: " ... وَ لَكِنَ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَاسَ السِّحْرَ ... " (5)، إذا كان الساحر يستعين بالشيطان كي يعلمه السحر، عليه أن يخضع له و لأحكامه، فيرتكب المعاصي و ما يغضب الله. كأن يتوضأ باللبن، أو يصلي بالجنابة، أو يدخل أماكن الخلاء و الأوساخ تحت قدميه ، مصحفا أو آيات قرآنية، أو يكتبها بأنواع الجناسة... إلى غير ذلك من الأعمال التي تبعد الإنسان عن ربه و تقربه من الشيطان. يعرّف الآلوسي البغدادي السحر فيقول : " السحر في الأصل مصدر سحر يسحر بفتح العين فيهما إذا أبدى ما يدق و ما يخفى و هو من المصادر الشاذة، و يستعمل بما لطف و خفي سببه، و المراد به أمر غريب يشبه الخارق ... و يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان بارتكاب القبائح ". (6)

الفقهاء أيضا يرون في السحر الدقة و التخفي أو التستر فهو أمر غريب مبهم، خارق للعادة و للطبيعة المألوفة، إذن السحر يخرج عن نطاق السيطرة الحسية، لا يتأتى لصاحبه إلا بالإستعانة بالشياطين. يقول الرسول (ص): " من عقد عقدة ثم نفث فيها، فقد سحر، و من سحر فقد أشرك، و من تعلق شيئا وكل إليه ". (7)

---

(1) Encyclopédie du monde actuel, p , 130 .

(2) معجم علم الإجتماع، ص، 135

(3) Bonnefoy , **science et magie**, p, 12.

(4) Dictionnaire de sociologie , p, 166

(5) سورة البقرة، الآية 102

(6) الألوسي البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني**، ج 1، ط 4، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1985، ص، 338

(7)أبي عبد الله محمد أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج 20، ط 2، (دون دار النشر)، (دون البلد)، (دون تاريخ)، ص، 258

السحر إذن في نظر الشرع حرام و كفر و شرك، لا فرق بيت سحر يوظف للإستشفاء أو لجلب المحبة و بين آخر يوظف للتفرقة و تدمير حياة الناس. فمن علق التمائم، التعاويذ، الأحجية و الطلاسم معتقدا أنها تجلب له نفعا أو تدفع عنه ضررا فقد كفر و أشرك. فمحاولة معرفة الغيب عن طريق القوى الخفية المتمثلة في الجن الذين يخبرون أصحابهم من السحرة و المشعوذين، أمرلا يجيزه الإسلام. بل يحرّمه و يكفره. فالإستعانة تكون بالله و ليس بقوة خفية، شيطانية هي عدوة الله.

2- القوة السحرية :

لقد بدأ الإنسان الأول في رسم لوحات عن الواقع عكست أولى المعلومات عن العالم و الحياة و الطبيعة و إرتبطت بمحيط العالم القديم. لم يكن باستطاعة الإنسان الأول تقبل الأفكار المنطقية، إلا أنه كان لديه شعور رقيق، بحيث كل الظواهر التي عاشها إستطاع تقريرها. نظر إلى العالم برؤية ساذجة، ربط معها كل الأشياء بشكل بسيط، فتطابق لديه الواقع مع حاجاته الحياتية.

كان الإنسان الأول لا يؤمن بعلاقة سببية تربط الأشياء و الحوادث بالواقع، إنما يمتلك وسائل أخرى للسيطرة على الطبيعة التي تحيط به. من هنا فإن هدف الإنسان الدؤوب هو التقرب إلى القوى الطبيعية و إسترضائها عن طريق السحر.

كان أجدادنا الأوائل يرسمون أشكال، إشارات و رموز على جدران المنازل، تهدف إلى تنظيم الجماعة و حمايتها من قوى الشر و الشياطين لأنها مصدر القوة و الخير و البركة، فالمرأة الريفية في منطقة القبائل تتفنن في رسومات و خطوط هندسية ملونة تحمل دلالات رمزية و سحرية، كل لون يؤدي وظيفة مهمة و يحمل معاني مقدسة، روحية، و طقوسية. فمن خلال الألوان تعكس المرأة الريفية موقفها من الحياة، بواسطتها يتسنى لنا تفسير و فهم الطقوس السحرية، فالألوان تجلب السعادة و السرور، كما تنذر الأشخاص من خطر الحسد و الشر و السحر، فهذه الرسومات تعكس القوة السحرية التي تمتلكها الأشكال و الصور، التي بواسطتها تقي المرأة نفسها و عائلتها و بيتها من الحسد و العين. كما يقول " CASENEUVE " : " الطقس بصفة عامة، سحريا كان أم دينيا هو فعل رمزي. و الرمزى في علاقة مع ما يرمز إليه، يرتبطان بالمشاعر أو الأفكار ... " (1) فرسومات المرأة القبائلية على جدران البيت ترمز دائما إلى شيئ معين، تعبر في حد ذاتهاعن أفكار خارقة و غامضة تتجسد في شكل طلاسم وقائية، كما تثير فينا الألوان التي تكون غالبا بالأحمر و الأسود و الأبيض، مشاعر و أحساسيس رهيفة تغرس في أعماقنا الفرح و الأمل.

تعرف المرأة برهافة شعورها و رقة أحاسيسها فهي تتحسس الخطر من بعيد و تحتاط له قبل وقوعه كما يلاحظه " MALINOWSKI " : " نرجع إلى السحر، كلما شعرنا بالخطر " (2)، بالتالي، فالسحر يكون دافعا قويا يحفز المرأة الريفية إلى إتخاذ كل الوسائل التي بوسعها أن تقيها و تحميها و لذلك توفر كل الشروط اللازمة لنجاح طقوسها، فكلما رعت قوانين العملية السحرية، كلما كانت فعالة، قوية و ناجعة. و من بين العوامل التي تساهم في فعالية السحر نجد :

(1) CASENEUVE, Sociologie du rite, P 149

(2) المرجع السابق ص 167

أ- عامل الزمن :

غالبا ما يكون يوم إكتمال القمر، وقتا مميزا لنجاح العملية السحرية. فضوء القمر يعطي قوة خارقة للطقس السحري، بالإضافة إلى ذلك، نجد أن إحترام الوقت مهم جدا في نجاح السحر، اليوم و الساعة عاملان ضروريان، قطف الفتاة لبعض الأعشاب التي توظفها في طقوس الزواج يستدعي مراعاتها للوقت. فإن حدث و قطفتها في ساعة لم تحددها الساحرة، فقد الطقس فعاليته. كذلك بالنسبة لليوم. توجد أيام فولكلورية، سحرية يعتقد أنها ناجعة للسحر، كالسبت، الثلاثاء، الإثنين و الخميس. لا ننسى العدد، بحيث أحيانا، يردد الطقس ثلاث مرات أو سبع مرات و هي أعداد سحرية. كما توجد طقوس سحرية تؤدى في الصباح الباكر و أخرى في الليل خاصة تلك المتعلقة بالشر. كذلك إستكشاف الغيب و معرفة الطالع يتأثر بالغيم و بالريح. و توجد بعض التواريخ في السنة تعتبر مشؤومة أو سعيدة.

نعلم جميعا أن السحر لا يمارس في شهر رمضان، لأن فيه ترفع الجان و الشياطين، و لا يكون الطقس فعالا يوم الجمعة لأنه يوم مقدس عند المسلمين. كما تفقد العملية السحرية قوتها إن مورست قبل الأعياد الدينية بأيام قليلة، خاصة قبل عيد الأضحى، أو المولد النبوي، أو يوم المعراج، على الأقل سبع أيام قبل حلول الأعياد الدينية. و هنا يتضح تعارض الدين الإسلامي مع السحر، رغم عدم فعالية السحر في هذه الفترات، إلا أن السحرة يصلون إلى غاياتهم، إنهم يعرفون و يقرّون بوجود قوة إلهية تفوق قدراتهم، و لكنهم يختارون الأوقات اللازمة و الخاصة لنجاح أعمالهم السحرية، فالزمن و الوقت عاملين ضروريين، إحترامهما يؤدي حتما إلى تقوية الطقس السحري.

ب- المواد المقوية للعملية السحرية :

يستمد الطقس السحري قوته من المواد التي يعقد بها السحر، هي كالأتي :

- العقاقير : هناك بعض العقاقير تحمل إسما واحدا لكنها تختلف في هدفها و غايتها، " كالتهجيجة " مثلا عقار من مادة البوتاسيوم، أحمر داكن، يكون في شكل حجرة صغيرة أو مسحوق، هذا الأخير يوظف لطقوس الزواج، تعلقه الفتاة مع مواد أخرى، يجلب لها الحظ، بينما الحجرة، توظف لتهييج قلب الزوج على زوجته، فإتقان وظيفة هذا العقار، يجعلنا نميز بين طبيعة " التهجيجة " و بالتالي، ينجح الطقس السحري الذي تكمن فعاليته في معرفة وظائف العقاقير و إستعمالها حسب الهدف المرغوب فيه.

- الطلاسم و الأحجبة : ينجح الطقس السحري نتيجة قوة و قدرة محتوى الطلسم، فالعرافين و السحرة يملكون كتبا خاصة بالسحر، يتقنون كتابة الطلاسم و رسم الجداول، توجد طلاسم مكتوبة بالنجاسة كالبول و المني أو بدم الحيض أو النفاس، الأول يستعمل للحب و التهيج، و الثاني يوظف عادة للتفرقة و الكراهية. من الأحجبة المكتوبة بماء الزهر و الزعفران تكون لغرض الزواج و جلب الحظ للفتاة. أما تلك المكتوبة " بالسمخ " أي حبر خاص، يحضر بصوف الخروف الذائبة مع قطرات من الماء و الملح كالحبر الذي يكتب به طلبة الزوايا ألواحهم، يوظف للإستشفاء من بعض الأمراض، كالعقم، الوسواس، الخوف و العين. هي الأحجبة التي تخضع لوقت معين، كأن تكتب في الليل على ضوء النجوم و القمر، فالطلسم أو الحجاب يستمد قوته من قوة الطبيعة.

- بعض النباتات : تأخذ طابعا سحريا و توظف لهذا الغرض، غالبا ما تقطفها الساحرة بنفسها إنه شرط فعالية الطقس، و من النباتات المتكررة في العملية السحرية : القرنفل، النعناع، الرمان، الضرو، الفيجل، الحرمل، الحناء، الخزامى، ...

- الحيوانات : أيضا تحتل مكانة في العملية السحرية و هي صنفين إيجابية و سلبية.
- الإيجابية : توظف الحرباء، السرطان، السلحفاة، جلد الثعبان، أشواك القنفذ، أظافر القط، تستعمل غالبا لإبطال مفعول السحر، أو للإستشفاء.
-السلبية : نجد خاصة الضفدع الذي يستعمل للهلاك و لتدمير حياة شخص ما، جلد الكلب الأسود، الفأر، شعر القط، منقار الطير، أظافر الخنزير، جلد القنفوذ، و البومة.

جـ- الخروج عن كل ما هو مؤلوف :

تأخذ العملية السحرية قوتها و تستمد قدراتها و فعاليتها في إستعمالها و إعتمادها على المواد الغير عادية، النجسة، المد نسة، النادرة، المعقدة و التي لا تكون متداولة بين الناس، يجب أن تكون مختلفة تماما عن نشاطات الإنسان العادية، فكل ما يتعلق بجسم الإنسان من دم، شعر، أضافر، أسنان الزوجة، (1) مني الزوج، دم المقتول، كفنه و قبره. إنتماء هذه المواد إلى عالم غريب، معقد، مبهم يضفي عليها قوة سحرية، و قدرة تعامل الساحرة مع ما يناقض قواعد الطبيعة و النظم المألوفة، إنتماؤها إلى عالم بعيد عن عالم الإنسان، هذه الخاصية تزود أعمالها السحرية بقوة خارقة. فكلما تضاعفت قوة السحر، كلما أصبح معقدا و غامضا. و تبقى قوة السحردائما مرهونة بشروط كثيرة، لا يمكن حصرها و يستحيل معرفتها كلية، ما استطعنا تحصيله من بحثنا الميداني و إستجوابنا للعارفات بميدان السحر، أكدن على ضرورة توفير الشروط التي ذكرناها آنفا، فهي أساسية بل أولية لنجاح العملية السحرية.

في الحقيقة، السحر يحتاج إلى مواد و وضعيات زمانية و مكانية تدعمه و تعززه، لكن ما يعطي للطقس السحري قوة و فعالية هو من يتقن ممارسته و من يخلق وسائل و طرق فعالة تحصر أسرار السحر و تفتح أبواب الخوارق للناس، فتغير من مجرى حياتهم و تضمن لهم السعادة و الإستقرار.

3- الساحرة و طرقها :

المرأة الساحرة عادة ما نجدها تشعر بالنقص و الإختلاف عن باقي أفراد المجتمع، لأنها لم تؤد وظائفها الإجتماعية كالزواج و الإنجاب، كثيرا ما تتحول المرأة العانسة التي وصلت إلى سن اليأس و لم تتزوج إلى ساحرة، كما تنزاح الأرملة إلى توظيف السحر، المرأة المطلقة التي لم تنجب في حياتها، يصنفها المجتمع بالعقيمة، هذا الصنف من النساء يعشن في مجتمع لا يتقبل وضعيتهن، لذلك يشعرن بالنقص و الرفض و التهميش.

(1) سنحلل لاحقا طقس ربط الزوج، و تستعمل أسنان الزوجة كعلاج لفك السحر.

يرى الأنتروبولوجي " LOUIS-VINCENT " أن في هذا العالم يوجد نوعين من النساء كما يوجد فضاءين فيقول : " إمرأة الداخل، منجبة، خيرة، تغرق في حرارة و نعومة البيت، أما إمرأة الخارج، داكنة، شريرة، همجية. واحدة تمتلك فضاء البيت المغلق و المحمي، و أخرى، تحوم في فضاء خارجي، تكون عنيفة و خطيرة ... " (1) هذا الصنف الثاني من النساء يشمل الساحرات اللواتي رفضهن المجتمع، و تحاول قلب الموازين و تغيير معادلة سيطرة الرجل للمرأة، فتسيطر هي عليه من خلال أعمالها السحرية التي تقدمها للنساء مثلها مقهورات نفسيا، منهارات عاطفيا، مهمشات إجتماعيا و ثقافيا. فكل نتيجة أيجابية للسحر تعتبر إنتصار للساحرة، و تعديل حياة زائراتها بمثابة إنتقام للرجل الذي أهملها. فهل ذلك يعني، ثأر المرأة لنفسها بواسطة السحر الذي يعتبر وسيلة سريعة و فعالة في نظر المجتمع ؟

من الصعب، قياس درجة إعتقاد و إيمان الساحرة بفعالية سحرها. الأكيد في الأمر، هو هروبها من المجتمع الذي ينبذهاإلى ملجأ آمن هو السحر. و إذا كان المجتمع يعزل هذا الصنف من النساء فلأنه يشكل وزنا ثقيلا له " فهو يخاف من السحرة نتيجة قدراتهم التي يضفيها عليهم و بالتالي يخرجون ضده و لكنهم مدعمين من طرفه " .(2) فالمجتمع هو الذي يصنف أعمال الساحرة و يحكم عليها بالإيجاب أو بالسلب، بالفعالية أو عدمها، لذا يرى " MAUSS " أن " السحر حدث إجتماعي .... لأنه يستمد شكله و مظهره من المجتمع، لا يكتب له البقاء إلا من خلاله ". (3) علينا توضيح فكرة " MAUSS " الذي يعتبر الفعل السحري إجتماعي. في السحر، الفرد لا يفكر، لا يتحرك و لا يستمد قوته إلا من العادة الشعبية و من تحفيزات الجماعة لأعماله، فهو يسير وفق أهواء المجتمع و يخضع لضغوطاته و سيطرته. من هذا الباب فقط يكون السحر حدثا إجتماعيا. لا يجوز لنا أن نعطي للسحر صفة إجتماعية كما هو الحال بالنسبة للدين و المعتقدات الشعبية، إنما هو نشاط فردي. كل ساحرة ، كل امرأة تحتفظ بوصفات خاصة بها، وطقوس سرية تحتكرها لنفسها، فكل ساحرة تملك تجربة في ميدان السحر تميزها عن تجارب الأخريات، وكل واحدة تستند على موهبتها و حنكتها فتؤسس لنفسها سمعة طيبة أو سيئة، فالمجتمع هو الحاكم الأخير،يقيمها حسب محتوى و فعالية الطقس السحري . و قد نقل لنا الأنتروبولوجي " PRITCHARD " ملاحظاته خلال بحوثه و دراسته لشعب " الأزاند" (AZANDE) في إفريقيا ،فعرّفنا بمعتقداتهم و طقوسهم فقد مارسوا " سحر الحرب، سحر الثأر، سحر الرعد... الطب الشعبي الذي يحرس البساتين من السرقة، كذلك وقاية الأشخاص و وفرة المنتوج الفلاحي ... " (4).

لا تزال مجتمعاتنا المعاصرة تهتم بالسحر، لكن ليس بسحر الحرب أو الثأر أو الرعد، لإختلاف نظرة الإنسان و تعدد متطلبات الحياة و تطور ذهنية الإنسان المعاصر، لكنه يهتم دائما بمجال السحر الذي يقيه من الحسد، و الذي يشفيه من أمراض مستعصية على الطب و يهتم بالسحر الذي يعدّل حياته و يضمن له الراحة النفسية و المكانة الإجتماعية.

عندما نتطرق للسحر، تتبادر إلى أذهاننا صورة المرأة الريفية في منطقة القبائل التي تعيش تهميشا فادحا، تبدو سيطرة الرجل واضحة، تكبل من أنفاسها و تضيق عليها الخناق، فتنفجر من أعماقها من شدة الضغط عليها و لا مناص لنجاتها سوى السحر، تلجأ إليه كلما شعرت بضيق المجتمع لها، هكذا، تجد باب الساحرة مفتوحا لها، تستشيرها و تستفيد من تجربتها و تقدم لها وصفات سحرية كثيرا ما تساعدها في حياتها الخاصة و في توطيد أواصر المحبة بينها و بين زوجها.

---

(1) THOMAS LOUIS-VINCENT, **Anthropologie des obsessions**, édition l'hamarttan, PARIS, 1988, P, 40
(2) MAUSS, **Les fonctions sociales du sacré**, P, 19
(3) نفس المرجع، ص، 24
(4) PRITCHARD EVANS, **les anthropologues face à l'histoire et à la religion** P.U.F., PARIS, 1974, P, 107

نظرا لأهمية السحر في المجتمع القبائلي، نجد تسميات عديدة للساحرة منها : الدرويشة، المرابطة، العرافة، القزانة،... إلخ. تعود هذه التسميات إلى أصل الساحرة و طبيعة القوى الخفية التي توظفها. إنطلاقا من التجربة الداخلية التي مرت بها الساحرة، يحكم عليها المجتمع و يصنفها حسب وظائفها. إذا سألنا أي إمرأة ريفية مهما كانت سذاجتها، عن مهام الساحرات باختلاف أنواعها تجيبنا و تعرف كيف تميّز بين التسميات المتعددة للمرأة التي توظف السحر، هذا يعود إلى تراكم كمّ هائل من الفولكلور السحري المتداول شفاهيا خاصة بين النساء الريفيات في منطقة القبائل. يصنف المجتمع القبائلي المرأة التي تمارس السحر إلى ستة أصناف :

1- ثادرويشث (الدرويشة) : الدرويش كلمة فارسية معناها الفقير و تدل على المتعبد، الزاهد، الصوفي. بالنسبة للقبائل تدل هذه الكلمة على المجنون، كما تحمل معنى آخر يقصد بها كل من له القدرة في معرفة الغيب. فالدويشة هي المرأة التي تملك أسرار الغيب بسبب صرعة جني عنيفة أصابتها و جعلتها في أزمة حادة فقدت فيها قواها العقلية. إذا قامت بمجموعة من الطقوس – سنراها لاحقا – تؤهلها لممارسة السحر، بالتالي، تشفى من أزمتها النفسية أما إذا رفضت، تتدهور حالتها و تصبح مجنونة و تعاني من إنفصام الشخصية.

2- ثامرابط (المرابطة) : يعود أصل كلمة المرابط إلى تلك الفئة من الأشراف التي يعود نسبها إلى آل بيت الرسول (ص) جاءوا إلى منطقة القبائل لنشر الإسلام و تعليم أصول الدين، أسسوا زوايا و مدارس قرآنية، كانوا أهل حكمة ووقار، أجدادهم أولياء صالحين. يستعمل القبائل كلمة " مرابطة " للدلالة على المرأة التي تملك قدرات خارقة تؤهلها للكشف عن أمور خفية و كذلك تكسبها طرق إستشفائية إنتقلت إليها من طرف روح ولي، مرابط هو الذي يسكن جسدها إثر تجربة داخلية مرت بها و صراع بينها و بين الروح التي تريد أن تمتلكها، قد تكون روح ولي قريتها، أو مجموعة أرواح، و كلما إمتلكها عدد أكبر من أرواح المرابطين، كلما كانت قدراتها الإستشفائية خارقة. هذا النوع من النساء يحضين بإحترام و تقدير العامة لأنهن يوظفن معارفهن السحرية لأغراض خيرة، ذلك بسبب الروح الطيبة التي توجههن إلى الخير.

3 – ثاسحارث : (الساحرة) تختلف الساحرة عن المرابطة ، كون الروح التي تحل بجسدها تكون روح جني كافر وهي أيضا تمر بتجربة داخلية ،تعيش أزمة بسكولوجية عنيفة كالتي تمر بها الدرويشة و المرابطة ،ما يجعل الساحرة تختلف عنهما هي درجة خطورة و عنف الجني الكافر الذي يسيطرعليها، و لا يوجهها إلا للأعمال القبيحة التي تضر الناس و تسيئ إليهم ، يعرف هذا الصنف من الساحرات في المجتمع القبائلي بإسم " الستوت " ينطوي على أبشع الممارسات و الوحشية التي تقوم بها هذه المرأة و هي حليفة الشيطان . لذلك ينبذها المجتمع ، تعيش في عزلة عنه، من قصدها، يكون هدفه حتما، إضمار الشر لعدو يريد أن يبطله عن أعماله أو يلحقه بمرض قد يؤدي به إلى الموت . وهذا النوع من الساحرات يوظفن أعضاء الميت في سحرهن خاصة، إعداد الطعام بيد الميت خلال ثلاثة أيام بعد دفنه ، علما أن جسد الميت يطلق إفرازات تمزج بالطعام ، يبيعه السحرة بثمن بهيض ، فمعلقة من الطعام المسموم يؤدي بحياة شخص إلى الهلاك و ربما الموت .

أخبرتنا السيدة " حورية "(1) بأن إبنة عمها كادت أن تموت لو لم تنقذها أحد الساحرات، رفضت الإفصاح عن إسمها، زارتها المريضة التي يئس الأطباء من عدم معرفة علتها و سبب خطورة حالتها دون أن تشعر بأعراض معينة ،كانت مرهقة دائما ، شاحبة ،هزيلة ،فقدت الشهية، أهملت زوجها و إبنها، بعدما زارت بيوت السحرة و العرافين الذين عجزوا عن تحليل حالتها، أكدوا فقط على أنها مسحورة . لكنهم لم يتصلوا إلى طبيعة هذا السحر ، ثم علاجه ، حتى زارت ساحرة معروفة بقدراتها، أطلعتها على أن عدوة لها، غرست إبرة في ضفدع صغير و خبأته في بيت المريضة، فرافقت الساحرة هذه الأخيرة، و توصلت إلى المكان الذي وضع فيه السحر، نزعت الإبرة من الضفدع، وأخبرتها أنها محظوظة لأن الضفدع لم يمت، الهدف من هذا السحر، هو موت المرأة ببطئ، تماما كما يتعذب هذا الضفدع، و بمجرد أن يموت، يحدث نفس الشيئ للمرأة.

يحيلنا هذا النوع من السحر إلى ممارسات سحرية قديمة، كثيرة الرواج خاصة في المجتمعات الإفريقية، بحيث يعمد الساحر إلى تشكيل دمية أو تمثال صغير يحمل أوصاف مشابهة للشخص الذي يريد إيذاءه، يقوم ببعض الطقوس على التمثال و يمارس عليه أنواع العذاب، بحيث يشعر الشخص المعني بألم و عذاب في نفس الوقت الذي يقوم الساحر بممارسات سحرية على الشكل أو على الدمية. بالتالي، يكون رهينة في يد الساحر، يعذبه متى شاء و لا يكف عليه الألم، حتى يجد المصدر و هي الدمية.

هذه الممارسات السحرية القديمة، لا تزال تمارس اليوم ربما بشكل آخر ووسائل أخرى، كما رأيناه آنفا، إستعمل الضفدع مكان الدمية، لكن لكن الهدف من العمليتين السحريتين، – القديمة و الحديثة – واحدة و الغاية من هذا السحر الأسود الذي يصطلح عليه بالفرنسية بـ " ENVOUTEMENT " هو تدمير الإنسان و إلحاقه بضرر كبير، يؤدي به إلى عذاب شديد قد يدفعه إلى الموت.

يختلط أحيانا مفهوم الساحرة بالدرويشة، فالقبائل يطلقون لفظ الدرويشة على الساحرة التي تمتلكها أرواح خفية، عادة هي الجن، التي تعقد السحر و تملك القدرة على فكه و إبطاله، فإن قصدها شخص يطلب منها أن تعقد سحرا لعدوه فعلت، و إن طلبها في فك سحر عقد له فعلت أيضا. فهي تعرف كيف تؤذي و كيف تنفع الناس. هذا النوع من النساء يطلق عليها القبائل إسم الدرويشة و إسم الساحرة أحيانا أخرى. حتى في الواقع يصعب علينا التمييز بينهما. يوجد صنف آخر من الساحرات اللواتي يمارسن السحر برغبتهن، لا توجد أرواح خفية تمتلكها أو تسيطر عليها، بل تلجأ إلى السحر، إما بطريقة وراثية، تنقل لها أمها معارفها و بدورها، تمارس ما تلقنته من والدتها أو عن طريق تقمصها لبعض الطرق (2) التي تكتسب من خلالها موهبة سحرية.

(1) وجدناها عند الشوافة " لالا وردية " بقرية ترمتين على بعد ثلاث كيلومترات من "تيزي وزو" تعاني مشاكل عاطفية مع زوجها الذي تتهمه بالخيانة

(2) سنوضح لاحقا طريقة تمارس في منطقة القبائل، تكسب للمرأة قدرة سحرية، تنتقل إليها برغبة منها.

4- ثامكشفث (العرافة) : هي التي تكشف للإنسان ماضيه و تتنبئ بمستقبله، تمتلكها روح طيبة، تدّعي أنها روح الأسياد، تكشف الماضي و الحاضر و تتوقع المستقبل تستعمل لذلك السبحة، أو الدراهم التي تعطيها إياها الزائرة و تسمى " الزيارة "، أحيانا تطلب من الزائرة أن تملأ فمها بالماء ثلاث مرات ثم تتفله في إناء، تنظر فيه و تحدثها عن ماضيها و ما سيقع لها. لاحظنا في إحدى زياراتنا لعرافة " بتيزي وزو " تسمى " لالا يمينة " تشاع عنها دعاية روّجتها النساء بينهن و هي أن هذه المرأة تحمل على كتفها غرابا يقال أنه روح السيد الذي يسكنها تتحول إلى غراب. فدفعنا فضولنا لزيارتها، و لكننا للأسف، لم نر الغراب. طريقتها في الكشف مختلفة، فهي تنظر إلى زائرتها، تسألها بعض الأسئلةالروتينية كالإسم؟ و مكان السكن؟ تعمل أم ماكثة في البيت؟ متزوجة أم عازبة؟ من خلال هذه الأسئلة، تستدرجها في الكلام و تعرف كيف تستغل المعطيات للكشف عن ماضيها و تتوقع أشياء تحدث لها في المستقبل. شاهدنا زائرة أعطت للعرافة صورة إبنتها و قميص زوجها، أمسكتهما، تمتمت كلمات غير مفهومة ثم أخبرتها أن إبنتها سيخطبها رجل وسيم و غني، عليها أن تقبل بهذا الزواج لأنها ستكون سعيدة، أما بالنسبة للزوج، طمأنتها بأنه يحبها و لا يخونها و لا يوجد في حياته غير عائلته و عمله.

قبل مغادرتنا، جاءت إمرأة في الثلاثينات من عمرها، يبدو أنها تعرف العرافةجيدا، سلمت على رأسها، سألتها عن علاقتها مع زوجها، فهمنا من أجوبة المرأة أن الأمور لم تتحسن، أحضرت لها شمعتين طويلتين (شمع العروسة)، وخزتها بإبر صغيرة، قدمت لها مبلغا من المال و إنصرفت. لم نتوصل إلى فهم دلالة هذا السحر الذي ستعقده المرأة لزوجها.

إستنتجنا من هذه الزيارة أن العرافة تقوم أيضا بمهام الساحرة، أي بإمكانها أن تعقد السحر و بإمكانها إبطاله. في الممارسة، لا نجد حدودا بين هذه الإختصاصات التي ذكرناها سلفا الفروق تكمن على المستوى اللغوي فقط، أما في التطبيق نلمس كل هذه الإختصاصات مندمجة فيما بينها لتصب في وظيفة واحدة هي ممارسة السحر. لذا إرتأينا، و فضلنا إستعمال كلمة الساحرة التي تشمل كل هذه الإختصاصات و ذلك لأن مفهوم السحر يحمل معنى و دلالة واسعة يضم كل وظائف و نشاطات الساحرة.

5- ثاقزانت (القزانة) : هذه الكلمة تدل على المرأة التي تقرأ الطالع، تكشف الغيب، تضرب خط الرمل و تقرأ الكف و هي أيضا متسولة، تكون دائما من أصل عربي، من البدو الرحل تأتي إلى منطقة القبائل للتسول و تجد بذلك طريقة تدخل بها إلى البيوت، كم من الناس سحرتهم بتعزيمات غريبة، تأخذ أموالهم دون أن يشعروا، لذلك فهي منبوذة من طرف القبائل، يجتنبونها و يحتاطون لغدرها.

6- القابلة : هي المرأة تقبل الحاملة و تساعدها في الوضع، يقصد بها تلك التي تملك موهبة و خبرة في التطبيب التقليدي نظرا لتجربتها و معارفها فيما يخص الأعشاب و العقاقير الصالحة لعلاج الأطفال و أمراض النساء. إنها عادة، إمرأة متقدمة في السن، لها أولاد و أحفاد، إكتسبت سمعة طيبة نظرا لعملها الخيري و النبيل. و تجاربها في هذا الميدان، تطلبها الأمهات من أجل علاج أطفالهن من العين، تقدم لهن النصائح فيما يتعلق بصحتهن و سلامة صغارهن، و عادة ما تستدعيها الفتاة التي ترغب في الزواج، تضع لها الحناء و تغسل لها، تطهرها بطقوس تتقنها. القابلة إذن، محبوبة عند الناس، محترمة، في يدها البركة و الخير و الشفاء. لذا تختلف في نظر المجتمع عن الساحرة لأن إختصاصها بسيط، واضح و طاهر.

توصلنا من خلال ملاحظاتنا عن قريب للمرأة الساحرة إلى إكتشاف طريقتين تعتمدهما الساحرة. الأولى : إرادية و الثانية : لا إرادية.

أ- **الطريقة الإرادية** : تشمل هذه الطريقة الساحرة التي ترث السحر من أمها و تمارسه برغبة منها، فهي مسؤولة عن أعمالها لأنها سعت إلى تعلم تقنيات و أساليب السحر. ينقل لنا "DEVULDER " طريقة أخرى تتمثل في " إستعمال " ثبذست أبمان " (1) " LA SALAMANDRE "، حيوان مبجل عند القبائل، يسقط من السماء كلما إستطاع و تسكنه روح، لا يجرأ أحد أن يقتله ... تأخذها الساحرة ، تلحس ظهرها، من الرأس إلى الذيل ، يمتزج ريقها مع إفرازات جلد الحيوان المرة فتنتقل إلى الساحرة فطنة و فن هذا الحيوان " (2).

لم نجد أثرا لهذه الطريقة في أيامنا هذه، ما إستطعنا التوصل إليه هو أن هذا الحيوان له قيمة كبيرة عند القبائل، أخبرتنا العجوز " حليمة " من قرية " أيت يوسف "على بعد ثلاثة عشر كيلومتر من مدينة " تيقزيرت "، كانت قابلة و لها خبرة واسعة في العلاج التقليدي، قالت لنا، كان القبائل يفرحون كثيرا كلما سقط هذا الحيوان – ذلك يحدث نادرا – و يعني سقوطه في مكان ما وفرة المنتوج الفلاحي و الخير الذي سيعم على المنطقة بفضل بركته، و كانت المرأة التي تعالج الأطفال الصغار، النساء بالطرق التقليدية تفرح لسقوطه، بحيث تلحس بطنه و ليس ضهره كما أخبرنا " DEVULDER " و تبتلع إفرازات مرة يطلقها جلد الحيوان و بالتالي، تنتقل إليها قدرة سحرية تسمح لها من علاج المرضى بالحمى أو بالعين، بمجرد لحسها لمن يشكو من هذه الأمراض. و أطلعتنا هذه العجوز أن والدتها إستعملت هذه الطريقة و بدورها نقلت لإبنتها ما تعلمته من خبرة و معرفة في هذا الميدان.

هذه الطريقة لم يعد لها أثر في منطقة القبائل، لكننا وجدنا طريقة أخرى تستعملها المرأة التي تريد ممارسة السحر و هي أن تقصد شيخا معروفا في المنطقة من أصل مرابطي، يكون شيخ الطريقة، تطلب منه أن ينقل إليها معارفه و خبرته كي تعالج الأطفال الصغار من العين، يتفل في يدها، تلحس تفل الشيخ، و هكذا، تمتلك القدرة في العلاج، تستعمل هذه الطريقة خاصة من طرف القابلة، لأنها إمرأة صالحة تريد الخير للجميع، عملها يكمن فقط في تقبيل النساء و علاج الأطفال لذلك تعتقد أن عملها سيدخلها الجنة، بحيث إذا توصلت إلى قطع تسعة و تسعين سرة، تقيم وعدة كبيرة في القرية، كي تعلم الناس و تكسب إحترامهم. رغم ذلك، توجد بعض الإستثناءات، قد تنحرف القابلة إلى ممارسات سحرية سلبية، كأن تنزع الحليب و الزبدة من الأبقار بطلب من أشخاص يكنّون العداوة لغيرهم أو يحسدونهم، و أحيانا، تتحيل على الشيخ، يتفل في يدها، بهدف العلاج و لكنها تمارس السحر بنوعيه الإيجابي و السلبي، تدّعي أن الشيخ هو الذي عهد إليها هذه الممارسات و لقنها معرفة السحر الذي يصبح حرفة لها و وسيلة لكسب عيشها.

فالساحرة التي تمارس السحر بإرادتها و برغبة ملحة منها، تكون مسؤولة عن أعمالها في نظر المجتمع، فإن مارست عليه ما يؤذيه و ما يضره، عزلها، و نبذها و إعتبرها شيطانا، قادرا على تدمير حياة الناس و قتلهم بوحشية و بشاعة لاإنسانية. فالمجتمع يحمّلها عواقب أعمالها الشنيعة، بينما التي تمارس السحر رغما عنها، دفعتها قوة جبارة، قاهرة، ينظر إليها المجتمع بعين الشفقة لأنها مسيّرة و ليست مختارة.

(1) إنه حيوان يشبه الحرباء، لونه أصفر، رمادي، له بقع بيضاء، يأتي من الصحراء، تحمله الزوابع الرملية، نادرا ما يسقط و لكنه يحمل قوة سحرية بسبب الروح التي تحل فيه. كما كان يعتقد القبائل.

(2) DEVULDER (M), « **Rituel magique des femmes Kabyles** », extrait de « la revue africaine », tome C I, N° 452, 453, 3ème et 4ème trimestre, société historique algérienne, Alger, 1957, P 301, 302

ب- **الطريقة اللاإرادية** : تتعرض المرأة لأزمة نفسية حادة و صراع داخلي عنيف، تعيش في أوهام و تخيلات و هلوسة، إنه إجتياح لقوة خارجية، قاهرة تفسرها المريضة بروح الجن الذي يتملكها و يسيطر عليها، يجعلها في صراع مستمر بين عقلها و رغبة الجن في إمتلاكها و تلقينها أساليب السحر. كما يقول " CASENEUVE " مفسرا حالة الجنون الذي تتعرض له هذه الفئة إذ يرى أن : " الجنون دائما إشارة إلى موهبة الساحر، المزاج العصبي و الهيستيريا والأمراض كالعصاب هي مؤهلات لأعمال سحرية ". (1) الحالة أو الأعراض التي تظهر علىهذه المرأة ،أعراض عصابية، تعالج في مصحة الأعصاب هكذا تبدو لنا من الظاهر، و لكن جوهر الأشياء غير ذلك تماما، إنها ببساطة روح جني متسلط يرغب في إمتلاك المرأة، و يبدي لها شرطه، أي تمارس السحر، كما يسمى بالمصطلح العامي، " تزور " إن رفضت،يعذبها حتى تفقد عقلها تماما و تصبح مجنونة أي " درويشة " بمعنى فقدان الملكات العقلية . أما إذا وافقت على الشرط، تصبح أيضا " درويشة " و لكن بمفهوم السحر، تكشف الغيب، تبطل السحر و تعود مجددا إلى الجماعة في وضعية مخالفة، تعالج مشاكل و آلام الأخرين .

غالبا ما تتعرض المرأة لصرعة الجن نتيجة حادث أليم أصابها، أو مرض أو صدمة و هذا ماأخبرتنا به "لالاججيقة " من قرية ماكودة، تسيطر عليها جنيتين توأمتين، صغيرتين في السن، تعرضتا لها عندما مات زوجها و إبنها في حادث سيارة . أصيبت بصدمة، مرضت و مكثت في البيت خمس سنوات و هي في صراع مستمر مع الأرواح الخفية ، لكن في الأخير، رضخت لأوامر الجنيتين بعد مقاومة طويلة . الشرط الأساسي الذي يضعه الجني للمريض كي يمارس السحر عليه أن يذبح خروفا أو عجلا و يقوم بالطقوس المتتالية كل يوم خميس، و يلجأ إلى أكبر قدر ممكن من أسياد المنطقة و أوليائها، يبيت في المقامات، يذبح لهم، و يجدب على صوت الدفوق في " حضرة " تقام له ليلة الخميس .

لقد أطلعتنا " لالا ججيقة " على سرها و أعلمتنا أن الجنيتين اللتان تسكنان جسدها، لا يتجاوز عمرهما العاشرة، لذلك تشعر أحيانا بالرغبة في اللعب و أكل الحلوى، قالت أن صوتها يتغير إلى صوت طفلة صغيرة تبدوان لها غالبا في شكل حمامتين بيضاوين. لم نلاحظ ذلك عليها، ماشهدناه هوأنها تعطس كثيرا و كلما وجدت مشكلا ما عند زائرتها كالعين، التابعة أو السحر تتقيئى و ينتفخ بطنها، تقول أن ذلك من مفعول السحر، بمعنى ما تعانيه الزائرة، تعيشه الدرويشة ، و أخبرتنا أنها يجب أن تزور الشيخ " محند " بقرية " ثاسنانت " بإفليسن، هو الذي "ركب" لها الجنون (INITIER)، أعطى لها سبحة تزور بها و ترى بها الغيب، أكثر من ذلك، فإن روح التوأمتين اللتان تسيطر عليها هما اللتان تسكنان جسد الشيخ " محند " مع أرواح أخرى، تزوره بإستمرار، و كل خميس يقيم " حضرة " و ذبائح يجمع كل الدرويشات اللواتي يتعاملن معه.

يطلق القبائل مصطلح ثادرويشث (الدرويشة) على هذا النوع من النساء رغم عودتها مرة أخرى إلى المجتمع لتمارس السحر، لأنه يعرف أنها لا تزال مريضة و مختلة عقليا و لم تشف نهائيا من أزمتها، و هذا لاحظه المجتمع من شخصية هذه المرأة المتسمة بعدم الإتزان، و الإضطراب، تبدو دائما غير سوية و هي بحاجة مستمرة لزيارة الشيوخ الذين علموها السحر، كذلك تسكّن إضطراباتها من خلال ترددها على مقامات الأولياء و إقامة "زردة" كبيرة كل عام تقريبا، تسترجع هدوءها مؤقتا. فهي إذن لا تزال مريضة، عليها أن تقوم بمجموعة من الطقوس السحرية التي تقيها و تحميها من الجنون، و هي ممارسات ضرورية و أساسية للحفاظ على توازنها السيكولوجي.

(1) CASENEUVE, **Sociologie du rite**, P 179

كذلك بالنسبة للمرابطة و العرافة اللتان تقعان تحت سيطرة قوة خفية، إنها أرواح الأسياد و الأولياء كما تزعمان، تمارسان السحر بطريقة لا إرادية، إنهما تحت ضغط الأرواح. فكل من الساحرة التي توظف السحر بدافع تسلط قوة خفية عليها و الدرويشة و العرافة و المرابطة، لا يُمارسن السحر حبا فيه و لا رغبة في جمع الأموال و لكنهن مرغمات على ذلك، و قد أخبرتنا " لالا وردية " من قرية " تيرمتين" أنها لم ترغب في هذا العمل ولكن الأسياد الذين إختاروها لم يتركوا لها فرصة للرفض، و هي تعتبر نفسها غير سوية، حياتها غير طبيعية، لا تعيش كباقي النساء. أهملت زوجها الذي لا يدخل إلى البيت سوى للأكل و النوم، أحيانا، يغادر المنزل مدة أسبوع كامل، لم يطلقها و لم ينجح في منعها من هذه الممارسات، و لكنهما لا يعيشان حياة زوجية عادية. لا تمارس نشاطاتها اليومية كأي إمرأة و كأي أم. من الصباح إلى المساء و هي مع الزائرات، إبنتها هي التي تطبخ و تقوم بأشغال البيت.

تقريبا، كل الساحرات اللواتي زرناهن في عدة قرى من منطقة القبائل أفصحن لجميع الزائرات أن ممارستهن للسحر كانت بدافع الأرواح المتسلطة، فوجدن أنفسهن مرغمات على إتباع هذه الوظيفة، منهن من تعتقد أنهن مؤهلات طبيعيا و نفسيا لممارسة السحر لذلك إختارتهن الأرواح الخفية. لاحظنا عند كل الساحرات أسلوبا واحدا في الكلام، يبدأن دائما بالصلاة و السلام على الرسول (ص) و على الأولياء و السادات مع ذكر تقريبا كل الأسياد المشهورين بالمنطقة، و يكون الخطاب شعريا، و في قالب أمثال و حكم، و عندما يطلبن من الزائرة أن تقوم بطقوس معينة أو تجلب مواد خاصة، يتحدثن باسم الأرواح، (إنهم يريدون منك ...)، (إنهم يقولون لك ...) كما لاحظنا أن النساء الريفيات في منطقة القبائل مقتنعات بأن الساحرة التي تفك السحر بإمكانها أيضا أن تعقده بكل بساطة، لذا وجدنا عند الساحرات اللواتي زرناهن فئات من النساء و الشابات، منهن من تطلب الحظ و ترغب في الزواج، من تريد عقد السحر لزوجها كي تجلبه إليها، و من دفعت بهن الغيرة إلى الخوف الدئم من فقدان الزوج أو إستيلاء إمرأة أخرى على قلبه. فيصل الأمر بها إلى ربطه و منعه من الإقتراب من النساء، و من جئن للعلاج من العقم، خوفا من الطلاق.
المهم، أن بيت الساحرة، تقصده المرأة الريفية التي تشعر بالضغط و القهر، و تدفعها وضعيتها إلى اللجوء للسحر كوسيلة وقائية و سريعة تعيد بها مكانتها الإجتماعية.

III – فعالية المرأة في توظيف السحر :

تعيش منطقة القبائل بأسرها في جو و محيط مفعم بالمعتقدات الدينية و السحرية، تتوارثها جيلا بعد جيل، إذ نلمس طقوس و عادات شعبية قديمة جدا، لا تزال تحتفظ على حيويتها ووجودها. فعندما يجد الإنسان نفسه في وضعية حرجة، يشعر أنه يخالف الجماعة لمجرد أن يفقد ركيزة هامة تدعم و تثبت مكانته في وسطه الإجتماعي، لا يجد ملجأ آخر يعيد به وجوده سوى السحر. لكن عندما يتعلق الأمر بهذا الميدان يتباين خطاب الرجل مع خطاب المرأة. فمن الرجال من يرى أن المرأة ساذجة تعتقد بالخرافات و الأباطيل، تضيّع صحتها، وقتها ومالها. هناك من يرى أن المرأة في طبيعتها ضعيفة أمام الشيطان، أو ربما أخت الشيطان نفسه لذلك تميل إلى ممارسة السحر و الشعوذة بطبعها.
و فئة أخرى تقيّم السحر بالحرام و الشرك بالله و المرأة التي تمارسه و توظفه في حياتها، كافرة و ساحرة.

فالرجل يشعر بالخوف و عدم الإستقرار في حياته، لأنه دائما معرض لكيد النساء اللواتي يتقنن السحر و يحققن حاجاتهن بفضل تحايلهن و خداعهن للرجل، لذلك فهو ضحية المرأة.في هذا المعنى مقولة مشهورة عند القبائل : " إذا حلف فيك رجل فنم هنيئا، إذا حلفت فيك إمرأة فانهض و لا تنم ". يتضح إذن، كيف يخاف الرجل من كيد النساء. إذا وضعتك إمرأة نصب عينيها و عزمت على إيذائك، فلا تسترح و إحترس لكيدها. عندما نتحدث عن المرأة في المجتمع القبائلي، فإننا نسمع بالضرورة حكايات تروى في شأنها تقرنها دائما بالسحر. لقد حدث و أن نصحنا شاب و هو سائق سيارة أجرة، طلبنا منه أن يوصلنا إلى بيت الساحرة " لالا خديجة " بقرية " رجاونة " بأعالي " تيزي وزو "، كنا برفقة شابة عهدت الذهاب إليها لإزالة " التعريضة " التي تمنعها من الزواج. أبدى الشاب إستغرابه من سذاجتنا و قال لنا أن الفتيات و من بينهن الجامعيات يقصدن هذه الساحرة للزواج، يتأسف لتخلفنا و إيماننا بالخرافات، ثم نصحنا بأن ذلك مضيعة للوقت و للأموال، بالإظافة إلى اننا نقترف إثما و حراما، أخبرناه بأننا في صدد إعداد بحث حول السحر، و لكن يبدو أنه لم يصدقنا.

بينما في زيارة أخرى لمرابطة « لالا وردية » بقرية « هندو » تبعد عن دائرة عزازقة بعشرين كيلومتر (20 كلم) و عن " تيزي وزو " بخمسة و خمسين كيلمتر (55 كلم). حينما وصلنا القرية، لم نجد صعوبة في العثور على بيت المرابطة، كل السكان يعرفونها، قالت لنا مجموعة من النساء عائدات من جني الزيتون r أن الرجال أيضا يشهدون لها بالبركة و القدرة. و عندما وصلنا إلى منزلها، ترددنا بين منزلين متجاورين، فسألنا شيخا – كان جالسا تحت شجرة الصفصاف – فدلنا على بيت " لالا وردية " و تمنى لنا " زيارة مقبولة " على حد تعبيره. هذا يدل على إعتقاد الشيخ و إيمانه بقدرة المرابطة، لم يبد تذمره و إستياءه، بل بالعكس، أفرحه مجيئنا و إعتقادنا أيضا ببركة هذه المرأة، فهو يرى فينا إستمرار المعتقدات و الممارسات الطقوسية التي تركها لنا الأجداد، بالتالي يضمن ديمومة و إستمرارية الثروة الفولكلورية و المادة الشعبية لمنطقة القبائل.
هكذا، بين الشاب و الشيخ فوارق شاسعة و تباين وجهات النظر و صراع أجيال لا يمكن نكرانه، فالسن، و الثقافة عاملان أساسيان في ترسيخ هذه المعتقدات أو في زوالها. هذا من ناحية، و من ناحية أخرى تلعب وظيفة و إختصاص الساحرة دورا هاما في رواج سمعتها، فإنطلاقا من عملها تكتسب إقبال الناس إليها و تقبلهم لوضعيتها، كما يمكن أن ينفروا منها و تشكل لهم موضع إشمئزاز و خوف لخطورتها.

تتفاوت إذن، خطابات و مواقف الرجال مع النساء و الغريب في الأمر، هو الخوف المستمر، الكامن بين المرأة و الرجل. ففي المجتمع القبائلي، نلمس عدم ثقة و أمان مسيطرة على أذهان الناس. الرجل يخاف من كيد المرأة و يرى نفسه ضحية سهلة أمام حيلة المرأة و دهائها الشيطاني، بينما المرأة تنظر إلى الرجل على أنه مخادع، غشاش لا يؤتمن، خاصة إذا تعلق الأمر بمسائل الحب و الزواج، يطوعه قلبه و ينقاد لغرائزه. هذا هو طبع الرجال، لذلك لا تثق فيه المرأة الذكية، الفطنة، فالتي تثق في زوجها توصف بأنها غافلة و " نية ".

هذا الخوف من الآخر أدى إلى حذر شديد بين الجنسين و نفور واضح بين الرجل و المرأة، تسبب في خلق هوة واسعة بينهما و جهل الواحد للآخر، مما دفع المرأة إلى البحث عن وسائل سريعة و فعالة لإمتلاك الرجل و السيطرة عليه بواسطة السحر الذي تستحوذ فيه على قدرة كبيرة من المعارف التي تنقلها إلى غيرها من النساء. لم تحاول المرأة الريفية القبائلية فهم الرجل و التقرب منه لإكتشاف حقيقة طبعه و طبيعته، و إنما لجأت إلى توظيف السحر للتأثير عليه و تحقيق غاياتها الإجتماعية.

1- السحر بدافع الزواج :

للسحر أشكال و مظاهر عديدة، متنوعة لكن الذي تمارسه المرأة لغرض شخصي و ذاتي، كجلب الحظ مثلا بدافع الزواج يعتبر سحرا إيجابيا، لأن الفتاة التي طال زواجها في المجتمع القبائلي تشكل عائقا لعائلتها و لقريتها بصفة عامة باعتبار أن القرية التي تملك عددا كبيرا من العانسات يضرب بها المثل و تتحدث عنها القرى المجاورة بالسوء. فعدم زواج الفتيات في سن لائقة يجلب سمعة سيئة للقرية، ذلك يدل على أن فتيات هذه القرية لسن جميلات أو فيهن عيوب أخلاقية لذا لا يصلحن للزواج، و بالتالي، عنوستهن ستخلق خللا فادحا في النظام الإجتماعي للقرية، لتجنب الفوضى، على الفتاة أن تقدم حظوظ الزواج لنفسها، ما دام الرجل هو الذي يأتي إليها، ربما تطول هذه المبادرة لأسباب إجتماعية تمنع الشاب من القدرة على الزواج كنقص الوسائل و الإمكانيات، أحيانا إيديولوجية. هذا ما نلمسه و نراه بوضوح في بعض قرى المرابطين الذين يرفضون تزويج بناتهم بفئة القبائل، لأنهم يعتبرون من الأشراف لذا يتناسبون فيما بينهم، بينما أولادهم الذكور لهم الحق في الزواج بمن شاءوا من القبائليات لأن أبناءهم سينتسبون إلى الأصل المرابطي.

نظرا لهذه العادة و النزعة الإديولوجية للمرابطين،فإن بناتهم يشكين من العنوسة، خاصة بعض القرى، أصبحت معروفة بهذا الخلل الإجتماعي، كما نلاحظه في قرية المرابطين المسماة " ثمليلين " بإفليسن،توجد بنات أو بالأحرى نساء تجاوزن سن الأربعين . المجتمع القبائلي لا يتقبل عنوسة الفتاة إطلاقا لأن ذلك يشكل تشويها لصورة الفتاة و للعائلة . ففي هذا المنظور، يبدو السحر وسيلة ملحة و فعالة لإسترجاع مكانة الفتاة ثم الحفاظ عليها بواسطة الزواج الذي يمنح إستقرارا نسبيا للنظام الداخلي للقرية. تجد الفتاة نفسها مجبرة للخضوع لرغبة عائلتها بإلحاح من أمها، تزور الساحرة التي بوسعها أن تمنحها حظا لامعا، يجلب لها زوجا مسالما، خضوعا، مطيعا، فهي لا تقبل سوى زوجا تسيطر عليه، هذا لا يتأتى إلا بتوظيف السحر و الإستعانة بمجموعة من الطقوس تكون فعالة في تحقيق الزواج.

للوصول إلى غاية ملحة كالزواج، يشترط على الفتاة أن تؤدي طقسا تطهيريا أساسيا يستوجب تطهير الفتاة من العارض الذي يمنعها من تحقيق غايتها، قد يكون سحرا أو عين أو " تابعة ". لإزالته و إبعاده تقوم الفتاة بحمام تطهيري يخضع بدوره لطقوس سحرية عديدة تدعم فعاليته نباتات تحمل قوة سحرية تضفيها عليها الساحرة بطقوس لفظية ترددها حين قطفها، بالإضافة إلى عقاقير تدفع الرجل إلى الإثارة و الهيجان، تذكي فيه الرغبة الجنسية التي لا تشبع إلا في إطار محدد، مشروع في نظر المجتمع هو الزواج.

تتفق كل الساحرات اللواتي قمنا بزيارتهن على فعالية الطقس التطهيري فيما يتعلق بالزواج أنه شرط أساسي لا يمكن العدول عنه، قد تختلف و تتباين طرق الساحرة في تحظير هذا الطقس و المواد المستعملة لنجاحه، فكل واحدة تملك تقنياتها الخاصة، أسرار العملية السحرية لا تعرفها إلا المتمرسة، بحيث تتفوق بجدارة، كلما أثبتت هذه الطقوس فعالية و نجاعة في الواقع.

سجلنا طقسا تطهيريا عند زيارتنا للعجوز " يما عزيزو " أي أمي العزيزة، هكذا تلقب من طرف النساء، عجوز تجاوزت الثمانين تسكن بقرية « ثلا عثمان » بضواحي " تيزي وزو" تعالج الأطفال من العين و تغسل للفتيات المتأخرات عن الزواج، لا يزيد إختصاصها عن هاتين الوظيفتين، تشهد لها النساء بالحكمة و الوقار، تقول أن أمها علمتها طرق العلاج التقليدي، فوظفت معارفها لعلاج الأطفال و مساعدة البنات على الزواج و ترى في هذا مهنة نبيلة و شريفة. قصدناها مع أحد معارفها، فتحت لنا بابها و وضعت فينا ثقتها مما سهل لنا المهمة و إستطعنا الحصول على قدر لابأس به من المعلومات فيما يخص طقس التطهير، بحيث كانت متعاونة معنا و متفهمة لعملنا.

يجب على الفتاة التي تؤدي هذا الطقس أن تجلب كمية من الماء تكون من سبعة ينابيع مختلفة، تأخذه المعالجة إلى مقبرة القرية، يبيت للنحجوم من يوم السبت إلى يوم الثلاثاء، علما أن هذين اليومين خاصين بالعلاج و بالطقس التطهيري، تضع الماء على القبر و تقول : " مسثيف ما سنسغكن إيثران و لا مية الطلبة ما غران " بمعنى : أبيتكم للنجوم أفضل من قراءة مائة طلبة على الماء. هذا الطقس الكلامي يوضح الدلالة و القوة السحرية التي تملكها النجوم، لدرجة أنها أنجع من تلاوة مائة طالب زاوية. ثم تشتري الفتاة صابونة تمزجها المعالجة بنباتات غابية مختلفة منها ما تردد عند قطفها صيغا كلامية و منها ما لا تحتاج إلى الكلام، فقط على هذه المعالجة أن لا تتكلم مع أحد عند مباشرتها لقطف النبات، إذا سلم عليها أحد فلا تردعليها و إلافقد الطقس فعاليته .

من بين النباتات التي لا تستدع كلاما حين قطفها نجد، الياسمين، الزعتر، الحبق، القرنفل، أوراق الورد، حب الملوك، أوراق البرتقال، "إِنِجَلْ" (نبات شوكي يعطي توت الغابة)، " ثُوزَالتْ " (نبات يحتوي على الحديد)، هذه النباتات تحمل دلالات و رموز مختلفة حسب نوعها و طبيعتها فمنها التي تهزها الرياح، بحيث يصبح قلب الرجل كهذا النبات يهتز لرؤية الفتاة. أخرى شائكة، بهدف وخز قلب الرجل، ماهي رقيقة، لطيفة، عذبة كالياسمين و الورد، تجعل المرأة عذبة و رقيقة في نظر الرجل، أما النبات الذي يحمل الحديد يجعل حب الرجل قويا كالحديد . النباتات التي تتبع بصيغ لفظية عند القطف فهي النعناع و تقول : " سلام عليك أيمنعنع أيقظيب قْر إقظبان ألمسك أللبان عنغك ربي ذكرا إكبنان أيتوي سلمحبة و تهجيجة ذقيض أقزال أرقان " بمعنى : السلام عليك أيها النعناع، يا نبات المسك و اللبان (حبة عطرة تشبه المسك)، بالله أتوسل إليك و إلى من خلقك (و يذكر إسم الرجل) يتعلق بي حبا و هيجانا، لا يذوق طعم النوم لا في الليل و لا في النهار.
يوجد نبات آخر يسمى " إِفَرْ أَتْزِيزْوِيثْ " أي أوراق النحلة. عند قطفه تقول المعالجة : « سلام أعليك أيفر أتزيزوث ما مدن أقرنام إفر أتزيزويث نك أقرغام إفر أزويا، أدزلن غوري إنخضابن أكن تزلن أث أزويا أرلكعبة ". و معناه : السلام عليك ياورق النحلة إذا كان الناس يسمونك ورق النحلة أنا سميتك ورق الزوايا، سيجري إليا الخطاب كما يجري أهل الزوايا إلى الكعبة.
نبات ثالث يوظف في طقس التطهير يسمى : " كِيفْ العَلْمَةْ " تقول فيه المعالجة مايلي : « السلام عليك أكف العلمة مدن سمنام كف العلمة نك سمغام الرحمة، عنغام ربي أذلوليا لفلان (...) أيتوي قرولنيس أمفراخ أرتجرة " أي : السلام عليك يا نبات كف العلمة (و هو نبات ذو رائحة طيبة، تصنع منه العروس قلادة تعلقها يوم زفافها)، الناس يسمونك كيف العلمة أنا سميتك الرحمة، بالله و بالأولياء أتوسل إليك فلان (يذكر إسمه) يضعني بين عينيه كما توضع الفراخ على الشجرة.

بالإضافة إلى عشبة مهمة في الطقوس السحرية الخاصة بالزواج و هي " ثَرَا أُرْزَفْزَاقَنْ وَمَانْ" أي العشبة التي لا تبللها المياه، تتواجد على ضفاف الأنهار. و الصيغة الكلامية كالآتي: " السلام عليك أثرا أر زبزاقن ومان نك سمغام لوقام عناغام ربي ذكرا إكمبنان أميس (...) أيتوي قر ولنيس أكثر أقماس إثيد إسعان ". بمعنى : السلام عليك يامن لا تبللها المياه، أنا سميتك إستقامة بالله أتوسل إليك و إلى من خلقك إبن فلان (ذكر إسم أب الرجل الذي تريده زوجا) يضعني في عينيه أكثر من أمه التي ولدته.

نلاحظ في هذه الصيغ أن المعالجة تبدأ دائما بالسلام و التحية للعشبة، تبين لها تعظيمها و تقديرها للنبات، فالناس يرونه عاديا، طبيعيا، بحيث يسمونه كما هو في الأصل، بينما المرأة تبجله و تعطيه إسما يحمل قيمة كبيرة كالرحمة و الإستقامة و الزاوية، كلها ألقاب تشريفية للنبات الذي بدوره سيكون فعالا في الطقس السحري للقيمة التي أضفتها عليه المعالجة، زيادة على ذلك، فإن هذه الأنواع النباتية تتسم بالندرة، و الغرابة و لا يعرفها كل الناس، ذلك يزيدها قوة و فعالية في الطقوس السحرية. بعدما تحضر المعالجة كل النباتات اللازمة تعجنها مع الصابونة التي تكون الفتاة قد إشترتها يوم السبت أو يوم الثلاثاء، تضيف إليها قطرات من ماء الورد الطبيعي، قليل من العسل أو من الزبدة، قليل من المسك، العنبر و قطرات من الماء الذي بات ثلاثة أيام للنجوم، تطحن كل هذه المواد و تصنع بها صابونة.

تطلب من الفتاة أن تزورها يوم السبت أو الثلاثاء لأداء الطقس التطهيري، يتكون من الماء الذي بات للنجوم و الصابونة الممزوجة بالأعشاب. تقف الفتاة داخل " جفنة " كبيرة تصب عليها المعالجة الماء الذي أصبح مقدسا و تغسل لها بالصابونة و تقول : " السلام أعليك أصبونيو إمشبح مسرذاغ أكسوميو يسك إشبح أذرغاغ سقول (...) أم أملصبح ". بمعنى : السلام عليك أيتها الصابونة الجميلة إذا غسلت لحمي بك أصبح جميلا، أبيضا سأحترق في قلب فلان (تذكر إسم الرجل) كما يحترق المصباح. تردد هذا القول ثلاث مرات. عندما تنتهي تربط لها الحناء في يدها، يمزج بقطرات من الماء الذي بات للنجوم، يكرر هذا الطقس التطهيري ثلاث مرات بحيث يبدأ يوم السبت للمرة الأولى، الثلاثاء للمرة الثانية، ثم السبت للمرة الثالثة. يرمى الماء في مفترق الطرق أو في السوق، أي في مكان يمر فيه الرجال. بعد الإنتهاء من الإستحمام، تعلق الفتاة بعض العقاقير أو تأخذها في جيبها أو في حقيبتها، المهم، لا تخرج بدونها كي تجلب الحظ و تثير إهتمام و إعجاب الرجال بها، هذه المواد تشتريها عند العطارين أو تعطي مبلغا ماليا لمن عالجتها تشتريها بنفسها و يكون أحسن. هذه العقاقير تتمثل في :

- التَهْجِيجَةُ : حجر من البوتاسيوم أحمر اللون و يدل إسمه على طبيعته، فهو يهيّج الرجل و يثير مشاعره.
- الهَبَّالَةُ : حجر من الجير وردي اللون، يستعمل لجعل الرجل مجنونا في حبه للمرأة.
- حَبْ الوَسْوَاسْ : حجر بلوري يميل إلى الإصفرار يدخل الوسواس في قلب الرجل و يصبح متيما، و لهانا بحب المرأة.
- حَبْ السْكَتْ : حبوب بنية اللون، تستعمل للسيطرة على الرجل تجعله ساكتا، لا يتكلم و الغرض منها : إستحواذ المرأة على عقل الرجل و قلبه و إمتلاكها له.
- دَمْ لَخْوَا : حجر كلسي أحمر كالدم، له ثقوب صغيرة، متراصية، دلالته تكمن في أن المرأة ستجري في دم الرجل فلا يتركها أبدا.
- المَسْتَكَةُ : حبة صفراء يابسة، لها رائحة طيبة بحيث تجلب إهتمام الرجل بالمرأة.
- جُوْز الشَرْكْ : حبات صغيرة في حجم حبات الفلفل الأكحل، حمراء اللون.

-لِيفْ رُوحْ : إنه رأس ثعبان في حجم صغير جدا، " اللِّيفْ " بمعنى الجَيْب، بعض الجهات في منطقة القبائل تستعمل لفظ " الليف "للدلالة على الجيب، قديما كان الرجال يحملونه في جيوبهم ليمنعهم من التبذير و الإسراف في أموالهم، يسمى "بليف روح". كذلك تكون المرأة دائما داخل جيب الرجل، ترافقه حيث ما كان. كل هذه العقاقير (أنظر الصورة رقم 31) يضاف إليها الجاوي، القرنفل، الزعفران و الملح، تبيت للنجوم ثلاثة أيام من السبت إلى الثلاثاء، ثم تقرأ عليها المعالجة صيغا سحرية تدعم طقس التطهير، تربط هذه المواد في قطعة قماش و تأخذها الفتاة معها، لا تنزعها حتى يوم زفافها.

على الفتاة أن تردد صيغة سحرية بعدما تنتهي من هذا الطقس كي " تحجب نفسها " أي تضع حجابا بينها و بين أعدائها أو بينها و بين المانع الذي يعيقها عن الزواج فتقول : " ثكلي إنوغ هلي هلي، ثوغيال أنتيه ذفيري أذكسغ لعقل إشباباث أم أممغار إملمزي، بسم الله إنور، حجبغد إمنيو لحجاب المستور ". معناه : أسير بهدوء و تبختر، الحمارات (يقصد بها الفتيات) ورائي، أخطف عقول الشباب و الشيوخ، باسم الله منير، وضعت حجابا مستورا لنفسي. هذه الصيغة شرط أساسي لفعالية الطقس لأن بهذا الكلام تضع الفتاة حجابا، مانعا يقيها من السحر و العين، يجب إتمام طقس التطهير بكلام سحري للوقاية، كأنه المفتاح الذي تسد به كل ثغرة و تغلق أبواب الحسد، الشر و السحر.

نلمس الأبعاد الدلالية لطقس التطهير الذي يشمل أساسا على عنصرين هامين هما : الصابونة و الماء شرطان أساسيان للإستحمام، فالصابونة تمثل الفتاة التي ينتقل إليها البياض، الطهارة، الجمال، النعومة و العذوبة التي تحملها النباتات، العسل أو الزبدة التي تضاف إلى الصابونة ترمز إلى تقارب و إلتصاق حب الرجل بالمرأة كما يلتصق العسل. أما الماء فيمثل الرجل الذي يجري مسرعا إلى المرأة، كما يجري الماء و يسيل بدون توقف. إلتقاء الماء بالصابونة في هذا الطقس يرمز إلى لقاء بين الرجل و المرأة بكل أبعاده العاطفية و الجنسية. ما يدعم إعتقادنا هذا، هو تركيز المعالجة – حين تغسل للفتاة – على أعضاء خاصة كالثديين، الفخذين، البطن و الرحم و بذلك تكتسب الصابونة إثارة كبيرة، تنعكس على الرجل.

أما بالنسبة للعقاقير المستعملة و المكملة للطقس فهي كما يبدو على أسمائها " كالتَهْجِيجَة " و "الهَبَالَة" فهي تنادي و تطلب الرجل، تهيجه، تثير مشاعره، عواطفه و قد تدفعه إلى الجنون إذا لم يتوصل إلى المرأة المعنية. أما القرنفل،الجاوي و المواد الآخرى التي تحمل رائحة طيبة، فإنها تجلب قلب الرجل برائحتها القوية المؤثرة و الطيبة.
كل هذه الطقوس غرضها الأول و الأخير هو إضفاء جمال سحري على الفتاة الراغبة في الزواج، تؤدي الساحرة دورا فعالا في جلب الحظ و تحقيق هذه الغاية المهمة بالنسبة للفتاة و للعائلة، بالتالي تضمن مكانة في هذا المجتمع الذي لا يقبل وضعية العنوسة. رغم تحقيق الزواج، يبقى الخوف ملازما للمرأة التي تعيش في قلق مستمر و شكوك تدمّر إستقرارها ووساوس تجعلها مضطربة، خائفة لفقدان زوجها أو إستحواذ إمرأة أخرى به لأنها تعلم يقينا أن من تربصت به ، ستنجح في كسبه، مبنية فكرتها على إعتقاد المرأة بأن الرجل لا أمان له و لا تضع فيه ثقتها أبدا، المرأة الفطنة هي التي تحرس زوجها و تراقبه، كي لا ينزلق و لا يضعف أمام كيد و سحر النساء، و خوف المرأة الريفية من الخيانة الزوجية، تجعلها تتعلم كل الطرق و الأساليب الممكنة التي تحفظ و تحمي العلاقة الزوجية من التفكك و الإنقسام. و لا سبيل لتحقيق هذه الغاية سوى اللجوء إلى الممارسات و الطقوس السحرية .

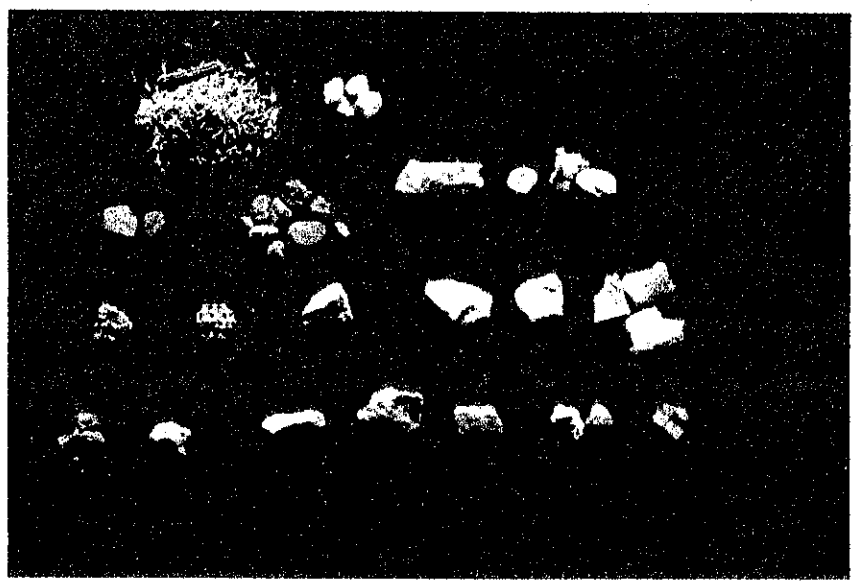

الصورة رقم (31)

المواد التي توظفها المرأة في الطقوس
السحرية بهدف الزواج و لدوام العلاقة
الزوجية و تعلق الرجل بالمرأة.

2-السحر لإستمرار العلاقة الزوجية :

في السحر الخاص بالزواج،يكون الرجل المقصود – غالبا – غير معروف، السحر لا يوجه لرجل واحد، إنما للرجال بصفة عامة بقصد لفت إنتباههم و إهتمامهم بالفتاة. أما عندما يتعلق الأمر بوجود رجل في حياة المرأة و هو زوجها و عقد السحر عليه هو بالذات، يكون الشخص معلوما و مقصودا ترغب الزوجة في إمتلاكه و المرأة الأخرى في الإرتباط به، ذلك بتوجيه و تسليط السحر عليه، و إجباره سحريا في التعلق بالمرأة التي لا يرغب فيها أحيانا . فإخضاع الرجل لإرادة المرأة يكون بدافع الإمتلاك و الغيرة و الخوف من فقدانه. لهذا تلجأ المرأة إلى طقوس سحرية و أساليب مقرفة و سلبية – في نظرنا – لأنها تتعلق بإستعمال أعظاء الموتى و بعض إفرازات الجسد،لكن المرأة التي توظف هذا السحر تقول :" أن الغاية تبرر الوسيلة "، بما أن هذه الطقوس لا تضر زوجها فهي إيجابية. عندما يتعلق الأمر بغيرة المرأة على زوجها فإن كل الطرق مقبولة، بإمكانها أن تصنع المستحيل لضمان حب زوجها لها مدى الحياة .

لهذا الغرض إذن، توظف المرأة الريفية مجموعة من الطقوس السحرية و أنجعها هي تلك التي تقوم بها ليلة زفافها،حيث تحجب زوجها من اليوم الأول و بالتالي،لن ينظر إلى إمرأة أخرى، إنه طقس فعّال و ناجع أثبتت لنا " خالتي حليمة " (1) نجاعته و أفصحت لنا عن طريقة إستعماله و هي كالآتي :

في اليوم الأول من زفافها، بعد العملية الجنسية تمسح المرأة فرجها بقماش ثم تضعه في شراب زوجها (قهوة أو شاي) و تقول : " السلام عليك أثلا ملقواس أدرنار إحياك و لا إيرناس، أميس ألفلان (...) إثولذ لفلانتقا (...) أيتباع أكن إ تبع إزمر يماس " أي : السلام عليك أيتها العين المقوسة التي لم تغسل فيها السجاجيد و لا البرانيس إبن فلان (تذكر إسم أبيه) الذي ولدته فلانة (تذكر إسم أمه) سيلاحقني مثلما يلحق المعز أمه . يبين لنا هذا الطقس كيف تستعمل المرأة أو تدمج إفرازاتها الجسدية مع إفرازات زوجها و هذا لخلق تقارب حميمي وعلاقة وطيدة بين الزوجين مدى الحياة. تثبت النساء صحة و فعالية هذا الطقس، لدرجة أن المرأة التي حجبت زوجها لا يمكن أن يخونها أبدا. طريقة الحجب لا تكون إلا باقتران الخصوصيات الداخلية للمرأة و الرجل معا. فكي تكسب المرأة حب زوجها تلجأ إلى طريقة أخرى تقتضي خلط طعام الزوج بأعضائها الداخلية، كأن تتوضأ بالزيت و يدهن به الطعام الذي سيتناوله زوجها و شرط فعالية هذه الطريقة أن لا يطبخ الزيت و إلا فقد فعاليته. هناك طقس آخر تؤكد عليه " خالتي حليمة "، تقول أنه فعال جدا، بحيث، تأخذ المرأة شعرتان من الجهة اليمنى للرحم، تلفها على قطعة لحم، تضعها بين فخذيها و تنام. في الصباح، تقوم بطبخ قطعة اللحم و تقول : " سشغاك أزغبي إميس ألفلان (...) أيتمني، أوليو أم ثممث أكنوذي". المعنى كالتالي : أطعمتك من شعري لإبن فلان (تذكر إسم والد الزوج) أثير فيه الشهوات و كلامي كالعسل و الزبدة.

ثم تضع قطعة اللحم على الجهة اليمنى من جبهتها مشكلة بها خطا أفقيا و تقول : " أسيا ذا الخط " من هنا الخط، تضع القطعة في وسط جبهتها و تردد نفس القول، ثم تضع اللحم في الجهة اليسرى و تقول : " أوال إكنيغ ثغط ما أمرغك أف باباك أذيماك ثتغاط " أي : الكلام الذي أقوله لك تصدقه إذا أمرتك بقتل أبيك و أمك فافعل. بعدما تنتهي من هذا الطقس تعطي قطعة اللحم لزوجها يأكلها.

(1) العجوز حليمة من قرية **أيت يوسف** بإفليسن ، تعالج الأطفال من العين و تمارس السحر الخاص بتوطيد العلاقات بين الرجال و النساء و هي قابلة أيضا .

نلاحظ في هذا الطقس دعوة صريحة لإقامة علاقة جنسية، بحيث يكون السحر وسيلة غير مباشرة للحصول على غاية المرأة، بالإضافة إلى هدفها الأساسي الكامن في السيطرة الكلية على الزوج، ليخضع خضوعا تاما لامرأته، فإن طلبت منه أن يقتل أمه و أباه لأطاعها. نلمس إذن مدى رغبة المرأة في السيطرة على زوجها و هي تعلم يقينا أنها لن تحقق ذلك إلا بالطرق السحرية التي تملك وحدها أسرارها و نتائجها.

بينما إذا شكّت الزوجة أن في بيتها سحر، وضع من طرف امرأة تكنّ لها الحسد و البغض، نتيجة لتأثير السحر عليه،تغير تجاه زوجته و كرهها و أصبح يعاملها بقسوة كأنها أجنبية، غريبة عنه. في هذه الحالة،تبحث المرأة عن خنفوس أسود، تضعه في إناء من حديد و تقول : " سلام عليكم أيعوذو أبركان، عنغاك ربي ذكرا إكدبنان،أسغد أكوغ أتكسض أشوال بخام " أي :السلام عليكم أيها الحصان الأسود،بالله أتوسل إليك و إلى من خلقك،جئت لآخذك إلى بيتي تزيح عنا الهموم. تقلي المرأة الخنفوس فوق النار، يطلق رائحة قوية في المنزل، تتركه فوق النار حتى تزول الرائحة، وهكذا يموت مفعول السحر بسبب الرائحة القوية للخنفوس .

المرأة القبائلية تعمل كلما بوسعها للحفاظ على زوجها و على إستقرار العلاقة بينهما. فعندما يتصل المشكل بحياتها الأسرية و بزواجها، تصبح يقظة، مدافعة، منتقمة و عنيفة مع كل من يتربص بها و من يحاول تدمير علاقتها الزوجية تكون له عدوة و لا تبال بإيذائه إسترجاعا لحقها الذي تراه شرعيا و تعتقد أن واجبها الأول و الأخير هو سهرها المستمر و تعبها الحثيث من أجل حماية الزوج و إستمرار العلاقة الزوجية في الإطار الذي تحدّده هي و تبني أسسه بوسائل سحرية فعالة. لكن لماذا إختارت المرأة الخنفوس بالذات ؟ أجابتنا " خالتي حليمة " بأن الخنفوس يستعمل كمادة وقائية من السحر و الشر،لأن في جلدته قوة سحرية عند إستعماله في " البخور " التي تطلق في كل أرجاء البيت، يدفع و يبعد الشر و الحسد . الرائحة التي يطلقها الخنفوس تطهر البيت بأكمله من السحر، من ثمة يتطهر الزوج من السحر و يعود إلى حياته الطبيعية مع زوجته .

تلجأالمرأة الريفية في منطقة القبائل إلى بيت الساحرة كلما شعرت بالخوف من ضياع زوجها، و في بعض الأحيان، تأخذ إحتياطاتها مسبقا للوقاية من أي طارئ يعكر صفو حياتها، لهذا الغرض، تستعين بالعقاقير التي تجعل الزوج هائما بحبها، لا يرى سواها، من بينها تستعمل التّهْجِيجَة، الهَبَالَة، الشّنْشَافَة، حَبْ السْكَتْ، القرنفل، الملح، الجَاوِي، تضيف لهذه العقاقير لِيفْ رُوحْ، تكون الساحرة قد وخزت عينيه بإبرة و خيط لكي لا يرى سوى زوجته، يعمى إزاء النساء الأخريات، توضع هذه العقاقير في خرقة قماش، بعدما تبيت للنجوم و تقرأ عليها الساحرة صيغا سحرية، تضعها المرأة تحت السرير أو في غرفتها، ثم تطلق "البخور " في أرجاء البيت الذي يتكون من نبات الخُزَامَى و الجَاوِي و تقول : " لخزامى عزم أرقازيو غوري أديدهم "، يا الخزامى كن ساحرا، إلي يقبل زوجي. عندما تطلق رائحة " البخور "، تضع العقاقير المذكورة سلفا، داخل مادة " البلاستيك " و تغمسها في الملح حتى لا يبطل " البخور " مفعولها السحري(1).

(1) أخبرتنا خالتي حليمة بأن الحروز، الطلاسم و العقاقير السحرية تفقد مفعولها بمجرد قطع البحر بها و السفر، لكي تحافظ على مفعولها توضع في الملح مع أضافر الحمار.

لا يصح لنا أن نحكم جزافا على المرأة،بأن دافع الغيرة هوالسبب في لجونها إلى السحر ، إنما ضعفها و سيطرة الرجل عليها، جعلها تندفع وراء رغبتها في قلب الموازين و إخضاع الزوج لها، ذلك لن يتأتى إلا بالسحر، الوسيلة الوحيدة التي تقمع نزوات الرجل و تحدّ من تجبره و عنفه. فالسحر ردّ فعل المرأة الوحيد، تجعل به الزوج أعمى أمام تصرفات زوجته، لذلك تعمد إلى بعض الطقوس تجد فيها منفذا لاسترجاع إعتبارها. تحكي النساء الريفيات عن طقس فعال، يجعل الزوج ساكتا، بل أعمى أمام زوجته. تأخذ إذن، قطعة من " الشَّنْشَافَة " (منشفة البحر) مع خيط من الصوف تنزعه من حزامها، تضيف " حَبّ السّكَتْ " مع قليل من التراب الذي يقف عليه الطائر الملقب بالملك الحزين، تضع هذه المواد في طعام زوجها، بكميات تلقنها إياها الساحرة كي لا ينضر الزوج، و بالتالي، يصبح ساكتا، لا يعارض أبدا زوجته، كالملك الحزين الذي لا يصيح إطلاقا. بكل هذه المواد و العقاقير و الطقوس السحر تربط الساحرة الرجل بالمرأة كما يقول " **VILLENEUVE** ". "الساحر يجمع الأشخاص الذين هم أصلا مرتبطين طبيعيا ...يربط الروح بأخرى، كما نربط نباتين متباعدين فيما بينيهما" (1).

خوف المرأة من فقدان زوجها و غيرتها العمياء، تدفع بها إلى ممارسة السحر على زوجها بتوجيه من الساحرة، فهي التي تقوم بطقس الربط (**LIGATURE**) على الزواج، تجعله عاجزا جنسيا مدى الحياة، تستعمل هذا الطقس لضمان وفاء الزوج لها، بحيث لا يستطيع أن يتزوج عليها ما دامت على قيد الحياة، و أكثر من ذلك، فإن من النساء من تربط زوجها حتى بعد موتها، فهي لا تتحمل إرتباطه بإمرأة أخرى رغم غيابها عن الحياة، إنه نوع من الغيرة و الإمتلاك المرضي الذي يجعل المرأة تصل إلى إقتراف جريمة في حق زوجها، كما سنراه في الطقس الموالي، يقتل الزوج ثم يدفن رمزيا. تؤكد النساء على فعالية هذا الطقس و نجاعته نظرا لصعوبته و خطورته. يسمى هذا الطقس ب " تَاكْلُوتْ " أي : ربط الروح. الروح في الثقافة القبائلية تعني الأعضاء الجنسية للذكر، بينما النفس تعني :الأعظاء الجنسية الأنثوية. فالروح مذكر، النفس مؤنثة ، لذا في طقوس الحب التي تمارسها المرأة من أجل كسب حب زوجها لها تعمد إلى مزج إفرازاتها الجنسية مع إفرازات زوجها،كما رأيناه في الطقس الذي تحجب المرأة فيه زوجها هذا يدل على ربط الروح بالنفس، بالتالي :إقتران الرجل بالمرأة و تقاربهما طول الحياة تماما كالنفس التي لا تنفصل عن الروح.

أشرنا سلفا إلى قتل رمزي للرجل،بما أن المرأة تسجنه بالسحر و تربطه عن إشباع حاجاته البيولوجة حيث يقال " تْكْسَاسْ أدْنِيثْ " أي :إنتزعت منه الحياة ، ففي منطقة القبائل يرمز إلى العضو الذكري ب " الدُّونِيثْ " الدنيا ، فكل من تعرض للربط يقال عنه :ليس له الدنيا بكل ما تحمله هذه الأخيرة من لذة و متعة و شهوات ، كما يحيلنا هذا المفهوم إلى معنى أخر يقصده القبائل و هو الإشارة إلى العقم الذي بدوره يرمز إلى إيقاف مسار الحياة الطبيعي .

(1)Villeneuve Rolland, **l'envoutement**, la platine, Geneve et paris, 1963, p, 13

طقس الربط يستدعي عملية الدفن و هي شرط أساسي في تثبيت السحر و دوامه مدى الحياة. يخضع للخطوات التالية :

عندما ينام الزوج،تأخذ المرأة خيطا من صوف الخروف تقيس به العضو الجنسي لزوجها و تقول : " قسغك أدنيتك أس ولمان أرتتغظ ثمطوث أنيظن خاس ما إروح أقرييو"،معنى هذه الصيغة كالآتي : أقيس عضوك الجنسي بالخيط،كي لا تتزوج بامرأة أخرى و لو بعد مماتي.
ثم تأخذ صوف الخروف تكون غير مغسولة تمسح بها فرجها بعد العلاقة الجنسية مباشرة بعدما تصنع عضوا جنسيا بالطين، يجب أن ينطبق الشكل تماما للأصل، تقوم بطبخه على النار، ثم تلف حوله الصوف الذي مسحت به وتربط كل العضو بالخيط الذي إستعمل لقياس الزوج، تدفنه في قبر مهجور و تقول ثلاث مرات : " مضلغك أم الميث أدو أبكال " أي دفنتك كالميت تحت التراب .

بهذا الطقس، يصبح الزوج عاجزا جنسيا طول حياته، إنه قتل الزوج و دفنه بعد ذلك، فقياسه بالخيط الذي يستعمل للحياكة و نسج البرانس، يحمل قيمة جوهرية في الثقافة البربرية، يمثل هذا الخيط روح ألة النسيج بما أن المرأة القبائلية تقوم بنسجه مرتين متتاليتين على الآلة و بالتالي يصبح قويا، مقاوما لا يتمزق حين تحيكه على ألة النسيج. نجده في كثير من الطقوس الوقائية، فالأطفال الصغار يتم قياسهم بهذا الخيط و هي طريقة تسمى " بالشِبيرْ " من الشبر، أي القياس، ذلك لعلاجهم من العين، بحيث تنتقل قوة و صحة الخيط إلى الطفل. في الطقس الذي يقصد فيه ربط الزوج هو رمز إلى تدمير قوة الرجل و قتله، ذلك بدفن الخيط و كما تشير إليه الباحثة " نجيمة بلونتاد " (**PLANTADE**) " بهذه العملية، يتم تحويل روح في روح أخرى ". (1) إنتقال روح الزوج في الخيط و إمتلاك المرأة لهذه الروح التي أصبحت في قبضتها ثم تدفن الخيط في قبر مهجور، ذلك يعني دفن روح الزوج تحت التراب أي موته الرمزي.
هذا النوع من السحر السلبي يؤثر على حياة الرجل، بل يدمرها، لأنه يصبح تحت السيطرة الكلية للزوجة، و حياته بأسرها في قبضتها، فلا يستطيع إسترجاعها إلا بطريقتين :

<u>الطريقة الأولى</u> :

في حالة ما إذا إنتبه الزوج إلى أنه مسحور من قبل زوجته و هي السبب في حرمانه العاطفي و عجزه الجنسي، يأمر زوجته في فك السحر المسلط عليه، و بتهديد منه توافق في إبطال مفعول السحر، حيث تنزع العضو الجنسي من القبر و الذي يرمز إلى روح الرجل و الصوف التي ترمز إلى نفس المرأة و الخيط الذي ربط به العضو، يحمل روح و حياة الزوج بأكملها، تخرج هذه المواد من القبر، أي من تحت الأرض إلى النور وتفك الرباط بنزع الخيط و هو فك رمزي لموت الرجل، بعدها تقذف كل هذه المواد في النار، تضيف لها الجاوي و بالتالي، يسترجع الرجل قوته الجنسية. أما إذا ماتت الزوجة و رغب الرجل في الإرتباط بامرأة أخرى، فوجد نفسه عاجزا جنسيا، و لفك هذا السحر، توجد طريقة واحدة فقط تمليها الساحرة للرجل و هي كالآتي :

(1) Plantade, **<u>la guerre des femmes</u>**, p ,56

الطريقة الثانية :

تتمثل هذه الطريقة في نبش قبر الزوجة، بحيث ينزع الزوج سنة لزوجته الراحلة و يخربها، يتجردمن ثيابه، يضع إناء البخور بين رجليه ، كي يتصاعد البخار إلى عضوه الجنسي، بهذا الطقس تعود إليه حياته التي كانت في قبضة زوجته الراحلة. أثار تساؤلنا هذا الطقس الذي يتسم بالغرابة و الغموض، دفعنا الفضول لإستقصاء الأمر و حاولنا فهم دلالة الأسنان في فك هذا السحر، لكن للأسف،إصطدمنا بفقر كبير في المعطيات .

أولا : لأن الموضوع يشكل " طابو " بالنسبة للنساء اللواتي يمارسن هذا السحر.

ثانيا: الساحرة نفسها لا تعرف لماذا تستعمل أسنان المرأة بالذات لإبطال سحر الربط و ما هي العلاقة التي تربط أسنان الزوجة بإستمرارية حياة الرجل ؟

ما توصلنا إليه من خلال إستجوابنا لساحرة تدعى "لالا فاطمة " بقرية " ثمعسيث " تبعد عن مدينة " عزازقة " بسبعة و عشرين كيلومتر و عن " تيزي وزو " بإثنين و ستين كيلومتر. أخبرتنا، بأن القبائل قديما كانوا لا يخطبون الفتاة التي تحمل فلجا في أسنانها، ذلك يدل على اللعنة، فهذه المرأة سيموت زوجها حتما قبلها. أضافت قائلة أن القبائل يشيرون إلى اليتيم بقولهم : " إِشَا إِمَوْلَانِيسْ " بمعنى : أكل والديه، أي ماتوا. و يرمزون أيضا إلى العلاقة الجنسية مستعيرين نفس الفعل " إِشَاتْ " أكلها أي أقام معها علاقة جنسية، فالجنس و الأكل بالأسنان مرتبطان بشكل حميمي .

يبدو إذن أن توظيف طقس فك الربط، مبني أساسا على هذا الإعتقاد، فالرباط بين الرجل و المرأة مجسد في أسنان هذه الأخيرة، عندما يحرقها الرجل في " البخور " يتمزق الرباط الذي يجمعهما في الحياة و يستعيد الزوج حريته.

إن الطقوس السحرية التي تستدعي عملية الدفن بالنسبة للرجل أو للمرأة، تتسم بالغرابة، و كلما يتعلق بالميت، كالكفن، الصابون الذي يغسل به الميت، الماء الذي يستعمل لنفس الغرض، إذا إستعمل الرجل هذه المواد، يصاب بعجز جنسي لا تفكه إلا الساحرة الماهرة، إذا تم دفنها، لا يمكن إبطال السحر إلا بإستئصالها من القبر، و نلاحظ أن القبائل يدفنون الخير كما يدفنون الشر أيضا، فبعض الأمراض التي تعالج بالطرق التقليدية يتم دفنها كي يزول المرض نهائيا، كما أن المرأة التي يتربص بها أعداؤها و يضمرون لها الشر و الحسد، فيلجؤون إلى طقوس سحرية تستدعي عملية الدفن فتصيب المرأة بعقم دائم لا تفكه إلا بطقوس سحرية مماثلة. هذا ما سنتطرق إليه لاحقا.

3-السحر وسيلة للإنجاب :

تبقى المرأة الريفية في حيرة، يساورها القلق رغم إستمرار علاقتها الزوجية، فإن مضت بضعة أشهر على زواجهاو لم يحدث الحمل، ساورتها الشكوك و الأوهام و شعرت بالخوف من شبح الطلاق الذي يهددها إن لم تنجب، و الرجل في منطقة القبائل له الحق الكامل في الزواج مرة ثانية. قد يطلق زوجته لعدم الإنجاب، فلا عيب في ذلك، بل تدعمه العائلة و يدفعه المجتمع بإلحاح .

فالمرأة التي لا تنجب، لا تساهم في إستمرارية العائلة و بدورها تشعر بالنقص كلما فشلت في أداء وظيفتها الإجتماعية و الإرتقاء إلى مرتبة الأم التي تسمح لها بكسب مكانة إجتماعية لائقة، محترمة و كاملة في نظر المجتمع . بعدما تزور المرأة الأطباء و يؤكدوا لها عدم وجود مرض عضوي يعيقها عن الإنجاب، قبل أن ترضخ للقدر، تحاول تحقيق رغبتها بوسائل أخرى تتعلق بالعلاج التقليدي، بالطقوس السحرية التي ترمي إلى إزاحة المانع في وقوع الحمل .

لقد سجلنا نقطة مهمة في هذا الموضوع و هي وجود طريقة يعرف من خلالها مصدر العقم، إن كان من المرأة أم من الرجل.
أخبرتنا السيدة " حياة " (1) أنها لجأت إلى أعالي جرجرة و بالضبط في "عين الحمام" أين يسكن "الشيخ رابح" الذي يعالج العقم و أمراض النساء و العجز الجنسي، يعالج بالأعشاب و العقاقير. تساعده زوجته في ذلك، تقول هذه السيدة أن عيناه مكتحلتان، شعره طويل في شكل ضفيرة و أحيانا يعقده بمنديل، لحيته مصبوغة بالحناء، يباشر عمله بأسئلة روتينية، لقد سألها عن سنها ؟ مدة زواجها ؟ هل تعاني من مرض ما؟ هل خضعت لتحاليل طبية ؟

بعد ذلك، أعطى لها توما مغطاة بصوف الخروف، ربطها بخيط طويل، طلب منها أن تضعها في رحمها، بحيث يبقى الخيط خارجا حتى تتمكن من سحب التومة فيما بعد، تستلقي مدة من الزمن، ثم تأتي إليها زوجة الشيخ، تطلب منها أن تفتح فمها لتشتم رائحة التوم، فإن خرجت الرائحة من فمها هذا يعني أنها ليست مريضة و بإمكانها الإنجاب، أعطى لها الكمون و طلب منها أن تمزجه بالعسل و تفطر عليه كل صباح مدة سبعة أيام.
بعدما إتضح أن الزوجة سالمة، ينتقل الشيخ إلى الزوج. طلب منه إحضار " الطاجين " الذي يستعمل لطهي الخبز، يكون جديدا، يسخنه جيدا ثم يفرغ فيه سائله المنوي و يأخذه إلى الشيخ " رابح " ليشخص حالته و يتوصل إلى مصدر العقم، إن كان سببه مرضا جنسيا أم سحرا، من ثمة يتمكن من إيجادالعلاج للزوجين .

عندما نتطرق إلى عقم المرأة في منطقة القبائل، يصادفنا طقس أساسي توظفه المرأة جرّاء وجود قوة خفية تعيقها عن الحمل و هي الجن، المتمثلة في " التابعة "، هذا الطقس إذن، كما تقول عنه النساء يسمى: " أَسْفَلْ " يقتضي تحويل المرض على حيوان خاص كالعجل أو الخروف أو الدجاجة أو الحمامة، المهم، تقدمه المرأة التي لم تنجب أو يموت لها أولادها،أو يستعمل للأطفال الصغار المصابين بالعين والحمى وأوجاع الرأس وكل الأمراض التي عجز الأطباء عن علاجها.
هذا الطقس يسمى في بعض المناطق من الجزائر " بالنَشْرَة " ويشير لهذا المعنى :
" **DERMENGHEM** " في تعريفه لهذا الطقس السحري بهدف إبعاد الأمراض فيقول : "إنه تضحية حقيقية لطرد الشر...في الوضع الطاهر، النشرة هي الحدود بين طقس سحري للطرد و تحويل الشرو نشاط ديني لصالح الجن ." (2).

(1) حياة، عمرها ثلاثين سنة، معلمة، متزوجة منذ خمس سنوات، تسكن بإقليسن، تحاول الإنجاب بكل الطرق،الطبية و التقليدية، زوجها يرفض الخضوع للفحوصات الطبية، ملقيا المسؤولية عليها كاملة .
(2) Dermengheim, **le culte des saints dans l'islam maghrebin**, p, 157

يتكون طقس " أسفل " من ثلاثة عناصر أساسية هي :

أ- مادة " أسفل ":

يشمل هذا الطقس دائما على ذبيحة معينة يحوّل إليها المرض، إما دجاجة، حمامة، أرنبا، خروفا أو عجلا، أحيانا، يكتفي الطقس برأس خروف أو رأس عجل أو لحم شرط أن يذبح في اليوم الذي يقدم فيه الطقس " أسفل " .

ب- موضوع " أسفل " :

يستلزم على من قام بالطقس أن يذبح الضحية التي يحوّل إليها المرض كالعقم مثلا، بعدما يطوف الحيوان على المريضة سبع مرات، و يبعد الأطفال من ذلك المكان و الفتيات و إلا إنتقل العقم إليهن أو المرض إلى الأطفال، ثم يطبخ اللحم و تأكله المريضة، تستطيع أن تأكل منه العجائز و الشيوخ فقط .

جـ- دفن " أسفل ":

تدفن الأعضاء التي لا تؤكل و كل ما يتعلق بالذبيحة من صوف و كل ما يرمى عادة في الخروف مثلا، تدفن في قبر الغريب، كي يموت المرض و الشر كالميت في القبر، أ و تدفن في أماكن مقدسة تقصدها النساء لأداء طقوس الزواج أو التبرك بها، كالعين أو قرب الشجرة أو المغارة التي يعتقد أن روحا حارسة تعمرها .

أطلعتنا ساحرة بقرية "ثمعسيث " تسمى " لالا فاطمة "، أن العقم الذي تعالجه أية ساحرة كانت هو الذي سببته التابعة، و يعالج بتقديم طقس " أسفل "، بقطعها في البحر أو عن طريق الدلك. العقم الآخر الذي يعالج من طرف الساحرة هو ذلك العقم الذي سببه السحر، و لا يبطل إلا بالسحر. ما عدا هذه الأسباب، تقف الساحرة عاجزة أمام مشكل العقم.

يمكن إزالة العقم بطريقتين : الأولى بقطع التابعة، و الثانية بالسحر.

1 – الطريقة الأولى : تشمل قطع التابعة و تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

أ– بواسطة " أسفل " :

ترافق المرأة الساحرة إلى سبع بيوت في القرية، تقف أمام كل بيت لتطلب كمية من زيت الزيتون، الساحرة أو القابلة هي التي تتكلم بينما المرأة عليها أن تسير وراءها في صمت. عندما تجمع الكمية اللازمة، تبيعها في السوق، تشتري خروفا إذا كان المبلغ كافيا و إلا تشتري لحما. تقوم بطهيه إمرأة عجوز ولدت ذكورا و إناثا و عاشت سعيدة في حياتها. تأكل المرأة الجهة اليمنى للخروف بينما العجوز تأكل الجهة اليسرى (1). بعدها تتجه المرأة إلى الساحرة أو إلى القابلة، تأخذ معها ثوبا جديدا، ترتديه بعدما يتم وخزها بشفرة حلاقة قرأت عليها المعالجة صيغا سحرية، إما في الأذن أو خلف الساق، يدعى: " أَشْتَرْظ "، أي التطعيم. بعدها تنزع المرأة ثيابها القديمة، تتركها عند القابلة ترتدي ثوبا جديدا ، و بهذا الطقس تطرد الشر الكامن في التابعة التي تلاحقها و تحسدها و تمنعها من الإنجاب. ترك المرأة لثيابها يعني ترك المرض المتجسد في الثياب القديمة. لهذا السبب، عندما ندخل بيوت الساحرات في العديد من القرى بمنطقة القبائل، نشاهد ألبسة و مناديل معلقة على الرفوف، إستعملت لهذا الغرض حسب إعتقادنا.

ب– بواسطة البحر:

تتجه المرأة التي تريد أن تقطع التابعة إلى البحر، يوم السبت أو الثلاثاء، إنهما يومان مفضلان بالنسبة للساحرة التي تعالج بعض الأمراض النسوية كالعقم الذي سببته التابعة، بإعتبار أن يوم السبت و الثلاثاء لا تنزل الملائكة إلى الأرض، فيجد الجن راحتهم، هكذا نعتقد معظم الساحرات اللواتي زرناهن.
تصل المرأة إذن، إلى البحر بمجرد طلوع الفجر، تتجرد من ثيابها، تترك فقط الملابس الداخلية، تأخذ معها الخبز، تقسمه إلى فتات، تضعه في مجموعات، كل واحدة تحمل سبع فتات، تقف مقابلة البحر، كلما يأتي الموج تغترف بيديها الماء و تغسل كتفها الأيمن ثم الأيسر و تقول : " أيدرغ ذرقو أذوين أبرقازيو أما إيدي أما إتوكسي أما علمغ أما أراعلمغ ".
أي، أسترجع نصيبي و نصيب زوجي إذا تعرقل أو إنتزع مني سواء بلعمي أم بدون علمي. عندما يرجع الموج ترمي له فتاتا واحد من الخبز و تقول: " نك ضفرغاك ثقلاكش أيدفكض أدريا "، أي، أنا رميت لك الطعام و أنت تعطيني الأولاد.

(1) لم نتوصل إلى معرفة السبب في ذلك و ما هي دلالة هذا الرمز ؟

تنتظر عودة الموج الثاني، تكرر نفس العملية، تردد نفس القول حتى تصل إلى سبع مرات، في كل مرة نرمي فتاتا حتى تكمل الخبز الذي يتكون من سبع فتات. بعدما تنتهي من هذا الطقس، تنزع ثوبا من ثيابها الداخلية و ترميه إلى البحر. تعود إلى بيتها، عليها أن تسير في إتجاه واحد ، لا تلتفت إلى الوراء أبدا و لا تكلم أحدا، حتى تبتعد عن البحر نهائيا.
تكرر هذا الطقس مدة سبعة أيام بالسبت أو الثلاثاء، في اليوم السابع و الأخير، تحمل معها إلى البحر، الحناء، الكحول، السواك، مرآة، نبتة الدفلة و الحنظل. حينما تنتهي من تأدية الطقس، تقف مقابلة البحر، تنظر و جهها في المرآة، تكحل عينيها، تضع السواك على شفتيها، الحناء الذي تمزجه بنبات الحنظل، الدفلة و قطرات من ماء البحر، تضع كمية منه في يدها اليمنى و تحت قدمها الأيمن، ثم ترمي بكل هذه المواد المستعملة في الطقس إلى البحر، تذهب دون الإلفات إلى الوراء و إلا فقد الطقس فعاليته، تتجه مباشرة إلى مقام الولي لتشعل شمعتين تبركا به.

جـ - بواسطة الدلك:

يتم قطع التابعة بالدلك يومي السبت و الثلاثاء، تقصد المرأة الساحرة أو القابلة غالبا في الأيام الأخيرة من الحيض، تدلكها بزيت زيتون فاتر،تبدأ بالسبت ثم الثلاثاء ثم السبت أي مدة ثلاثة أيام (1) و هي تدلك المريضة بالزيت كل من بطنها، سرتها، صدرها و كتفها الأيمن ثم الأيسر، بعد الدلك تضع حزاما على خصرها تنام به و لا تنزعه إلا في بداية الدلك، هكذا حتى اليوم الثالث، تنتهي عملية الدلك و تستمر في وضع الحزام مدة يومين، تكون المرأة في خلال هذه الأيام مرهقة جدا، لا تقدر على الحركة بسبب الدلك، و تعطي القابلة للمريضة سبعة مواد تسمى " إسفار "، الذي يتكون في هذه الحالة من : العسل، الكحل، الحناء، صوف الخروف، نبات الخزامى، القرنفل، النعناع، تربط هذه المواد في قطعة قماش صغيرة، تأخذها المرأة معها بمثابة حجاب يقيها من سطو التابعة. علينا أن نشير إلى أن المرأة بعد كل عملية الدلك، تأكل البيض حتى تكون ولودة خصبة مثل البيضة.
ثم تنتقل إلى مرحلة أخرى تقوم المرأة بمجموعة من الطقوس في بيت القابلة، تهيئ لها هذه الأخيرة الطاحونة و القمح، تطحن المرأة القمح بإتجاه معاكس، عوض أن تطحن بإتجاه الخارج، تقلب العملية، و تطحن بإتجاهها أي، نحو الداخل، هذا يعني أن الخبز و النعمة و الربح سيكون لها و ليس لغيرها،لذلك تعمل على إدخاله إليها و ليس إخراجه للغير. هذا الفعل يرمز إلى إكتسابها للأولاد بوفرة. تدير الطاحونة سبع مرات و في كل مرة تقول: " أيدرغ ذرقو أذوين أبرقازو أما إبدي أما إتوكسي أما علمغ أما أرعلمغ "، أي، أسترجع نصيبي و نصيب زوجي إذا تعرقل أو إنتزع مني سواء بعلمي أم بدون علمي.

عندما تنتهي المريضة، يأتي دور المعالجة، تعجن القمح بالماء و تضيف له النعناع و تصنع سبع خبزات صغيرة، تقدمها للمرأة تبسطها واحدة تلو الأخرى فوق ركبتها اليمنى، ثم تحضر ثلاثة أعمدة من الحطب تكون قريبة من ثلاثة قبور، تضعها في إناء " للبخور "، تشعل النار و تطبخ الخبزات السبع فوق هذه العيدان التي جلبتها من المقبرة.

(1) تختلف الساحرات في إستمرار الدلك أو إنقطاعه، كما رأينا سلفا، يوجد إنقطاع في العملية، بينما أخبرتنا الساحرة " لالا فاطمة " بقرية " ثمعسيث "، أن الدلك يجب أن يتواصل ثلاثة متتالية بدون إنقطاع، من شروط هذا العلاج أن لا يكون فاصل بين الأيام الثلاثة ؟!

في كل صباح تفطر المرأة على هذه الخبزات لمدة سبعة أيام، مع مشروب ساخن، كالشاي يتكون من نبتة تسمى " تفيفرا " تغلى بضع دقائق في الماء، تشربه المرأة و تأكل معه خبزة واحدة، مقسمة إلى سبع فتات، تقف أمام عتبة باب غرفتها تأكل فتاتا واحدا و تشرب جرعة من المشروب و تقول : " أيدرغ ذرقو أذوين أبرقازو أما إتوكسي أما علمغ أما أرعلمغ "، أي : أسترجع نصيبي و نصيب زوجي الذي تعرقل أو إنتزع مني سواء بعلمي أم بدون علمي. تتكرر العملية، بحيث كل ما تأكل فتاتا واحدا و تشرب معه جرعة من المشروب تردد القول السابق حتى تأكل الفتات السبع، تعيد نفس الشيء في اليوم الثاني، هكذا دواليك حتى تصل إلى اليوم السابع و تكمل الخبزة السابعة، المقسمة إلى سبع فتات، بعدها تزور ولي قريتها، تشعل شمعتين و تهب له شيئا، كأن تغطي التابوت برداء أو قماش أو سجادة ليباركها صاحب المقام.

نلاحظ في الطقسين السابقين تردد عنصرين أساسيين هما : العدد سبعة الذي يتكرر في كل مرة، هو عدد سحري، مقدس، يوظف بشكل طاغي في السحر، و قد ذكره القرآن في عدة سور، هذا يدل على قدسية هذا العدد، حتى الله خلق سبع سماوات و سبع أراضي : " الله الذي خلق سبع سماوات و من الأرض مثلهن " (1). أما العنصر الثاني، فهو إتمام الطقوس دائما بزيارة إلى ضريح الولي و إشعال الشموع، فلا يكون الطقس فعالا إلا إذا باركه الولي.
نلمس في كل مرة، حضورا بارزا للأموات و علاقتهم بالأحياء تظل متجددة و متواصلة عن طريق الهدايا و الأضاحي.

2-<u>الطريقة الثانية</u> : العقم بسبب السحر أو بسبب مرض في الجهاز التناسلي.

أ- بسبب السحر :

يحدث العقم في هذه الحالة بعقد السحر للمرأة في حناء زفافها، أي تخطف منها الذرية بالسحر. تقول لنا " لالا فاطمة " من قرية " ثمعسيث " أنها الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تحدث عقما للمرأة، لا يبطل السحر و تتمكن المرأة من الحمل إلا بطريقة مماثلة تستدعي فك السحر في الحناء. و الطريقة كالتالي :

تبيت المرأة ماء للنجوم ليلة الجمعة من أوائل الشهر القمري، بالتحديد بعد اليوم الخامس. في صباح يوم السبت تأخذ هذا الماء إلى الساحرة تقرأعليه كما تقرأ على الحناء الذي إشترته المرأة لهذا الغرض، ثم تذهب إلى مقبرة، يستحسن أن تكون بعيدة عن قريتها، أي مقبرة مجهولة لا تعرفها، ترتدي ثيابا جديدة و حليا و كأنها عروس، تجلس جوار القبر، تمزج الحناء بالماء، تغطي رأسها بفوطة كما فعلت يوم زفافها حين ربطت الحناء. تمسك بيدها اليمنى الشاهد و تقول " أوين إطسن قمكن كش أذبابا نغ أذيما أسيغد أدرغ أدريا ما كسنيث ويذ ألقعا نغ ألعباذ ". أي : يا من ينام في هذا المكان أنت أبي أو أمي جئت لإسترجاع ذريتي إذا إخططفها أهل الأرض أم العباد.

(1) سورة الطلاق، الآية 12

الميت الذي يوجد في القبر المهجور يكون مجهولا من طرف المرأة لـذا تخاطبـه علـى أسـاس أنه رجل و في مكانة أبيها، أما إذا كانت إمرأة فهي كأمها، و تقصد بقولها، " إذا خطفها أهل الأرض" تشير إلى الجن (التابعة) الذين يسكنون تحت الأرض، هكذا يرمز إليهم، أما العباد، فتقصد بهم الذين عقدوا لها سحرا في الحناء و عرقلوها عن الحمل.
عندما ما تنتهي من القول، تلحس الحناء بالطريقة التالية :
تضع الحناء تحت ساقها الأيمن، تمرر يدها اليمنى تحـت سـاقها و تنحنـي لتلحس الحنـاء، تفعـل ذلـك ثلاث مرات، و تردد في كل مرة القول السابق، ثم تضع قليلا مـن الحنـاء فـي يديهـا و ركبتيهـا، تبـدأ دائما باليمنى ثم اليسرى.

ب- بسبب مرض في الجهاز التناسلي :

توجد أمراض تصيب مبيض المرأة تتعرف عليها الساحرة وحدها كما تؤكد لنا " لالا فاطمـة " تقول أن الأطباء لا يعرفون مثل هذه الأمراض، حاولنا فهم طبيعة المرض الـذي قـد يصيـب المبيـض و الذي يسبب العقم، لكننا لم نعثر على إجابة مقنعـة و موضحـة لنوعيـة هـذه الأمـراض التـي تحتكـر علاجها الساحرة و تبقى مجهولة على الطب. هذه الساحرة، تمارس علاجا يستدعي الدلك، عن طريقه فقط تشفى المرأة. خطوات العلاج كالآتي :

تدلك المريضة بداية من السرة، البطن و الرحم، مدة ثلاثـة أيـام متتاليـة، بعـد كـل عمليـة دلـك تضع في رحمها دواء يتركب من : صوف الخروف غير مغسولة، الخزامى، القطران و التوم تمـزج كل هذه المواد، تصنع منها الساحرة ثـلاث شـمعات صغيرة تربـط بخيـط مـن الصـوف، كلمـا تنتهـي المرأة من الدلك، تضع واحدة في رحمها، تنام بها حتى الصباح و تسحب من الخيط الذي وضع لهـذا الغرض، هكذا حتى تنتهي من الدلـك الـذي يسـتغرق ثلاثـة أيـام، فـي خلالهـا تكـون المـرأة مريضـة، مستلقية على السرير، الساحرة تقصدها إلى بيتها لعدم قدرتها على التحرك.
بهذا الدلك و بالمواد التي تضعها المرأة في رحمها و التي تتسـرب فـي كـل الجهـاز التناسـلي، تعتبـر علاجا نافعا و مفيدا للمبيض الذي يسترجع حيوته بفضل الدلك و هذه المـواد. تسـتطيع أن تنجـب بعـد هذا العلاج التقليدي.
في الحقيقة، ليس علاجا تقليديا بقدر ما هو علاجا بدائيا، فالمواد التي يتكون منهـا الـدواء مـن صـوف غير مغسولة، قطران، نبات الخزامى و التوم، ربما تجلب للمرأة أمراضا تناسلية خطيرة. و الغريـب، أن تستمر مثل هذه الممارسات في أيامنـا هـذه. رغـم تقـدم الطـب إلا أن النسـاء الريفيـات فـي منطقـة القبائل، لازلن متمسكات بالتطبيب التقليدي، هذا إن دل على شيئ، فإنما يدل علـى الثقـل الكبيـر الـذي تحملها المرأة العقيمة على عاتقها و شبح الطلاق الذي يهددها طالما لم تثبت للعائلة و للمجتمع قدرتهـا في الإنجاب.

ما يمكن إستخلاصه من الطقوس السابقة، هو أن المرأة الريفيـة تلجـأ إلـى كـل الطـرق و كـل الوسائل - مهما كانت بدائيتهـا - لتصـل إلـى مرتبـة الأم فيهـا يكتمـل وجودهـا فـي المجتمـع و عـن طريقها تضمن مكانا ثابتا في عائلة زوجها، و العكس، سيشكل لها خوفا مستمرا لأن و ضعيتها دائمـا مؤقتة، لن تصبح دائمة إلا بعدما تنجب أولادا، إنهم وسيلتها الوحيدة في البقاء.

يبدو هذا الوضع الذي تعيشه المرأة الريفية طبيعيا، إذا إلتفتنا إلى سنوات قليلة قد خلت، أين كانت المرأة مجرد قوة للعمل، تعمل كثيرا و تأكل قليلا، و آلة بيولوجية لتكاثر المجتمع، حتى " البنى العائلية و الأنساق الإيديولوجية الموروثة تعمل على إعادة هذه القيمة الإجتماعية، أي جعل المرأة كائنا مقولبا إيديولوجيا و إجتماعيا لأداء المهام الموكلة إليها". (1)
فمهام المرأة الريفية واضحة، عليها بالطاعة و الحشمة و الخضوع الكلي للزوج و عائلته، بالإضافة إلى ذلك، عليها أن تكون ولودة لأنها الوسيلة الوحيدة التي تمكن العائلة من الإستمرار، لذا في حالة عجزها عن أداء واجبها الإجتماعي، لا مكان لها في عائلة الزوج، و على عائلتها الأصلية أن تستقبلها.

في هذا الإطار، يتسنى لنا فهم دوافع المرأة الريفية في منطقة القبائل و إقبالها على الممارسات السحرية التي قد ننعتها بالتقليدية أو البدائية، و ظروف القهر و السيطرة التي تعيشها في المجتمع، رغم التطور الملحوظ في وضعية المرأة الريفية من الناحية الإجتماعية و الثقافية و الإيديولوجية، إلا أننا لازلنا نشاهد إجحافا ملموسا في حق المرأة و سيطرة واضحة و هما دافعان ملحان يحفزانها إلى إمتلاك قدرة خارقة تجدها في السحر تمكنها من سلب القوة للرجل و إعادة مكانتها في مجتمع ينظر إليها على أنها سيئة و خطيرة.

(1) OUITIS, **Les Contradictions Sociales et leur Expressions Symbolique dans le sétifois**, P 25

ملخص الفصل :

يلعب المقدس السحري في حياة المرأة الريفية دور التخفيف من الضغط الإجتماعي الذي تقاسيه يوميا، فالمقدس هو المتنفس الوحيد للمرأة المقهورة، المبعدة عن الأدوار الخاصة بالرجل وحده. لم تجد حلا يخرجها من معاناتها، يبعدها عن آلامها، يزيح عنها المشاكل و الأحزان. بحثت إذن، عن وسيلة ناجعة و فعالة و سريعة، فوجدتها في السحر. إستعانت بالساحرة و بقدراتها، ففتحت لها باب السعادة و الأمل و لو لفترة مؤقتة، فهي تعلم أن كل مشاكلها ستجد لها أجوبة عند الساحرة، برهنت هذه الأخيرة على قوتها، فأعطت للمرأة المقهورة مفاتيح، أسرار السحر و العلاج التقليدي. فإذا شعرت بتهديد المجتمع لها هربت إلى السحر تطلب من طاقته علاجا، بحيث إن لم تجد زوجا يؤمن لها مستقبلها، تستعين بالسحر، كذلك إن ساورتها شكوك في علاقتها مع زوجها إعتمدت على إمكانيات الساحرة التي تساعدها في الحفاظ على زوجها، كما أنها لا تتوانى في اللجوء إلى العلاج التقليدي في حالة ما إذا لم تستطع الإرتقاء إلى مرتبة الأم التي تعتبر الوضعية المثلى للمرأة، تحفظ لها مكانتها في مجتمع يحملها مسؤولية العقم و يطالبها بالأولاد الذين يعملون على إستمرارية العائلة.
إزاء هذه الوضعية، تجد المرأة الريفية نفسها مضطرة للإستعانة بالسحر كوسيلة فعالة تضمن لها مكانتها و تحقق لها أهدافها التي تعجز عن إكتسابها بالطرق الشرعية، فتلجأ إلى السحر لتدافع عن حقوقها ووضعيتها الإجتماعية.

III الجانب التأويلي و الإستنتاجي للتحليل الميداني

1.الزيارات الميدانية إلى الساحرات

2.التحقق من الفرضيات

أ- التحقق من الفرضية الأولى

ب-التحقق من الفرضية الثانية

جـ-التحقق من الفرضية الثالثة

د-التحقق من الفرضية العامة

- الخاتمة
- البيبليوغرافيا (المراجع)
- الملحق
- نموذج من المقابلة

1- الزيارات الميدانية إلى الساحرات :

زيارة إلى خالتي " حليمة " بتاريخ :14-05-1999م

الإسم :حليمة .
السن : 78 سنة .
السكن : قرية أيت يوسف بضواحي إفليسن .
الوضعية العائلية : أرملة .
المهنة : قابلة .

هذه العجوز تعالج النساء، الأطفال المصابين بالعين، الفتيات المقبلات على الزواج، فك الرباط بالنسبة للرجل بالإضافة إلى تقبيلها للنساء .

تقول أنها أخذت "الميثاق" (العهد) عن الولي سيدي "علي أوموسى" بخميس معانقة . ورثت هذه الحرفة عن أمها التي كانت تعلمها مع زميلات لها في المهنة فن السحر و العلاج التقليدي، فتعلمت منهن وأصبحت بالتجربة متمكنة في السحر.

عندما قمنا بزيارتها في بيتها وجدناها تسكن وحدها، أطلعناها على رغبتنا في تعلم بعض تقنيات السحر و العلاج بالأعشاب و العقاقير، ذلك بدافع الرغبة و الإهتمام لاغير. فرفضت مبادرتنا و نصحتنا بالإبتعاد عن هذه الأمور لأنها صعبة وليست في مستوانا و تعلمها يتطلب منا التضحية الكاملة. لكن بإصرارنا و إلحاحنا على التعلم من جهة ومن جهة أخرى، إستطعنا إقناعها بأن هدفنا هو إثبات أن هذه الأعمال التي تقوم بها المرأة الريفية ليست سحرا سلبيا و لكن طريقة في التداوي و العلاج لأمراض لم يجد الطب لها حلولا. هكذا إقتنعت بالفكرة و طلبت منا زيارة مقام "سيدي علي أو موسى" يجب أن نقدم له ذبائح وأضاحي لكي يعطي لنا "الحانوت" أي أسرار السحر وطرق العلاج، بهذه الطريقة إستطعنا أن نجمع عددا لابأس به من المعلومات و الطقوس السحرية التي أفادتنا في بحثنا المتواضع. علما أن هذه المعلومات كانت مقابل مبلغ 200 دج، طلبت منا هذا المبلغ (وعدة) قبل إدلائها بالمعلومات، خوفا من أن نأخذ الحرفة منها، بهذه "الوعدة "تظل تحتكر الحكمة بدون منازع .

زيارة إلى " لالا وردية " بتاريخ : 05-09-1999م

الإسم :لالا وردية تلقب من طرف النساء ب :" يما الحاجة "
السن : حوالي ستين سنة (60) .
السكن : المدينة القديمة بتيزي وزو .
الوضعية العائلية : أرملة، أم لبنت متزوجة و إبن متزوج، يسكنان معها.
المهنة : عرافة .

تقول أنها مجاهدة، فقدت إحدى عينيها في حرب التحرير، من حين لآخر تلتفت إلى النساء لتقول لهن أنها تنتظر من الدولة أن تبني لها قبة بعد موتها، فتشهد لها النساء بالحكمة و أنها تستحق فهي ولية صالحة مادام الأسياد الخيرين يعمرونها.

تدخل إذن "يما الحاجة " الغرفة، تسلم على الجميع ثم تجلس على أريكة (الوحيدة في الغرفة) تتجه نحو القبلة-لاحظنا في الغرفة الواسعة و الخالية من الأثاث- آيات قرآنية على الجدار (آية الكرسي و سورة الإخلاص) يد السيدة فاطمة ،صورة لها، لعائلتها و علمين للجزائر. الأرض مفروشة بسجاجيد و حصائر تجلس عليها الزائرات، و مائدة صغيرة تضعها أمامها، عليها أكياس متنوعة مملوءة بالمواد التي تعالج بها : عقاقير، أعشاب مطحونة ملفوفة في أوراق، أكياس من الملح تقدمه للفتيات، الصابون، زجاجات العطر التي تعالج بها التعريضة، الكحول، السواك، أحجار من الجيرتسمى: "التبطيلة" أي تبطل عملا ما أو تبطل السحر، لونها أبيض. هذه المواد تستعمل إما لإزالة التعريضة، إما لجلب الحظ أو لكسب حب الزوج و الحفاظ على العلاقة الزوجية.

بدأت هذه العرافة عملها منذ أربعين سنة/أربعين سنة، أي عندما كان عمرها عشرين سنة، أخبرت الحاضرات أنها تختلف عن الساحرة، بإعتبارها صالحة، تقية، فالرسول(ص) جلس على ركبتيها يوما و أنار بصيرتها بالحكمة و المعرفة و النبي محمد(ص) أعطاها مفاتيح الحكمة كان ذلك في المنام. فهمنا من كلامها أنها تميز بين لفظ رسول ونبي، عندما تتحدث عن الرسول يكون بصيغة المجهول أما عندما تتحدث عن النبي يكون بصيغة المعلوم تذكر إسم محمد(ص). تؤكد للحاضرات أنها لاتشبه الساحرات و العرافات، إنها لا تتعامل مع الجن لأنهم مخربون، بل يساعدها أسياد القبة، أي الأولياء الصالحين، بدليل أنها تشتغل أيضا خلال شهر رمضان و أيام الجمعة. بينما كانت تتحدث مع النساء، دخلت إمرأة، جلست تحت النافذة المفتوحة، القريبة من الباب، أمرت المرأة بتغيير المكان فورا ليمر الأسياد الذين يهبطون من السماء. تعلل سبب تأخرها عن الزائرات حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشر و النساء ينتظرن من السادسة أو السابعة صباحا، هذا التأخر يعود إلى الأسياد الذين يأتون من مكة المكرمة، و بمجرد وصولهم تبدأ الزيارة. تتكلم دائما بصيغة الجمع أي هي و الأسياد. أحيانا تحاول إبهار الحاضرات بحكايات و أمثال. فقد قارنت بين الشمس و الله و استنبطت أن الشمس موجودة في كل مكان و الله كذلك، إذن الشمس مثل الله، مايربط بينهما هو الحضور الدائم في كل مكان . لشدة انبهار النساء بعلم العرافة يصرخن قائلات:"شايلله، شايلله ألالا" تقرأ الفاتحة و تدعو الله أن يستجيب دعواتها التي تشمل كل الحاضرات و كل المجتمع الجزائري، الكل يردد:"آمين، آمين".
تطلب من النساء أن يتقدمن إليها لشراء العقاقير التي يتراوح سعرها بين خمسين دينار و ألف دينار حسب فعاليتها و قوتها .

عندما تنتهي من عملية البيع تبدأ الزيارة، تستقبل الزائرة على مرآى ومسمع الحاضرات. لاحظنا نقطة مهمة وهي أن هذه العرافة تطلب من الزائرة التي جاءت تستفسر عن " المكتوب " أن تجلس على يسار العرافة، أما إذا كانت تشتكي من سحر أو مرض عضوي أو نفسي "كالخلعة"، الوسواس، الخوف فتجلس يمينا. تضع الزيارة مبلغا (أي الدراهم و لا تشترط مبلغا معينا) على المائدة، تنظر العارفة في سبحتين، ثم تسأل الزائرة عن سبب مجيئها، عن وضعيتها العائلية، ثقافتها، تذكر بعض الأسماء إرتجالا و تسأل الزائرة إن كانت لها صلة بها. الحالات التي شاهدناها متعددة، من تأتي بحثا عن الحظ و عن الزواج، من تسأل عن مدى صدق و وفاء الخطيب أو الزوج، من تطلب دواء لاسترجاعه، من تشتكي من السحر، من تأتي للإستشارة في أمور التجارة أو الدراسة، فتلميذة معتادة على المجيىء إلى "يما حاجة" تستفسر عن دراستها، لم تنجح في شهادة الباكلوريا، تريد أن تعرف رأي العرافة، هل تعيد الإمتحان أم تختار تكوينا مهنيا ؟ وفتاة أخرى حوالي خمسة و عشرين سنة، تقول أنها مكثت في المستشفى وقتا طويلا و لم تشف. زارت العرافة، فأعلمتها بأنها مسحورة، أكلت جلد الثعبان لذلك في الصيف يتورم جسدها، يديها و قدميها ماعدا وجهها. عندما تشتد الحرارة تغير جلدها مثلما يغير الثعبان جلده بسبب السم الذي وضع لها في الأكل. منذ أن داومت على هذه العرافة، تشعر بارتياح طفيف. في هذه الزيارة، شاهدنا حادثة طريفة و مؤسفة في آن واحد، إمرأة من قرية " بني دوالة " بضواحي تيزي وزو، جلبت إبنتها لتزيل عنها التعريضة، جاءت للمرة الثالثة. بعدما فرغت من شأن إبنتها، طلبت من العرافة أن تضع موادا سحرية في قميص إبنها الطبيب الذي يحضر مسابقة التخصص، تشتكي من عدم مبالته بالمنزل، و إعتكافه طول الوقت على البحث و الدراسة حتى أنه لا يأكل معهم و لا يجالسهم، فالأم تريد أن تنقص من إرادة إبنها في التعلم خوفا عليه من الإرهاق و المرض. لم تناقشها العرافة في الأمر، بل أسرعت إلى عقاقيرها فنثرت مسحوقا منها على القميص، وضعت قليلا من مسحوق " التبطيلة " كي تبطله عن عمله و قرأت عليه بعض الصيغ السحرية، لم نتوصل إلى فهم محتواها، كانت تتمتم. أخذت الأم القميص، شكرت العرافة و قدمت لها مبلغا معتبرا من المال. فإن حدث و صدق مفعول السحر، تكون الأم بجهلها و سذاجتها قد ضيعت مستقبل إبنها.

سمعنا آذان الظهر، فإستأذنت للصلاة، خرجت و لم تعد إلا بعد ساعة أو أكثر. قررنا مواصلة الزيارة التي بدأت من الثامنة صباحا إلى الرابعة مساء بالنسبة لنا. أما النساء الأخريات بقين حتى السادسة مساء.

عندما جاء دورنا، أعطينا لها وعدة (50 دج)، سألتنا عن سبب الزيارة، فأجبنا بأن الحظ لم يصادفنا للعثور على الزوج، فقصدناها لتزيل عنا التعريضة. بدى الإرتياح على وجهها، و قالت بأنها تفرح بكل من يأتيها بالنية الصافية، و ستساعدنا في حل مشكلة الزواج، لثقتنا فيها. هذا يدل على أنها لم تكتشف أمرنا و لا تعلم بهدفنا في زيارتها، لم تر لا في السبحة و لا عند الأسياد الذين تدعي مساعدتهم لها. طلبت منا أن نحضر لها في الزيارة القادمة بعض المواد لتعجل الزواج و هي :

- ست حبات بيض توضع قرب الوسادة
- أربع حبات بيض تبيت للنجوم قرب الباب
- ست صابونات
- علبتين من الحناء
- زجاجتين من العطر الأزرق
- علبة سكر
- علبة ملح
- خيط من الصوف يقاس به طولنا و عتبة باب المنزل و نردد القول التالي : " أيكسغ فلي أذ لمظرا قسغك أيمنار أثبورث فلي أذكسغ أعراض ". أي أنزع علي المضرة، أقيسك يا عتبة الباب كي أنزع عني ما يعارضني.
- فستان جديد

تقرأ العرافة على البيض، تفقصه و ترميه، ثم تقرأ على الصابون، تنثر عليه السكر و الملح، كما تقرأ على العطر، تظيف له قليل من الملح، تقرأ على الحناء. عند العرافة، نقوم بطقس التطهير الذي يتكون من المواد السابقة، ثم تضع لنا الحناء في اليد، أو نشربه مع الماء، تفرغ زجاجة العطر علينا و تلبسنا الثوب الجديد، هذا الطقس يؤدى يومي الأربعاء و الجمعة، تتكرر العملية ثلاث مرات، نصحتنا بإخفاء الحناء لأن ذلك يجلب العين الحسود و قد يبطل مفعول الطقس.

نلاحظ أن هذه العرافة تشتغل يوم الجمعة، تختار الأربعاء و الجمعة لإزالة التعريضة التي تعيق الفتيات عن الزواج، بينما معظم الساحرات يتفقن على يومي السبت و الثلاثاء لطقوس التطهير بغية إزالة العارض، كذلك لقطع التابعة التي تمنع المرأة من الحمل، فلكل ساحرة أسلوبها الخاص و طريقتها في العلاج، هذا ما يجعل السحر متشعبا، معقدا، غامضا و مبهما.

زيارة إلى " لالا ججيقة " بتاريخ : 18-02-1999

الإسم : لالا ججيقة
السن : حوالي أربعين سنة
السكن : قرية ماكودة
الوضعية العائلية : أرملة، أم لأربعة أطفال
المهنة : درويشة

قصدنا بيت " لالا ججيقة " يوم السبت على الساعة التاسعة صباحا، رافقتنا إحدى معارفها، دخلنا منزلها، وجدنا النساء ينتظرن منذ السابعة صباحا. خرجت " لالا ججيقة " إستقبلتنا بحفاوة، كانت لطيفة، مرحة. أخبرتنا أن يوم السبت لا تزور فيه أي لا تكشف الغيب و لا تعالج، إنما تفك فقط السحر . لذا طلبت منا أن نعود في كل أيام الأسبوع ماعدا السبت المخصص لإبطال السحرو الجمعة تقول أنه للراحة. هل حقيقة تستريح فيه، أم هو يوم مقدس لا تنزل فيه الجن ؟ هذا ما لا نستطيع جزمه. أصرت رفيقتنا و ألحت عليها لتستقبلنا قبل النساء الأخريات بحجة أننا ندرس بجامعة الجزائر، يجب أن نصل إلى العاصمة قبل الظهر. فوافقت، و أخبرتنا أن الزيارة تكون ناقصة.

جلسنا في بهو كبير، لم تدخلنا إلى غرفة الزيارة، حدثتنا عن " الشيخ محند " الذي تعمل معه و يقيمان "الزردات و الحضرات" كل خميس في قبته أو في مقام "سيدي بالوا" بأعالي "تيزي وزو". هذا الحديث عن الشيخ تشغل به نفسها ريثما تقبل عليها موكلتيها " ثاوكيلت " بتعبيرها الخاص أي التي تسكنها و هما جنيتين توأمتين تعتبران أيضا " وكيلات الشيخ محند". بعد لحظات طلبت منا " وعدة " لتبدأ الزيارة. قدمنا لها (60 دج) أعطتنا سبحتها لنلمسها، ثم رددناها إليها، وضعتها على فخذها الأيمن، بدأت تقيسها بالإبهام و السبابة خمس مرات ثم بالسبابة، الوسطى، البنصر و الخنصر أربع مرات و في الأخير تبدأ بالإبهام، السبابة، الوسطى، البنصر و الخنصر خمس مرات. ثم أعطت لنا السبحة لنعلقها كقلادة لمدة من الوقت، في خلاله إستأنفت حديثها عن علاقتها بالشيخ و تعاملها معه، ثم أخذت منا السبحة و أعادت عملية القياس المذكورة سلفا، وضعتها على فخذها، و بدأت تكلمنا بالأمثال و الأدعية، أطلعتنا على مشروع نقبل عليه، يجلب لنا الخير و النجاح، تقول أن الوقت قد حان لإجتياز الطريق بدون تردد. لم تفصل طبيعة هذا المشروع عللت ذلك بأن الزيارة مضببة، لا ترى التفاصيل يوم السبت. لذا علينا أن نعود في يوم آخر تستطيع أن ترى بوضوح. جاء دور صاحبتنا، بدأت بقياس السبحة، قبل أن تنتهي إنتابها وجع شديد في فخذها، تحك السبحة على لحمها، يبدو أنها تتألم، عيناها تذرفان الدموع، تصحبها عطسات متوالية، إنها فعلا تتوجع، أخبرت ساعتها رفيقتنا أنها تعاني من العين، التابعة و التعريضة تعرقل أعمالها و طلبت منها أن تعالج نفسها. تتوالى العطسات و تتفاقم، في لحظة واحدة تألمت و مسكت عنقها كأن شيئا ما يشد من خناقها، خرجت مسرعة إلى الحمام لتتقيء، عادت إلينا بعد عشر دقائق، شرحت لنا حالتها المرضية، قالت أن " وكيلتيها " تتألمان لأمراض الناس و تعيشان ألام الآخرين، في " الزيارة " ينعكس الألم على الدرويشة.

إعتذرت لعدم قدرتها على مواصلة " الزيارة " ذلك يسبب لها المرض و ربما وصلت إلى الموت. إنها أعراض كل "درويش" تعرض لأزمة نفسية بسبب الجن الذى صرعه تفسر أيضا، توجعها الشديد بقوة التابعة التى تدور برفيقتنا، لذا نصحتها بالعودة في يوم أخر، تعالجها و تقطع لها التابعة.

لم تسمح لنا الظروف بالعودة إليها، بينما رفيقتنا قررت في ذلك اليوم أن لا تعود، فقد أخافتها بحركاتها، خاصة، أننا شاهدنا في الواقع و عن قرب التغير الفيزيولوجي الذي طرأ عليها فجأة، ولا نعتقد أن في ذلك حيلة أو خدعة.

زيارة إلى " لالا فاطمة "" بتاريخ : 19-10-1999م

الأسم : لالا فاطمة
السن : إثنين و ستين سنة (62)
السكن : قرية "إفالكان " بمعنى (البزاة) بإفليسن
الوضعية العائلية :أرملة، أم لولدين متزوجين
المهنة : ساحرة

إشتغلت بهذه الحرفة مباشرة بعد زواجها، أنجبت توأمين، ثم فارقت زوجها بأمر من الجن الذي صرعها، فهجرته بعد عامين من الزواج و سمحت له بإعادة الزواج، لكنه رفض في السنوات الأولى من زواجهما. بعد مرور خمس سنوات و محاولته في استرجاع زوجته لكن باءت بالفشل رفضت العدول عن ممارستها للسحر، قرر إثر ذلك بإعادة الزواج و إنعزل مع زوجته في بيت آخر، أما " لالا فاطمة " بقيت في عصمته يزور ولديه متى شاء حتى توفي منذ سنتين تقريبا.

ذهبنا إلى زيارتها يوم الثلاثاء، إنه اليوم المخصص لقطع التعريضة بهدف الزواج، و عقد السحر للزوج لكسب حبه و إخلاصه لزوجته. وصلنا إلى بيتها بعد الواحدة زوالا، وجدنا جموع من النسوة في القاعة التي تستقبل فيها الزائرات، كان الوقت متأخرا نوعا ما، و القاعة ممتلئة لذا فإن دورنا سيتأخر كثيرا. بينما كنا ننتظر، تقدمت إمرأة في الأربعين من عمرها جلست على حصير و بدأت تحكي حكايتها. أخبرت الساحرة أن زوجها مغترب في فرنسا، تركها سنين طويلة، سمعت أنه تزوج بفرنسية و له أولاد. لكن منذ عام عاد إليها و إلى أولاده. جاءت تطلب وسيلة تربط بها زوجها مدى الحياة و تجعله عاجزا عاطفيا و جنسياكلما حاول الإقتراب من إمرأة أخرى. طمأنتها و قالت لها أنه أمر سهل عليها أن تعود الثلاثاء المقبل و معها ثوبها الذي يفوح بعرقها و مائة مسمار. قبلت المرأة رأس " لالا فاطمة " أعطت لها وعدة (200 دج) و إنصرفت. إنتظرنا مدة أربع ساعات لم يأتي دورنا، فانصرفنا لنعود الثلاثاء المقبل.

تابع للزيارة السابقة : الثلاثاء 26-10-1999م

هذه المرة ذهبنا في الصباح، إنه الموعد الذي أعطتـه " لالا فاطمـة " للمـرأة التـي ترغـب فـي ربط زوجها، فذهبنا إليها وفقا لهذا الموعد. كانت الغرفة تقريبـا خاليـة، وجدنـا المـرأة تنتظـر، دخلـت الساحرة بعد التاسعة صباحا، سلمنا عليها ثم باشرت عملها. ليست كالسـاحرات الأخريـات، لا تسـتهل كلامها لا بالأدعية و لا بمناجاة الأولياء. طلبت إذن، مـن المـرأة إن حضـرت لهـا اللـوازم المطلوبـة لربط الزوج فأعطت لهـا الفستان مـع المسـامير، فرشـته أرضـا، جلسـت " لالا فاطمـة "، بـدأت تـدق المسامير على الفستان واحدا تلو الآخر، كانت تتمتم بكلام غير مفهـوم عندمـا وضعـت الفسـتان علـى الأرض، أما في عملية دق المسامير بالمطرقة كانت تقـول " سـمرغك أس خمسـة، شـدغكيد أسلسـلة، ألحبيو أقوليك إرصا، أميماك ميكيدسعا، فلي أثتبديلضرا ألما نرس أقزكا ".
معناه : أدق عليك خمسة مسامير، أشدك إليا بالقيود، ينغرس حبـي فـي قلبـك كـأمك التـي ولدتـك، لـن تتركني حتى نوضع في القبر.

كلما تدق مسمارا تردد هذا القول حتى تنتهي من المائة. بحيـث يكـاد القمـاش لا يظهـر. تتنهـد الساحرة، يبدو أنها تعبت. إنتظرت حوالي خمسة دقائق ثم تمتمت كلاما في السر، تنظر و تحـدق فـي الفستان. بعدما بدأت في نزع المسامير واحدا تلو الآخر في صمت، لم تتفوه بكلمة و لـم تتوقـف حتـى نزعت كل المسامير. طوت الثوب، قدمته لصاحبته، طلبت منها أن تضعـه تحـت وسـادة زوجهـا مـدة سبعة أيام. ثم تدفنه في قـبر الغريـب. بالتـالي، يصبـح الـزوج عـاجزا جنسـيا كلمـا إقتـرب مـن إمـرأة أخرى.
فرحت المرأة و قبل أن تغادر أعطت "وعدة" ألف ينار (1000 دج) و وعدتهـا بـالرجوع إليهـا تحمـل لها هدية تليق بمقامها.

تقدمت بعدها شابة مقبلة على الزواج بعد أيام، جاءت تضع حجابا لزوجها أي " تحجبـه " كمـا يقال بالمصطلح الشعبي، ليكون وفيا، مخلصا و محبا لها مـدى الحيـاة طلبـت منهـا " لالا فاطمـة " أن تجلب لها قطرات من بولها بعدما يبيت للنجوم إما يـوم السـبت أو يـوم الثلاثـاء و تقـول : " سنسـغكن إيثران خير أن مية الطلبة ماغران " أي : أبيتكم للنجوم أحسن من تلاوة مائة طالب. تحضـره يومين أو يوم واحد قبل الزفاف، تقرأ عليه " لالا فاطمة " و فـي ليلـة الزفـاف تضيـف الزوجـة قطـرات مـن بولها إلى الماء و تقدمه لزوجها يشربه، هكذا يصبح ولهانا بحبها و يركع تحت قدميها كمـا قـالت لهـا الساحرة.
جاء دورنا، و لكن إعتذرت لعدم قدرتها علـى إسـتقبالنا، لقـد أتعبتهـا المـرأة صاحبـة الفستان، يجب أن ترتاح، لن تستقبل النساء إلا في الغد.
لم نحض بالزيارة، لكننا إستفدنا من النماذج التي شاهدناها، و إستطعنا أن نضيف طريقة جديدة لربـط الزوج نثري بها أبحاثنا.

ما أثار دهشتنا و إستغرابنا هو نجاح هذا الطقس المتعلق بالربط، بما أن المرأة من قرية " أيت سي علي " بإفليسن، إستطعنا أن نتحرى الموضوع و جمعنا معلومات خاصة بهذه المرأة بفضل تعاون مجموعة من النساءمن المنطقة، علمنا أن هذه المرأة لجأت إلى ربط زوجها عندما عرفت أنها مريضة بالسرطان و أيامها معدودة. فعلا توفيت، و تزوج زوجها بعد مرور عام من وفاتها، لكنه لم يستطع الإقتراب من زوجته، إستمر هذا الوضع بضعة أشهر، فبدأ يتردد على بيوت الشيوخ و السحرة، أكدو له أنه مصاب بالسحر، الآن يعالج لفك الربط. أجمعت كل النساء اللواتي قدمن لنا هذه المعلومات (أربع نساء) أن الحل الوحيد لفك هذا النوع من السحر هو أن ينزع سنة زوجته الراحلة و يبخر بها.

لسنا ندري هل عجز الرجل يعود فعلا إلى السحر ؟ أم نتيجة عوامل أخرى يجب أن تؤخذ بعين الإعتبار كالسن مثلا ؟ علما أن هذا الرجل يتجاوز الستين. إن حللنا الموضوع بالعقل و المنطق نتوصل إلى نتائج معاكسة تماما لإعتقادات النساء، أما إذا نظرنا إليها بمنطق السحر ربما إكتشفنا ما يخفى على العقل و المنطق.

زيارة إلى " لالا فاطمة " بتاريخ : 15-02-2000م

الإسم : لالا فاطمة
السن : خمسة و أربعين سنة (45)
السكن : قرية ترمتين على بعد سبعة عشر كيلومتر من تيزي وزو
الوضعية العائلية : متزوجة و أم لثلاثة أطفال
المهنة : مرابطة

تقول أنها أصبحت مرابطة منذ أن كان في عمرها عشرين سنة و منذ ذلك الوقت هجرت زوجها، يعمل في العاصمة و لا يدخل إلى بيته إلا مرة في الأسبوع. هذه المرابطة يملكها ثلاثة أسياد هم أولياء قريتها. بحيث تذكرهم بأسمائهم و تناجيهم في مستهل الزيارة، أي تبدأ حديثها مع النساء بذكر هؤلاء الأسياد و هم : " بابا علي "، " جدي منصور"، " جدي السعيد ". كما تذكر إسم " وكيلتها " الولية التي تعمرها " بما ثحشاط نطمانة "، هؤلاء الأسياد يزورونها في الأحلام و في الواقع. عندما دخلنا بيتها طلبت منا أن لا نجلس في الجهة المقابلة لها كي نترك ممرا يدخل منه الأسياد، يدخلون من الباب يعطون لها الأخبار ثم تنقلها بدورها للزائرات. لاحظنا تبجيل النساء لها و خوفهن منها. أحيانا، يتكلمن فيما بينهن، فتصرخ في وجههن قائلة لهن أن الكلام يشوشها و يعرقلها عن عملية الكشف، فيطلبن العفومنها و من الأسياد الرضى. لاحظنا إنقطاع هذه المرابطة عن الكلام من حين لآخر، تسأل الزائرات عن أمور خاصة كأن تبحث عن حياة شخص معين تعرفه، أو تسألها عن فتاة لها صلة بها، إن تزوجت أم لا ؟ المهم تنقطع عن الكلام و تخرج تماما عن إطار الكشف. مدعية أن الأسياد في ذلك اليوم بخلوا عليها بالأخبار، تقول : " لا أدري لماذا اليوم لا أرى بوضوح في السبحة، ربما يريدون (الأسياد) ذبيحة، هكذا يفعلون كلما أرادوا ضيافة، سأضيفهم و أقيم حضرة يوم الخميس. لقد نذرت كبشا لجدي منصور ". هكذا عللت إنقطاعها في الكلام، و إستطاعت أن تقنع النساء حيث كن يرددن بقوة لفظتهن المعهودة " شايلله، شيلله ".

كل الحالات التي شاهدناها متشابهة تقريبا، إما أن تقصد الزائرة المرابطة للزواج، أو لتتأكد من حب و إخلاص زوجها أو لإبطال مفعول السحر أو لطلب رأي أو مشورة بحيث جاءت عجوز و إبنتها، قصدتا خطبة فتاة في القرية، طلبت العجوز من المرابطة أن تخبرها إن كانت الفتاة و أهلها يصلحون لهم. بكل جرأة قالت لها المرابطة أن الفتاة صعبة المزاج، أهلها يثيرون المشاكل و ستندم في مصاهرتهم، فنصحتها بالعدول عن هذه العائلة المشؤومة، وجهتها إلى فتاة أخرى في القرية تعرفها، تمتاز بالجمال و الأخلاق, وافقت العجوز بدون تردد و خرجت، وعدتها أن تعود لتحمل لها الخبر النهائي. فعلا لم تمض ساعة على ذهابها حتى عادت، شكرت المرابطة على نصيحتها، أخبرتها أن الفتاة و أهلها وافقوا. بمجرد أن الوصاية جاءت من طرف المرابطة، فلا تناقش بالنسبة للعائلة الخاطبة قصدت هذا الزواج بنصيحة من المرابطة التي تتكلم بأمر من الأسياد، و من جهة عائلة الفتاة أيضا لا تفكر في مسألة الرفض أو الموافقة لأن المرابطة أي، الأسياد إختاروا هذه العائلة. فالمصاهرة التي ستقع بين العائلتين موجهة من طرف المرابطة و باركها الأسياد. لهذا إنتهى كل شيئ في سويعة واحدة. أليس غريبا أن تصل درجة إعتقاد المرأة في قدرة المرابطة و بركة الأسياد إلى هذا الحد؟ كيف تتحول صورة الجن التي تصرع هذه المرابطة و غيرها إلى روح الأسياد و الأولياء؟ نحن نعرف أن الأولياء هم عباد الله المتقين، كيف إذن تدخل أرواحهم الطاهرة في جسد المرابطة التي تمارس السحر بنوعيه الإيجابي و السلبي، لو كان ذلك حقيقة، لعرف الأسياد هدفنا لأول وهلة، لكن حدث العكس تماما – ليست هذه المرة الأولى– عندما جاء دورنا بعد إنتظار دام أكثر من ثلاث ساعات، جلسنا على يمينها كما طلبت، بعد لحظات فقط أظهرت قشعريرة و إبتسمت ثم نظرت إلى كتفها الأيمن و قالت لنا: " لقد إستلطفك بابا علي، هو الذي بعثك إلي اليوم و يقول لك أنت كالدمية التي تزين الجدران " . كلما أخبرتنا به كان مجرد عموميات قد تصيب و قد تخطئ. بينما رفيقتنا التي كانت لنا مرشدة، بما أنها من قرية المرابطة، تعرفها، و تعلم بمشكل خاص بعائلتها، دخلت من هذه النقطة. لم تكتشف أمرنا و لا تحايلنا عليها، كنا بالنسبة لها مجرد زائرات لا غير.

زيارة إلى " لالا تسعديت " بتاريخ : 15-02-2000م

الإسم : لالا تسعديت
السن : إثنين و أربعين سنة (42)
السكن : قرية " تيرمتين"
الوضعية العائلية : أرملة و أم لأربعة بنات
المهنة : درويشة منذ خمسة عشر سنة

وصلنا إلى بيتها على الثانية زوالا، لم نجد عندها و لا زائرة واحدة، فهي لا تزور إلا في الصباح، لذا رفضت إستقبالنا في البداية. بعد إصرار طويل و إلحاح منا وافقت. لم ندخل إلى الغرفة اتي تستقبل فيها النساء، إنما أعطتنا حصيرا، جلسنا على الأرض، عادت إلينا بعد ثواني و معها سبحتها. يبدو أنها لم تهتم بشأننا كثيرا، ربما، لأن الوعدة كانت ضئيلة، مائة دينار (100دج). بدأت كلامها بالأدعية و مناجاة أسياد قريتها. هي أيضا تملكها أرواح الأولياء و هم " جدي منصور "، " بابا علي "، تماما كالمرابطة السابقة، تنبأت لنا بمستقبل سعيد، لقد قصدناها بهدف الزواج لذا طلبت منا إحضار اللوازم المستعملة لطقس التطهير، لا ننسى إشعال شمعتين في ضريح الوليين الصالحين الملقبين " بجدي منصور " و " بابا علي ". أما رفيقتنا، أخبرتها بأن أعداء يتربصون بها و يحسدونها، من بينهم إمرأة تدعى " فاطمة " هي التي عقدت لها سحرا و وضعته في منزلها، فعليها أن تحترس من هذه المرأة. أخبرتها زميلتنا عن مشاكل خاصة بين والديها و أنهما يريدان الطلاق، فطلبت منها هذه الدرويشة أن تجلب ماء من عين دائمة السريان و السكر، يبيت للنجوم ثلاثة أيام ثم تقرأ عليه صيغ سحرية، فالماء يشربه والدها و السكر يوضع في قهوته، هكذا سينشطر قلبه بين زوجته و المرأة التي يحبها، يعيش صراعا مألما حتى يزول منه السحر، فحسبها، الأب أيضا مسحور، لذا فعالية إبطال السحر تعود دائما إلى قدرات من مارسه و عقده لغيره، فقد تنجح والدتها، كما قد تنجح المرأة الثانية.

زيارة إلى " لالا وردية " بتاريخ : 16-02-2000م

الإسم : لالا وردية
السن : أربعة و خمسين سنة (54)
السكن : قرية " هندو " تبعد عن دائرة عزازقة بـ 20 كلم و عن تيزي وزو بـ 55 كلم
الوضعية العائلية : أرملة و أم لثلاثة بنات و إبن متزوج
المهنة : مرابطة

عندما دخلنا بيتها، وجدنا إمرأتين كانت تكشف لهما عن مشاكلهن و مرضهن، جلسنا ننتظر دورنا. لاحظنا على هذه المرابطة الوقار و الإطمئنان، وجدنا بيتها مختلفا عن بيوت زميلات لها في المهنة، إعتدنا رؤية بيوت داكنة توحي بمكان يمارس فيه السحر، بينما هذا البيت كان جديدا، واسعا، نقيا و منظما، على الجدران آيات قرآنية، إطار كتب عليه " محمد رسول الله " و آخر كتب عليه " الله أكبر ". أخبرتنا المرابطة أنها تخاف الله، تصلي و لا تعمل ما يغضب الله، تقر أنها تعالج الأطفال من العين، العقم بالدلك و قد أنجبت نساء كثيرات بفضلها، و الكل يشهد لها بالقدرة حتى أن ساحرة في قريتها تدعى " لالا رزيقة " تبعث لها النساء لتعالجهن من العقم.

كما تعالج بعض الأمراض النفسية كالخوف، الوسواس و القلق، تشخص المرض أولا ثم تباشر في العلاج و طريقتها كالآتي : تطلب من المريضة أن تضع البيض تحت سريرها مدة ثلاثة أيام، ثم تقرأ عليه المرابطة، تعطيه للمريضة تتفل عليه ثلاث مرات يمينا و ثلاث مرات شمالا، تتركه المرابطة مدة تحت سرير بجوارها ريثما تسأل المريضة عن أعراض الداء، بعدها تأخذ البيض، تضعه فوق رأس المريضة و تتمتم، ثم تمسك البيض و تعطيه للمريضة تفقصه و ترميه إلى عين جارية حتى يزول المرض و يسري كالماء، أو تطلب منها أن تطبخه في الماء فإن تشقق البيض و كان نقيا، صافيا تأكله، هذا دليل على أن المرض خرج عن طريق النار، ذلك يعني الشفاء. أما إذا بقي البيض على حاله، أي لم يتشقق. فلا تأكله المريضة بل ترميه إلى نبات الهندي، فهذا النبات يستعمل للوقاية من العين، الحسد و الشر.
تعالج هذه المرابطة التعريضة، تقول أن طريقتها أنجع من الطرق الأخرى، على الفتاة الراغبة في الزواج أن تشتري مواد خاصة بطقس التطهير و هي :

- مشط جديد
- مرآة جديدة لا يجب أن يراها أحد
- صابونة
- بيضة
- صحن جديد
- ثوب جديد
- علبة من الشمع
- علبة حناء
- مبلغ من المال يقدر بألف دينار تعطيه للمرابطة لشراء بعض العقاقير

تقطف الفتاة نبات " أمقرمان " في اليوم الذي يكتمل فيه القمر، كي يكتمل حظها و تقول : " سلام أعليك أيمقرمان إروحن إلمان (...) شرذ أسومان ألهبهب أكسوميس إرق أمدهب ويـن إديوسان أتخظب "، معناه كالتالي : السلام عليك يا نبات " أمقرمان " الذي يذهب في أمان (تذكر إسم الفتاة) تغسل بماء الحب الجنوني، لحمها يلمع كالذهب من رآها سارع لخطبتها.
تعجن المرابطة الصابونة مع هذه النبتة في يوم الخميس مع عيدان القرنفل، قطرات المسك، قليل من الملح، العسل و تصنع صابونة بهذه المواد.

في ليلة الخميس، قبل طلوع الفجر، على الثالثة صباحا، كما تقول المرابطة هو وقت يتعارك فيه الليل و النهار، تخرج الفتاة إلى الحديقة أو إلى الشرفة، تكون نصف عارية، يجب أن يظهر صدرها، في يدها اليمنى قليل من الجاوي، حوالي ملعقة صغيرة و مثلها من الحناء، الملح و السكر. تنظر إلى النجوم ليكتسب وجهها بياض و لمعان النجوم، تربط الحناء في يدها و تقول :
" يا الفال يا الفالي، يا نحي لقفالي، أمليي أزهرو أندا يلا أدياس غوري " يا فالي يا من تنزع لي عقدي، وجهني إلى حضي أينما وجد كي يأتي عندي. بعد طلوع الفجر تذهب إلى عين جارية، تملأ دلوا من الماء و تقول : " سلم عليك أثلا أذميم أملمصبح أيكسغ فلي أذلمضرا " أي : السلام عليك أيتها العين، وجهك كالمصباح، جئت لأرمي عن نفسي الضرر. ثم تعود إلى المزل لتؤدي طقس التطهير. تقف وسط " جفنة " كبيرة تفرغ فيها الماء الذي جلبته من العين، ترمي فيه المرآة، كي يكون وجهها لامعا و صافيا، قليلا من الملح كي تكون حلوة، عذبة، كما تضع البيضة (1) في هذا الماء التي ترمز إلى الخصوبة في هذا الطقس. تغسل جسدها بالصابونة من الوجه إلى القدمين، تركز على صدرها، فخذيها و رحمها. ثم تصب الماء ثلاث مرات على رأسها، ثلاث مرات على الجهة اليمنى من جسدها، ثلاث مرات على الجهة اليسرى. تمشط شعرها بالمشط الذي قرأت عليه المرابطة من قبل، تفرق شعرها إلى نصفين، تمشط النصف الأيمن ثلاث مرات ثم النصف الأيسر ثلاث مرات. ترتدي ثوبها الجديد و تنتقل إلى مرحلة أخرى، هي ربط الحناء.
تترك الماء جانبا في دلو أو إناء. تكسر البيضة في الصحن الجديد، تضيف الحناء مع قطرات من ماء الزهر و قطرات من الماء الذي غسلت به، تربط الحناء في يدها اليمنى. يوم السبت صباحا ترمي – الماء الذي غسلت به، و إحتفظت به في الدلو– ترميه مع الفجر في الطريق الذي يمر عليه الرجال أما الشمع فتشعله في مقام الولي.

نلاحظ أن طقس التطهير الذي تستعمله هذه المرابطة، يختلف عن الطقوس التي رأيناها سابقا، بالإضافة إلى أن المرابطة تطلب ألف دينار جزائرية لشراء التهجيجة، الهبالة، شنشافة، حب الوسواس، تعلقها الفتاة كحجاب بعد أداء الطقس.

(1) ترمز البيضة أيضا إلى فقدان العذرية، في منطقة القبائل، قبل خروج العروسة من بيت أهلها، تكسر بيضة أمام الباب.

زيارة إلى " لالا فاطمة " بتاريخ : 16-02-200م

الإسم : لالا فاطمة
السن : خمسة و ستين سنة (65)
السكن : قرية " ثمعسيث " تبعد عن قرية هندو بسبعة كيلومتر (7 كلم)
الوضعية العائلية : أرملة
المهنة : ساحرة

وصلنا إلى بيت هذه الساحرة بعد الثانية زوالا، أخبرتنا أنها لا تشتغل بعد الظهر، قبلت أن تستقبلنا بعدما عرفت أننا جئنا من " تيزي وزو "، مسافة 62 كلم. دخلنا الغرفة التي تستقبل فيها النساء، إستغربنا لظلامها الداكن، كل ما فيها يدل على أننا فعلا في بيت ساحرة محترفة. لا يوجد و لا إطار واحد على الجدار. بعض الثياب مترامية على الأرض و أخرى معلقة على الجدران، حصير تجلس عليه و آخر للزائرات. صناديق مملوءة بالعقاقير، أكياس من الملح و السكر، أعشاب يابسة، إناءين أو ثلاثة إكتحلوا بالوسخ بسبب القيء. تزعم أنها عندما تتقيء يزيل السحر للمصابة به. في المكان الذي تجلس فيه علامات من الحناء و القطران بالإضافة إلى رائحة كريهة نتيجة كثرة العقاقير، لا تطاق.

إن لقب الساحرة جدير بها، كل العوامل تشير إلى أنها ساحرة متمرسة، مستعدة لأي عمل سحري خيرا كان أم شرا. و إعترفت بلسانها بأنها قادرة على تخدير الرجال و تجعلهم يركعون كالكلاب أمام نسائهم و تقول أن الرجل الذي يسقط بين يديها لن يفيق أبدا، مساكين هؤلاء الرجال .
من بين الطرق التي تستعملها لهذا الغرض أخبرتنا بالطرق الآتية :
تأخذ المرأة قليلا من التراب الذي يحمل آثار قدم الزوج و تقول : " أدمغد لثرك سزنز لمحبك أتتيو أكدرز أكن يحبس أصباظ أقرز "أي : أخذت آثار قدمك سيجتمع حبي مع حبك كما يجمع الحذاء القدم. تضيف إلى هذا التراب ليف الروح، الهبالة، التهجيجة، حب الوسواس، حب السكت، الشنشافة، بونرجوف (نبات يجعل الرجل يرجف من الحب)، القرنفل و الملح. تقرأ الساحرة على هذه المواد، تجعلها في قماش، تخيطه و تأخذه المرأة معها كي لا يفارقها حب وولع الزوج.

أخبرتنا هذه الساحرة أن إمرأة في قريتها قصدتها منذ خمسة عشر سنة، تشكو من زوجها الذي قرر أن يتزوج عليها، حاولت إقناعه و لكنها لم تفلح. بعدما بقي أسبوع على العرس و تأكدت الزوجة أن المسألة ليست مزاحا، جاءت تبكي عند هذه الساحرة تقول بنفسها ما يلي :
أعطت للمرأة فأرا صغيرا، مغمض العينين، طلبت من المرأة أن تطبخه مع اللحم و الخضر، بعدما يطهى، ترمي الفأر المسحور تحت شجرة الدفلة أو الحنظل، تعطي للزوج اللحم و الخضر للغذاء و العشاء. أكدت لنا الساحرة أن المرأة فعلت ذلك، بمجرد أن أنهى عشاءه شعر بالندم و عاد إلى صوابه و إستغرب في نفسه كيف يتزوج من شابة في العشرين و هو تجاوز الستين؟! هكذا طلب العفو من زوجته و عدل عن الزواج. سألنا هذه الساحرة عن تفاصيل العملية السحرية، فرفضت الإفصاح عن أي شيء. قالت لنا : " لقد عملت أشياء كثيرة، نبشت القبور، و عقدت السحر لكل من طلب مني ذلك، كنت أتردد كثيرا على المقابر، كنت شابة و في صحة جيدة، أما الآن فقد تعبت، يجب أن أترك و لو مكانا صغيرا أجد أين أضع فيه رأسي عندما أموت ".

إنها ساحرة بأتم معنى الكلمة، و يبدو أنها تكن كراهية شديدة للرجال، كأنها تثأر لدرجة تصل بها إلى تسميم زوج المرأة الساذجة و الجاهلة، لم تشعر أبدا بالندم في كلامها، بل هي مستعدة للعمل السحري، تجد فيه راحتها و تشبع بذلك غرائزها المرضية، عندما قالت : " يجب أن أترك مكانا أضع فيه رأسي عندما أموت "، تعلم يقينا أن ما تمارسه من السحر و الشر حرام و إستعانتها بأعضاء الموتى نشاط مقرف، لا إنساني، لكنها لم تعدل عن ممارسة السحر رغم سنها و لا تزال تتفث في العقد.

زيارة إلى " لالا خديجة " بتاريخ : 20-02-2000م

الإسم : لالا خديجة
السن : حوالي خمسين (50) سنة
السكن : قرية "رجاونة" بأعالي تيزي وزو
الوضعية العائلية : مطلقة، أم لثلاثة بنات و طفلين
المهنة : ساحرة

إنبهرنا إثر دخولنا إلى " فيلا " الساحرة، تقع وسط منظر طبيعي أخاذ، تسكن منعزلة و بعيدة عن القرية. وجدنا قاعتين للإنتظار، واحدة للنساء و أخرى للرجال. إستغربنا حينما رأينا الرجال ينتظرون، لم نشاهد هذه الظاهرة عند الساحرات اللواتي زرناهن بالمنطقة. هذه الساحرة لها رواج كبير لأنها تعمل مع شيخ في مقام " بالوا " يساعدها في بعض الأمور المستعصية و يسافر إلى المغرب باستمرار يجلب العقاقير من هناك.

بينما كنا ننتظر في ساحة كبيرة لأن قاعة الإنتظار قد إمتلأت، فخرجت النساء إلى ساحة المنزل، وصلت جماعة من النساء من الجزائر العاصمة، من مدينة " الثنية، برج منايل، تيزي وزو "، نساء علمنا أنهن ذات مستوى تعليمي راقي، منهن أساتذة، ممرضات، و من بينهن طبيبة جاءت من مدينة "الثنية" سألناها عن سبب الزيارة، فأخبرتنا أنها قلقة، متوترة لأن زميلة لها في العمل عقدت لها سحرا ووضعته في مكتبها بالمستشفى و في غرفتها، فأصبحت عاجزة عن العمل، تقول أن زميلتها تحسدها عن علاقتها الطيبة مع المرضى و نجاحها و إتقانها لعملها. فهي تداوم على زيارة " لالا خديجة " منذ عامين و تشعر في كل مرة تزورها فيها بالراحة و الإطمئنان، تعترف بأنها أصيبت بنوع من التخدير، إن مر أسبوع واحد لم تأت لزيارتها ستمرض. الساحرة تعطي لها أكياس من العقاقير التي يحضرها الشيخ من المغرب و الطبيبة تملأ جيوب الساحرة بالأموال.

كانت النساء تتحدث عن إكتشاف الساحرة لكل من يحاول إختبارها و قد كشفت فيما سبق عن الذين يقصدونها للإختبار، فخفنا أن يفضح أمرنا و نعود دون جمع المعلومات عن وضائفها و طرقها، لكن دخلنا و لم تكشف حقيقتنا. نظرت في سبحتها ثم طلبت منا وعدة. أعطيناها خمسين دينار (50 دج) فإحتقرت المبلغ، أكدنا لها أننا سنعود إليها بمبلغ كبير في المرة القادمة، إستهلت الزيارة بالحديث مباشرة عن المشكل المزعوم الذي نعاني منه. لم تبدأ لا بالأدعية و لا بذكر الأولياء و الأسياد، لم تذكر إسم الله أبدا، قالت لنا ما يلي : " أنت مسحورة منذ أن كان عمرك خمسة عشر سنة، فردا من عائلتك وضع لك السحر في ملابسك لذا إن بقيت بدون علاج لن تتزوجي، و لا تستطيعين العمل ستكونين عاجزة في حياتك و في عملك، لكن العلاج ممكن، لم يتأخر الوقت، إعطي لنا ألف و خمس مائة دينار (1500دج) لشراء مواد العلاج، ربما علاجك يستدعي سنتين أو أكثر، لكن سنزيل عنك السحر ".هذا المبلغ، تليه مبالغ أخرى كلما إستدعى الأمر شراء العقاقير.

مثل هذا التشخيص يحطم الحالة النفسية للزائرة، يدفعها إلى الإكتئاب و اليأس و يخلق في نفسها شرخا و مرضا يثير أعصابها و يجعلها منهارة نفسيا، فاقدة الثقة في نفسها و في غيرها. تصبح عائلتها عدوة لها، تشك في أقرب الناس إليها مما يؤدي إلى تفكك العائلة و إنقسامها. عندما يصل الفرد إلى مرحلة اليأس يتمسك ببصيص الأمل المزعوم الذي تقدمه الساحرة، علاوة للآثار السلبية على صحة الفرد و عقله، تلك الأمراض التي تسببها العقاقير و المواد الكمياوية التي تدخل في جسد الضعفاء. لكن العقل لا يستحضر في أوقات اليأس و الإنهيار النفسي، زيادة على المشاكل و الظروف الإجتماعية القاسية التي تدفع بالمرأة إلى الإستعانة بالسحر للهروب من واقعها اليومي.

2- التحقق من الفرضيات :

أ- التحقق من الفرضية الاولى :

تعج بيوت الساحرات في منطقة القبائل بالفتيات المقبلات على الزواج، و لم يسعفهن الحظ لأسباب تخرج عن نطاقنا. و لكنهن يرفضن تفسير سبب تأخرهن في الزواج إلا بالإستناد على السحر كمانع قوي لا يمكن إستأصاله إلا بزيارات متتالية إلى الساحرة قد تستغرق سنوات، تستنزف فيها الأموال و الجهد و الوقت. فمجرد عزوف الفتاة عن الزواج يعلل بالسحر و عدم وجود شبان يهتمون بها يفسر بالتعريضة، و امتناع الرجال عن خطبتها يعود أساسا إلى السحر. فالفشل في أداء وضيفة إجتماعية ملحة يكون حتما بسبب قاهر، يخرج عن طاقة الفتاة و لا يعالج إلى بالسحر، يصل إعتقاد الفتاة الريفية بقدرة الساحرة إلى إستشارتها في أمر إرتباطها برجل ترغب في الزواج به، فإن نصحتها بالإبتعاد عنه، فعلت. لاحظنا أن الفتيات الريفيات غالبا ما يتراوح مستواهن الدراسي من الإبتدائي إلى التكميلي، نسبة قليلة جدا وصلت إلى النهائي و لم تتحصل على شهادة البكلوريا، يأتين إلى الساحرة يبحثن على السبب الذي منعهن عن الزواج، و يعرفن أن ثمة سببين : السحر أو التعريضة. فإن كان المانع سحرا عقده الحساد و الأعداء تبطله الساحرة بطرق سحرية. أما إذا كان العارض، عين أو تابعة، تزيله بطقوس تطهيرية.

لكن ما أثار إنتباهنا هو عدم إقتصار الزيارات إلى الساحرات على فئة الفتيات الريفيات ذات مستوى تعليمي محدود. بل شاهدنا جامعيات جئن من مدن مجاورة كمدينة "تيزي وزو، برج منايل، الثنية، و حتى من العاصمة "، وجدناهن عند " لالا خديجة " بقرية "أرجاونة " و قد صادفنا طبيبة عمرها 35 سنة داومت على المجيء إلى الساحرة منذ عامين، تريد إزالة التعريضة.

هذا يدل على إعتقاد الفتاة المتأخرة عن الزواج بوجود عارض يكبلها، لا توانى في اللجوء إلى الساحرة لتسوية وضعيتها الإجتماعية، لأنها تعلم أن عدم الزواج سيؤدي بها الى المهانة وعدم الإحترام .كماأخبرتنا "جميلة "،عمرها 34 سنة، خياطة بقرية "رجاونة"، قالت : "بقائي عازبة إلى هذا السن، جعل الشبان يطمعون فى ولن أكسب إحترامهم إلا إذا تزوجت" هذا يعني أن هذه الفتاة ترى أنها تجاوزت السن اللائقة بالزواج.لهذا السبب يرى فيها الشبان الفتاة العانسة التي وصلت الى سن اليأس ، مستعدة لإشباع نزواتها الجنسية مادام الزواج قد فاتها ،وبالتالي ترى أن وضعيتها هذه سببت لها الإهانة ولن تسترجع إحترام المجتمع لها إلا بالزواج. خاصة أن الريف يخضع لقوانين تقليدية صارمة ،تحتم على الفتاة أن تتزوج في سن مبكرة، كلما تسنى ذلك كلما إكتسبت عائلة الفتاة سمعة طيبة. أما إذا تأخرت عن الزواج فذلك يعني وجود أسباب قد تتعلق بعائلة الفتاة التي تقتصر عادة على الأصل والنسب والسمعة، وقد يتعلق الأمر بالفتاة شخصيا، إما بسيرتها أو بسلوكها وأخلاقها أوبجمالها أوصحتها فعدم زواجها يثير حولها الشكوك والأقاويل وتكثر الإشاعات عنها، فيمتنع الشبان من خطبتها، كما تقول"يمينة" 36 سنة، ماكثة في البيت من قرية "ترمتين" :"شبان القرية كلهم يهتمون بي، لأني مرحة وأحب الحياة، لكن لا أحد منهم يتقدم لخطبتي". القرية القبائلية متمسكة بتقاليدها، وخروج الفتاة كثيرا وحديثها مع شباب القرية، يجعلها ذات سمعة سيئة، لا أحد يرضى بالزواج بها لأنها إمرأة غير صالحة، فالإستقامة والحياء وعدم إبراز الفتاة يؤهلها الى الزواج، أما إذا ظهرت على الساحة مثل الرجل وحاولت أن تتشابه معه، هذا يعرضها الى العنوسة، التي لا تجلب لها سوى النظرة السيئة و الوضعية الدنيئة. لذا فهي تحاول الإرتقاء بمكانتها الإجتماعية بواسطة السحر.

نعتقد أن وجود نسبة كبيرة من الفتيات العانسات يعود السبب في عدم زواجهن ربما الى عوامل إيديولوجية و أخرى إجتماعية، دفع بهذه الفئة و بالمجتمع القبائلي بأسره الى تفسير هذه الظاهرة بوجود"تعريضة" تمنعهن من أداء وظيفة الزواج. لذا تلجأ الفتيات دائما الى إزالتها بطقوس تطهيرية، تهدف إلى رمي الماء في مفترق الطرق، بمجرد مرور فتاة عليه، تنتقل إليها التعريضة. حتى و إن مضت مدة على إحتكاك الفتاة بالماء السحري فإن مفعوله سيستمر و يبقى متصلا بها، هذا النوع من السحر يدرجه " فريزر " (FRAZER) تحت قانون يسميه " loi de contagion ".
الفتاة القبائلية إذن، ترجع سبب تأخرها في الزواج إلى السحر الذي سببته التعريضة، و أصبحت كل العوامل الأخرى التي عرقلتها عن الزواج تعلل بوجود عارض يجب إزالته بطقس تطهيري.

أخبرتنا " مليكة "، 26 سنة، تشتغل بالبريد و المواصلات بتيزي وزو، لم تتحصل على البكالوريا، أن " لالا خديجة " تختص بعلاج الفتيات من التعريضة، و قد إشتهرت بقدرتها في جلب الحظ و تقول : " لا أحد يهتم بي لا في الشارع و لا في العمل، أخاف أن أبقى بدون زواج، لذا جئت أطلب الحظ من لالا خديجة ". نلاحظ أن هذه الفتاة صغيرة في السن و عاملة، لكنها تخاف من بقائها عانسة، تعلل خوفها بأن لا حظ لها و حسبها يعود ربما إلى وجود عارض ما يعرقلها مستقبلا عن الزواج، فهي تأخذ إحتياطاتها.
نلمس شبح التعريضة جليا في مواقف الفتيات، كأنها تتربص بهن في كل وقت و في كل مكان. الدليل على ذلك، الإحتياط و الحذر الشديد الذي تأخذه أي فتاة ريفية عندما تخرج، لأن الطقوس التطهيرية كما أشرنا إليها سلفا، يرمى الماء و المواد السحرية إلى مفترق الطرق، لذا تحذر الفتيات من العبور على هذا الماء و إلا ستنتقل التعريضة إليهن. كأن هذه التعريضة عدوى تنتقل من فتاة لأخرى و يصلح هنا أن نقول : الوقاية خير من العلاج، أما إذا حدث و أصيبت الفتاة بهذا المرض المعدي، تلجأ إلى علاج سحري فعال.

قالت لنا " سميرة " 28 سنة، عاملة بمصنع النسيج " بذراع بن خدة "، مستواها الدراسي التاسعة أساسي. أنها جاءت إلى " لالا خديجة " أول مرة مع أختها، كان ذلك في سنة 98، تريد أختها إزالة التعريضة. فعلا، تحققت رغبتها و تزوجت و هي اليوم سعيدة بفضل مساعدة الساحرة لها، فقررت أن تزور هذه الأخيرة لتعطيها علاجا يجلب لها الحظ تقول : " عندما أذهب إلى العمل، أجد في الطريق الماء و بعض العقاقير، كنت لا أخاف من التعريضة، لكن عندما لم يتقدم أحد لخطبتي، أدركت أنها التعريضة ". فمجرد عدم إهتمام الشبان بها، لدرجة أنها تشكي من قلة الخطاب، و تشعر بالذنب و تأنيب الضمير لأنها كانت مستهزأة، غير مبالية، لهذا إنتقلت إليها التعريضة، فالوقاية دائما ضرورية. عندما سألناها عن الوصفات السحرية التي تقدمها الساحرة للفتيات الراغبات في الزواج، قالت أنها كثيرة، متعددة، تباينها يعود إلى تباين أسباب أسباب عدم زواج الفتاة. تشخص الحالة أولا ثم تعطي الدواء المناسب لتلك الحالة. بالنسبة لها، أعطتها حجابا مكتوبا بالزعفران و ماء الورد تأخذه دائما معها، و " حرزين " أو حجابين تبخر بهما مع الخزامى و الجاوي، صحن كتبت عليه طلاسم و رموز غير مفهومة، تأكل فيه، إبريق من الماء مكتوب بالطلاسم، تشرب فيه، بالتالي، تسترجع حظها في الزواج.

بينما " حليمة "، 37 سنة، مستواها الدراسي لا يتجاوز السادسة إبتدائي، تقول : " تقدم لخطبتي شبان كثيرون، لكني أرفض دائما و بدون سبب، أخبرتني الساحرة أني مصابة بالسحر و مس طفيف ". في حالة هذه الفتاة عدم الزواج يعود إلى سحر عقده أحد حسادها أو عدو من أعدائها. فكلما تقدم إليها شاب رفضت بدون سبب. بالإضافة إلى السحر، بها مس طفيف من الجن، هذا ما يسمى بالمصطلح الشعبي – المتداول بكثرة في منطقة القبائل – التابعة. هذه الجنية يعتقد أنها القرينة، تمنع و تعيق الفتاة من الزواج بدافع الغيرة و الحسد. و لا يمكن إزالة السحر و متابعة الجنية إلا بنفس الطرق أي بالسحر.

قد صادفنا عند نفس الساحرة ظاهرة لفتت إنتباهنا، هي الإعتقاد بكل ما تتلفظ به الساحرة، حتى و إن كان يخرج عن حدود العقل و المنطق، هذه " ويزة " عمرها 30 سنة، خياطة، قالت لنا : " لالا خديجة تعمل مع شيخ يتجاوز عمره 195 سنة، هو الذي يجلب لها العقاقير من المغرب و يساعدها في عملها ". سألناها إذا كان يعقل أن يعيش شخص إلى مثل هذه السن ؟ و الغريب أنه يسافر إلى المغرب يقتني العقاقير من هناك و هو في سن كهذه. أكدت لنا هذا الأمر و أنها مقتنعة بأقوال الساحرة. أردنا أن نجمع أراء فتيات أخريات حول مسألة الشيخ المسن. فطرحنا السؤال على أربع فتيات يتراوح سنهن بين 26 سنة و 38 سنة، إتفقن على رأي واحد، و من بينهن " صليحة " سكرتيرة بتيزي وزو، تسكن قرية " ترمتين " قالت : " سمعت أن لالا خديجة تعمل مع شيخ تجاوز المائة سنة، هو الذي يجلب لها العقاقير من المغرب، يذهب مرة في كل شهر ". تضيف صديقتنا قائلة: " إنه رجل غير عادي، هو ساحر يتعامل مع الجن، هكذا قيل لنا، نحن نصدق، عندنا النية ".

نستنتج من كل ما سبق، أن الفتاة الريفية ترفض وضعيتها و عنوستها، موقفها هذا نتيجة لحكم المجتمع الصادر في حقها و الذي يوجه إليها نظرة دونية و قيمة سلبية. فهي لا تكتسب تقديره و إحترامه إلا إذا أدت وظيفتها الإجتماعية المبنية على الزواج. و أي فشل أو إخفاق في أداء هذه الوظيفة الملحة، يفسر من طرف الفتاة التي هي فرد من هذا المجتمع بعوامل غير طبيعية، إنه المنفذ الوحيد الذي تلجأ إليه و تعرف يقينا أن المجتمع سيتقبله. لعلنا لاحظنا أن بيوت الساحرات تكتظ بعدد لا حصر له من الفتيات، لكنهن يأملنا في قدرات الساحرة كي تغير وضعيتهن و مستقبلهن و لن يتأتى ذلك إلا بضمان زوج يسمح لهن بالإرتقاء إجتماعيا. لدرجة أن الفتاة تقتنع بكل أقوال الساحرة، أحيانا، تخرج عن المنطق. كما حدث مع الفتيات المستجوبات عن الشيخ المسن الذي يتجاوز 195 سنة، بما أنه ساحر، يستخدم الجن فإنه قادر على إتيان الخوارق، فهو إنسان يختلف عن غيره لأنه مسير من طرف كائنات غير طبيعية. فالفتاة تعتقد بالسحر لذا لجأت إليه تطلب تغيير واقعها الراهن، هذا الموقف يجسد لنا بوضوح إعتقاد القبائل بالسحر و تمسكهم بكل ما هو غير طبيعي، و يعتبر السحر و سيلة فعالة لتحقيق رغبة الأفراد التي تمثل في الحقيقة إرضاء لمطالب و تطلعات المجتمع القبائلي.

ب- التحقق من الفرضية الثانية :

المرأة القبائلية تحاول ربط زوجها إليها بالسحر و تسعى إلى توطيد العلاقة الزوجية و الحفاظ على إستمراريتها بالسحر، وسيلتها الوحيدة و المضمونة في تمتين الرباط الزوجي. في المجتمع القبائلي الذي يعرف بسيطرة الرجل على المرأة، تقلب الموازين و تمارس الزوجة سيطرتها على زوجها، بحيث لا يملك أي وسيلة دفاع يسترجع بها قوته. و تنتقل هذه القوة و التملك إلى المرأة.

تقول " فريدة "، 37 سنة، أم لطفلين، معلمة بقرية " تيفرة " : " إنها غلطتي، لم أحجب زوجي يوم زفافنا، رغم أننا تزوجنا عن حب، لكنه تغير كثيرا، أشك في وجود إمرأة أخرى في حياته ". هذه المرأة رغم أنها متعلمة، إلا أنها تشعر بالندم لعدم إتخاذها إحتياطات لازمة قبل الزواج. لم تبحث عن الأسباب التي جعلت زوجها يتغير من ناحيتها، لم تحاول التقرب منه و التفاهم معه أو حتى الحوار معه في شأن علاقتهما، سارعت إلى الحكم عليه بالخيانة، هذا الشك دفعها إلى الإستعانة بالسحر. فإذا كانت المرأة في بداية زواجها تحجب زوجها، فهي لا تفعل إلا خوفا من إستيلاء إمرأة أخرى عليه. لقد تشبعت و نهلت من الثقافة القبائلية و تلقت مبادئ الدفاع عن حياتها و زوجها، فمجرد تغير هذا الأخير إتجاهها يعني وجود إمرأة أخرى. الوسيلة الوحيدة التي تستطيع إمتلاك وزجها دون أن تشاركها فيه إمرأة غريبة، هي السحر، تعمل كل ما في وسعها للإستحواذ على زوجها الذي يمثل عماد بيتها، فصلاحه يعني حتما صلاح العلاقة الزوجية التي تحمل قيمة جوهرية في نظر المجتمع.

أما " فاطمة "، 22 سنة، أم لثلاثة أطفال، ماكثة في البيت، يبدو عليها التعب و القلق، تعاني من سوء معاملة الزوج لها، تعتقد أن ثمة إمرأة أخرى تتربص به و عقدت له سحرا كي يحبها، فقالت: " أزور يما حاجة منذ عامين، لا أستطيع أن أبقى أسبوعا كاملا دون أن أأتي إليها، هي وحدها تزيح عني القلق بالعقاقير و البخور ". لاحظنا على هذه المرأة الإرتباك و عدم الثقة في النفس. فربما ترى أنها لا تسعد زوجها، لا تقوم بوظائفها في البيت، حيث أخبرتنا أنها تركت المنزل مهملا، لم تستطع القيام بشؤونها المنزلية، هرعت إلى الساحرة تهدئ من روعها، بعد كل زيارة تسترجع هدوءها، توازنها و الثقة في نفسها، كانت تشتكي من توبيخ الزوج لها دائما، في الوقت نفسه، تفصح عن خوفها من زوجها الذي سيلومها لعدم تحضيرها للغذاء. هذه المرأة أصبحة مدمنة على السحر، ترى فيه وسيلة مهدئة، تسترجع بها توازنها مع عائلتها، مع مجتمعها، فالبخور و العقاقير الكمياوية تؤثرعلى شخصيتها، عندما تستغني عنها ينتابها القلق و الحيرة فتضاعف الكمية، و الحلقة تدور، تعالج نفسها، كما تسمم بدن زوجها بالسحر. الخطورة الحقيقية الكامنة في هذه الظاهرة، هي أن الزوجة تعقد سحرا لزوجها من جهة، و المرأة الأخرى - إن وجدت فعلا - تقوم أيضا بسحره ، فالرجل في هذه الحالة لعبة خطيرة تتسلى بها إمرأتين، كثيرا ما تنعكس آثار السحر على جسمه، صحته، نفسه و التمادي فيها يؤدي إلى إتلاف عقله.

بينما " وريدة "، 45 سنة، أمية، أم لأربعة أطفال قالت : " أنا لا أقدم على عمل إلا بعد إستشارة " لالا فاطمة "، كل ما طلبته مني، فعلته لزوجي هذا هو سر نجاح علاقتنا الزوجية، رغم أنه مقيم بفرنسا إلا أنه وفي لي ". ترى هذه المرأة أن إتباعها لنصائح الساحرة هي التي جعلت زوجها مخلصا. رغم أنه مهاجر بفرنسا، يتعرض لنساء كثيرات، لكنها لم تكن غافلة، تستشير الساحرة، تعطيها كل المواد السحرية و التعاليم التي تجعل الزوج متعلقا بها لدرجة الهيجان و الجنون، لأن الإثارة السحرية تدفعه إلى المجيء. كلما إبتعد و تركها و طالت المدة، عقدت له سحرا، تهيجه و تثير مشاعره نحوها بصفة غير طبيعية. هذه المرأة إذن لا تبحث عن حب طبيعي و علاقة زوجية عادية مبنية على الحب الحقيقي و إنما تسعى إلى تهييجه جنسيا. و يكون حبه لها حالة مرضية، غير طبيعية، و بالتالي العلاقة تبدو مزيفة، لكن هذا لا يهم المرأة إذ كانت تعلم أن زوجها يحبها و يتعلق بها بفضل السحر، و إبطاله يعني فقدان الرباط الزوجي لأواصر الحب التي تبنى عليها العلاقة الزوجية الطبيعية. ما يهم المرأة هو إستمرارية الزواج حتى و إن كان أساسه التزييف و الكذب.

بينما " فتيحة "، 39 سنة، أم لطفلين، خياطة، تقول : " تركني زوجي من أجل إمرأة يعمل معها، لكن عندما عرفت " لالا وردية "، تحسنت علاقتنا قليلا "، هذه المرأة الريفية، تشعر بالنقص، فهي ماكثة في البيت، زوجها يعمل بمدينة " تيزي وزو "، فتعلق بإمرأة متعلمة مثله، تسكن في المدينة، فهي متقدمة و سلوكها حضاري مقارنة مع الزوجة التي تعيش في الريف. لكن إطمأنت نوعا ما عندما بدأت تزور الساحرة و تعطيها موادا سحرية تعقدها لزوجها، شعرت بتحسن في علاقتهما، بفضل السحر، تغير الزوج في معاملته الجافة و أصبح لينا، لطيفا نسبيا معها. فهي مستعدة للإستمرار في ممارسة السحر على زوجها، كلما أظهر جفاء نحوها، كلما لاحظت تغيرا من جهته و عاد إلى المرأة الثانية التي يرغب في الإرتباط بها، جلبته إليها بالسحر. فخوفها من الطلاق يدفعها إلى أسلوب السحر، الطريقة الوحيدة التي تبعد عنها هذه الوضعية التي لا يتقبلها المجتمع و لا ترضاها العائلة، إنها وضعية المطلقة.

أحيانا تكون غيرة المرأة على زوجها مرضية، تسعى إلى إمتلاك زوجها، ترفض فكرة هجره لها و إرتباطه بغيرها، في بعض الأحيان، تلجأ إلى ربطه بالسحر، فلا يحب سواها كهذه المرأة المسماة " جبيقة "، 43 سنة، أم لستة (06) أطفال، أمية تقول : " الرجال لا أمان لهم، الحل الوحيد هو ربطهم نهائيا ". ربط الرجل بالسحر، يمثل الوسيلة الوحيدة لتهدئة خوف المرأة و غيرتها المرضية على زوجها، مجرد التفكير، في هذه المسألة يدفع المرأة إلى الخوف و تكون " الغيرة مبنية على صراع يشمل وسيلة دفاعية ... الغيرة منظمة في وحدة من القيم و النظم، إنها تمثل تركيبة ترمز إلى العلاقة العائلية و القروية ". (1) المرأة إذن تدافع عن زوجها، إنه ملك لها، فقدانه يعني لها ضياع مكانتها الإجتماعية، هذا الخلل في النظام العائلي يجعلها في وضعية دونية.

(1) Plantade, **La guerre des femmes**, P, 151.

نستنتج من هذه المواقف الصريحة أن المرأة الريفية تلجأ إلى السحر، كلما شعرت بوجود خطر يهدد علاقتها الزوجية، عندما تتيقن من خيانة زوجها لا تملك القدرة في مواجهته، لا تستطيع الدفاع عن حقها بفرض كلمتها و تأكيد وجودها، تعجز على تحسيس من حولها بقيمتها كامرأة، دورها كزوجة و بوظائفها في العائلة، فالمرأة الريفية، خاضعة، مطيعة، ضعيفة، مقهورة و مقيدة بمجموعة من التعاليم و الأوامر و النواهي، هذا " عيب " و هذا " عار "، عليها خاصة أن تحافظ على شرفها و سمعتها فهي التي تحمل على عاتقها الوزن الثقيل المسمى " بالنيف ". كذلك، تعلم يقينا أن عدم تحررها إقتصاديا و إرتكانها على مدخول الزوج، يجعلها كمطلقة في وضعية سيئة جدا. لهذه الأسباب، تخاف المرأة الريفية من الطلاق. لا تعرف وسيلة تدافع بها عن حقها الشرعي في الحياة سوى بالسحر. لذلك نراها تعمل كل ما في طاقتها للحفاظ على زوجها و لو كانت تعلم أنه رباط مزيف، فهي تسعى دوما إلى إكتساب حب الزوج بإذكاء رغبته الجنسية نحوها، بواسطتها، يتسنى لها إمتلاكه. لا يهمها في هذه الحالة إن كان الحب طبيعي و حقيقي، بقدر ما تهمها المظاهر و الشكليات، فالنتيجة التي ترمي إليها في الأخير، هي الحفاظ على زوجها و تمتين مكانتها في العائلة، فالطلاق يشتت هذه الأخيرة. كأنها تريد أن تلفت إنتباه الناس و تقول لهم : أنظروا إليا، إني متزوجة و لست مطلقة. يبدو أن المظاهر أكثر أهمية و قيمة من حقيقة و جوهر الأشياء في المجتمع القبائلي.

جـ التحقق من الفرضية الثالثة :

عندما تمر بضعة أشهر أو عام على الأكثر من زواج المرأة، تبدأ المخاوف، و تكثر أسئلة العائلة و تعج القرية بالإشاعات، نادرا جدا ما يكون الرجل محل الشك، فالإستفهام يطرح على المرأة وحدها، كأنها المسؤولة الوحيدة في حصول الحمل أو عدمه. لا يلقى اللوم على الزوج، إنما تحمل الزوجة الشتيمة بمفردها. نعلم جيدا، أن المجتمع القبائلي، يعطي الحق الكامل للزوج في تطليق زوجته بسبب العقم، أو على الأقل، له الحرية التامة في الزواج بامرأة ثانية تكون مولدة و إن حدث العكس، خولت له الجماعة و الشرع في الزواج بأربع نساء.

تبدو مسألة الإنجاب ضرورية، عليها ينقرر مصير المرأة الريفية، خاصة إن كان زوجها يعاملها معاملة سيئة و عائلته كذلك، فيظهر المولود – خاصة إن كان ذكرا – أمل المرأة الوحيد في ضمان مكانتها داخل عائلة الزوج، بالإضافة إلى الإحترام الشديد الذي يكنه القبائل للأم، إنها المرأة الوحيدة التي لا توبخ، لا تلام و لا تعوض أبدا. الإبن يكون بالنسبة لأمه سندها عندما يكبر، تعطيه الحنان و الحب الكامل الذي لا تمنحه لزوجها، ضلت محتفظة به على أمل أن يكبر إبنها و يمنحها بدوره الحب، الإحترام و الرعاية.

يجب على هذه المرأة أن تعثر على من عقدت لها السحر، فتنتزعه من القبر، هي الطريقة الوحيدة لحدوث الحمل. ربما توجد طرق أخرى – لم نتوصل إليها – لكن يتقنها السحرة المتمرسين في الميدان، فهذا المجال واسع، لا حدود له، يصعب علينا حصر تقنياته و أساليبه و طرقه. ما يمكن إثباته و التأكد منه، هو إستعداد المرأة القبائلية لخوض تجربة السحر من أجل أن يكون لها حظ في الإنجاب. هذا يقودنا، إلى الإستنتاج التالي :

الزواج بالنسبة للمرأة الريفية يبنى أساسا على هدف و غاية إجتماعية ملحة، تكمن في إستمرارية العائلة. أما الحب و الجنس في العلاقة الزوجية، تظهر في صورة ثانوية أو بالأحرى، هي وسائل تؤدي إلى هدف نهائي هو الإنجاب، إذا كانت العلاقة الزوجية غير مبنية على هذه الوظيفة، فإن السبب لا يقتسمه الرجل مع المرأة، بل تتحمل المسؤولية الكاملة وحدها. يعود اللوم عليها لأنها هي العقيمة، بالتالي، سيئة، يجب إذن تطليقها و تبديلها بأخرى، مولدة، أو تركها جانبا وتعويضها بمن هي أحسن، تلك التي تنجب و تساهم في إستمرارية العائلة، قد تتدخل العائلة أو المجتمع في تقرير مصير الزوجين.

كثيرا ما تزوج الأم إبنها، لأن زوجته لم تلد، فالرغبات و طموحات الأفراد تكبح أمام مصلحة الجماعة.

الفرد لا يكتسب مكانة إجتماعية مرموقة إلا في إطار العائلة التي ينتمي إليها، لا يعرف إلا من خلال إنتسابه إلى الأب أو العائلة أو المجتمع، لذا، فالزواج أولا و قبل كل شيء مبني على الإنجاب الذي يعتبر وسيلة لضمان مكانة المرأة الريفية في العائلة، إزاء هذه الوضعية الحرجة التي تمر بها المرأة مباشرة بعد زواجها، عليها أن تثبت للعائلة أنها إمرأة كاملة، تملك دورا فعالا في المجتمع، فهي التي تعطي الذرية، لكن إخفاقها في أداء هذه الوضيفة، سيزعزع مكانتها، للحفاظ عليها و تثبيتها أكثر، وجدت وسيلة ناجعة تحتمي فيها و تلجأ إليها كلما شعرت بتهديد الجماعة لها، فكان السحر منفذها الوحيد. لا ننكر تأثير المجتمع عليها، لكن نعتقد أن نقص الوعي الديني أيضا له دور فعال في ممارسة المرأة القابائلية للسحر، زيادة على عامل التخلف و الأمية، بحيث، يدفعها جهلها إلى تقبل كل تعاليم الساحرة و تطبقها حرفيا، لم تفكر في الأخطار التي يمكن أن تسببها على جسدها و شخصيتها، لا تبال بالعواقب التي قد تكون وخيمة على حياتها، عندما تكون مقهورة إجتماعيا، تسعى إلى تعديل وضعها للوصول إلى الغاية التي ينتظرها المجتمع منها.

د التحقق من الفرضية العامة :

قلنا أن البقاء بدون زواج مرفوض في المجتمع القبائلي، لا يقبل هذا الوضع بالنسبة للشباب فما بالك بالفتاة ؟ وكم هي عظيمة تلك المصيبة التي تحل بالشاب الذي لم يعرف حرارة و دفء العائلة. كذلك موت الإنسان وحيدا، دون أن يترك أثرا في حياته يعتبرفاجعة لأنه يحتاج إلى من يحمل إسمه، فإذا مات يترك أولاده و أحفاده، لا تحدث قطيعة كاملة بين الميت و عالم الدنيا، لكي تتحقق هذه الوضعيات الإجتماعية الضرورية، يلجأ المجتمع أحيانا إلى طرق سريعة، فعالة يحقق بها أهدافه و يؤدي و ظائفه بالإستعانة بالمقدس السحري.

إنطلاقا من التحليل الأنتروبولوجي لهذه الدراسة المتواضعة، نقول أنه من الغريب، أن تستمر هذه الممارسات السحرية، كونها لا تتلاءم مع الدين الإسلامي و لا مع التطور الذي يشهده العصر، الذي يحطم هذا النوع من المعالجة للمواضيع و هي معالجة قدرية ترتكن على التكاسل و الإتكالية على كل ماهو ميتافيزيقي، فتكبح القدرات العقلية في تفسير الأمور تفسيرا عقلانيا و تحليل المظاهر إنطلاقا من المنطق. رغم أن دراستنا هذه، تقتصر على المجتمع الريفي الذي لم يشهد تطورا تكنولوجيا ملحوظا مقارنة بالمدينة، إلا أن ظروف الحياة الإجتماعية تحسنت كثيرا، و تطورت الذهنيات، لكن خلق قطيعة إبستمولوجية مع هذه المعتقدات و الممارسات –حتى في الوقت الحالي– يبدو أمرا صعبا، لأنها راسخة في طريقة تفكير سكان الريف.

إن بنية المجتمع القبائلي السوسيولوجية، تجعل الأفراد يؤمنون بالسحر و بالمقدسات، بما أن المرأة هي أساس المجتمع، فهي جاهلة، متخلفة و أمية هذا ما يساعد في إستمرارية هده المعتقدات و تثبيتها، لا تملك وسيلة أخرى في تحقيق وظائفها الإجتماعية، فوجدت في السحر وسيلة دفاعية سريعة. تثبت بها مكانتها في المجتمع الذي يرفضها بمجرد إخفاقها في أداء الأدوار المنوطة بها، فسيطرت على الوضع بالسحر و من خلاله غيرت واقعها و أمنت حياتها.
هذه المعتقدات و توظيف المقدس السحري من طرف المرأة الريفية يدفعنا، إلى حصر كل الأفكار، الأراء و المواقف المذكورة في الجانب النظري للدراسة.
ما يمكن أن نخلص إليه، هو أن لا وجود لمجتمع مهما كانت درجة تطوره و تقدمه الحضاري، إستطاع التجرد من فلكلوره، تراثه و ماضيه. المجتمع القبائلي متمسك بثوابته لدرجة تجعله يؤمن بالخرافات ويخاف من كل ما هو غير طبيعي. فكم نسمع من خرافات و إشاعات بعيدة كل البعد عن العلم و المنطق، يتداولها القبائل بل يطبقونها في حياتهم اليومية، خوفا من المجهول، كأن تذبح شاة أمام عتبة كل بيت و إلا سيموت كل أهل القرية. في العام الماضي فقط إنتشرت خرافة في كل منطقة " إفليسن " مفادها، أن رجلا إلتقى بطفل صغير عندما بدأ الحديث معه، تحول إلى شيخ هرم و طلب من الرجل أن يخبر سكان المنطقة بإقامة " زردة " كبيرة في المقامات، يوزع اللحم و الرغيف على الفقراء، إن لم يفعلوا، سيؤدي ذلك إلى موت عدد كبير من السكان. فمعضم القرى، صدقت بهذه الخرافة و طبقتها في الواقع، في ذلك العام، تفاقمت ظاهرة الإنتحار في منطقة القبائل، لأسباب بسيكولوجية و إجتماعية و فسروا هذه الظاهرة بلعنة أصابت المنطقة لعدم خضوع البعض لأمر الشيخ الذي طالبهم "بزردة " تقام في كل قرية.

قد يحكم البعض على هذا المجتمع بأنه بدائي و متخلف، يؤمن بالخرفات و يجعل المقدس السحري وسيلته في الوصول إلى غايته و أهدافه الإجتماعية.
أما نحن فنقول، حبذا لو تمسك المجتمع القبائلي بفلكلوره و تراثه و ماضيه، لأن من إنسلخ عن معتقداته الشعبية، فقد هويته و أصالته، لكن لو تجرد من بعض الممارسات السحرية التي تؤذي و تضر بصحة الفرد و قد تدفعه إلى نتائج وخيمة لا يحمد عقابها. ذلك لا يتأتى إلا بتعديل علاقة الرجل بالمرأة التي تبنى على الحوار، التفاهم، الإخلاص، الحب و الإحترام المتبادل. إثر ذلك تتغير نظرة المجتمع للمرأة الريفية و تتبوء المكانة التي تستحقها كامرأة كاملة، مستقلة تعتمد على شخصيتها و قدراتها المعرفية، تقرر مصيرها بوسائل عقلانية، تبتعد قدر المستطاع عن السحر في الدفاع عن مكانتها و حقوقها الإجتماعية.

الخاتمـــــة

الخاتمة :

منذ أن خلقت البشرية، و الإنسان في بحث حثيث لإكتشاف المجهول و الإحتكاك به، حاول فهم الكون و إستفسر عن كنه الأشياء ليصل إلى الإندماج مع المظاهر الكونية التي طالما أبهرته و طالما تساءل عن حقيقتها و جوهرها ؟ يمكن تفسير فضول الإنسان و سعيه لإدراك الحقائق، بنوع من الإندفاع اللاشعوري نحو الأفضل و الجمال، حبه للحياة و عشقه للطبيعة جعله يتكيف معها و يلتحم مع مظاهرها الغريبة، كلما إقترب منها أكثر، كلما كان حافزه أكبر لإكتساب وضعيات أرقى. تبدو ضرورة البحث عن السعادة الكاملة أمرا لا مفر منه. فإذا شعر الإنسان بخطر يهدده أو بعائق يعرقله في الوصول إلى غايته، بحث عن وسائل و حلول لمشاكله، رفضه للواقع، يجعله يختار وسيلة يراها ناجعة و يعتقد أنها فعالة، تحسن وضعه و مستقبله. قد تظهر هذه الوسيلة بدائية توحي و تعكس تخلف المجتمع، ربما، يتقمص الفرد عادات و أنماط عيش و مواقف تبدو لنا، همجية، بعيدة عن الواقع و المنطق، لكنها في الحقيقة، ناجعة و فعالة بما أنها قادرة على تغيير أوضاع الأفراد و تحسين ظروفهم الإجتماعية، لذلك، لا يجوز لنا الحكم المسبق و التعسفي على سلوكات الأفراد في الإرتقاء بواقعهم الراهن. في هذا تقول "TILLION " : "وراء عادات تبدولأول وهلة في موضع السخرية، الوحشية و الغرابة، غالبا ما تكشف عن المنطق و أحيانا عن الحكمة ". (1)

إنطلاقا من هذه الفكرة، تتجلى صورة المرأة الريفية في منطقة القبائل التي تحافظ على عادات الأجداد و تحمي معتقدات و مقدسات الأولين، بل و تقرر حياتها وفق هذه المعتقدات التي تطبقها من خلال ممارسات سحرية، تبدو للملاحظ أنها بدائية و غريبة، لكنها تمكنت من تغيير واقعها و أثبتت فعاليتها في توظيف المقدس السحري عندما إمتلكت مفاتيح المعرفة و الحكمة و برهنت على قدراتها في هذا المجال، إختارت طرقا سريعة و فعالة، إنها تعرف يقينا أن السحر كفيل بإزاحة المخاوف عنها، هدفها الوحيد، الدفاع عن حقوقها و مكانتها اللائقة في المجتمع. إنها الراعية الأولى للعادات، ترفض الذوبان في التغيرات الإجتماعية و الثقافية الجارفة.

فالفتاة القبائلية التي لم تتزوج تلجأ إلى الساحرة، تستعين بمجوعة من الطقوس بهدف ضمان زواج دائم، إذا لم تبادر بنفسها، فأمها، خالتها أو جدتها ترافقها إلى الساحرة. أمها أيضا، هي التي تنصحها بعقد سحر المحبة لزوجها لإستمرار علاقتهما الزوجية، هي التي تدفعها إلى السحر و إلى التطبيب التقليدي من أجل الإنجاب خوفا من التعرض إلى الطلاق أو إلى فقدان مكانتها في العائلة، فالزواج في نهاية الأمر يفضي إلى نتيجة واحدة هي إستمرارية العائلة بوضع أطفال جدد إلى هذا العالم "وفق رسم بياني ينطبق على الثقافة التقليدية. هكذا يظهر التغير و التحول يعزز التقاليد، كل شيء يجري كما أن في المستوى المحلي، تظهر ردود أفعال دفاعية ضد كل ما هو خارجي، يهدم البنى القديمة " (2) .

(1) TILLION., **le harem et les cousins**, P, 9
(2)DUJARDIN-Camille Lacoste, **A propos d'un travail récent sur une commune de Kabylie maritime**, méthodes d'approche du monde rurale, office des publications universitaires, Alger, 1984, P, 89

المرأة الريفية بثقافتها الأصيلة المنابع، الواضحة المعالم التي تراكمت حقبا طويلة تتوارثها الأجيال و يحفظها الزمن، نجدها – بصفة خاصة – تميل إلى تعزيز مكانتها في العائلة أو في المجتمع باللجوء إلى السحر كوسيلة دفاعية، إذا تعلق الأمر بالدفاع عن زوجها، فإنها تتحول أحيانا إلى ممارسات ربما تؤذي الزوج مباشرة أو تمس المرأة التي تسعى إلى الإستحواذ عليه، فتصبح عدوة للزوجة، نجدها تقف لها بالمرصاد و هي في أتم الإستعداد للقيام بأي عمل سحري مهما كانت بدانيته، مها كانت درجة خطورته و وحشيته، المهم أن تسترجع حب زوجها، تحافظ على إستمرار العلاقة الزوجية بكل الطرق و الوسائل المتاحة لها. لهذا عندما تحدثنا في النظري عن نوع هذا السحر الذي تمارسه المرأة في إمتلاك زوجها، قلنا أنه سحر إيجابي، ما دام لا يعرض الفرد إلى أخطار، أي لا يحمل بوادر الشر و الكراهية و العداوة للغير. لكن إذا تمعننا جيدا في طبيعة السحر الذي تمارسه الزوجة على زوجها، خاصة إذا وجدت إمرأة ثانية في حياته تعتبر – في هذه الحالة– عدوة لدودة للزوجة، بحيث لاتتوانى في إيذائها. هنا يظهر السحر الإيجابي و السحر السلبي عبارة عن أقنعة تخفي الوجه الحقيقي للسحر الذي يحمل في الأصل، صراعا ضد الواقع، تغييره يستلزم إقتفاء آثار السحر بنوعين. كل من يستطيع فك السحر، بالضرورة قادر على عقده. إنها حقيقة ثابتة، لاحظناها في الميدان، أغلبية الساحرات اللواتي قمنا بزيارتهن أكدن أنهن يتوصلن إلى نتائج إيجابية، كما تنتج عن أعمالهن عواقب سلبية، هذا يتعلق بطلب المرأة و الهدف الذي تسعى إليه، فالساحرة تنفذ المطالب وتحقق الرغبات بالإستعانة بكل ما تملكه من طاقة وقدرة سحرية لتحويل كل ما هو طبيعي إلى غير طبيعي. تغير الراهن الذي يتسم بالشقاء و التعاسة إلى مستقبل أفضل.

فالفتاة المتأخرة عن الزواج تشعر بالحرمان و النقص، تريد تغيير واقعها. سبيلها إلى ذلك هو السحر كذلك المرأة التي تراعي دوما ودائما علاقتها الزوجية، تستعين بالسحر لضمان مكانتها في عائلة الزوج. سيما التي لم تنجب بعد سنوات من الزواج، ترى نفسها مختلفة عن بقية النساء، رغبتها في أن تصبح أما تدفعها بإلحاح إلى تغيير حياتها وتعديل وضعيتها بل و تثبيتها، ذلك يتأتى بواسطة السحر، إنه الوسيلة الفعالة التي تتفنها المرأة الريفية، من خلالها أثبتت فعاليتها، حققت رغباتها و حاجاتها الأساسية التي مكنتها من الإرتقاء إجتماعيا. بالتالي، فإن السحر في منطقة القبائل ممارسة تتعلق أولا بالمرأة ثم بالعائلة وأخيرا بالمجتمع. بماأنها وسيلة ترمز إلى تغيير الواقع. تنبثق في إطار هذه الممارسات نتائج ملموسة هي :

1– السحر ممارسة خاصة بالمرأة الريفية، توظفه لتثبيت مكانتها في المجتمع.

2– السحر في منطقة القبائل قضية كل العائلة، لأن الفشل في أداء وظيفة إجتماعية من طرف المرأة التي تعتبر الخلية الساسية للعائلة تتماسك بقوتها و تتدهور بضعفها، فوضعية المرأة في العائلة يطبعها التحفظ، الحذر، الحساسية الشديدة لأنها تمثل الشرف و الكرامة التي ترتكن عليها كل العائلة.

3 – يظهر السحر على أنه مسألة فردية، تهدف إلى تغيير وضعية شخصية، لكنه في الحقيقة يهدف إلى تحقيق وظائف إجتماعية ترمي إلى الزواج ثم الحفاظ على إستمراريته و الوصول عن طريقه إلى الإنجاب، فعدم تحقيق هذه الوظائف، يجعل المرأة الريفية مرفوضة في المجتمع القبائلي.

4 – ممارسة السحر في منطقة القبائل ظاهرة عادية، شريطة أن يتعلق بالسحر الإيجابي الذي يهدف إلى الإستشفاء و الحب و إ بعاد العين و الحسد. أما السحر السلبي الذي يضمر الشر و إيذاء الغير، فنظرة المجتمع إليه مختلفة، يصنفها من بين الممارسات البعيدة عن روح الدين الإسلامي و تناقض الشريعة الإسلامية.

5 – زيارة المقدسات، الأولياء، المقامات، الإحتفالات بالمواسم الدينية، إقامة " الوعدات" و"الزردات " في الأماكن المقدسة، باعتبارها محمية من قبل حراس المنطقة و أوليائها، فهي بالعكس، إمتداد للدين الإسلامي، فالمعتقدات الشعبية التي تهدف إلى الخير، النماء، الخصوبة و التبرك بالمقدسات لا تعارض الدين الإسلامي، بل يعتقد القبائل أن الإبتعاد عنها هو إبتعاد عن الدين.

نقول في الأخير، بعد هذه الحوصلة، أننا أمام ظاهرة إنسانية، تعكس أولا و قبل كل شيء أحاسيس المرأة الريفية، مشاعرها، مخاوفها، آلامها و رغباتها في الوصول إلى السعادة و الإطمئنان. فالعقل و الذكاء، يرفض علينا أن نهتم بها، و نحاول فهم مواقفها المتجلية في توظيفها للمقدس السحري، إنطلاقا من فكرة أن كل ما ينبع من الإنسان جدير بالعناية و الإلتفاتة و الإهتمام، علينا أن ندرك قيمة هذه الممارسات التي تنطوي على رموز جوهرية، تسعى المرأة من خلالها إلى فرض وجودها في المجتمع و ما إستمرار هذه المعتقدات سوى دليل قاطع على دفاع المرأة الريفية عن مكانتها و على حياتها بصفة عامة.

عوض إخفاء هذه المعتقدات و نكران حقيقة وجود السحر في أيامنا هذه، كأنه عيب من عيوب المجتمع، يكون من الأفضل علينا جمع هذه الممارسات الشعبية بإهتمام لدراستها و مقارنتها لإستخلاص أحسن النتائج التي تثري رصيد الدراسات الأنتروبولوجية.

البيبليوغرافيـــــــا

1-باللغة العربية :

أ- في الأدب الشعبي :

1.الجوهري محمد، **علم الفلكلور**، ج1،ط4، دار المعارف، القاهرة، 1984
2.العنتيل فوزي، **الفلكلور ما هو ؟**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1965.
3.توفيق نهاد نعمة، **الجن في الأدب العربي**، بيروت، 1961.

ب-الثقافة و المجتمع :

1.الميلي محمد، **تاريخ الجزائر في القديم و الحديث**، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، 1976.
2.روزالدو ميشيل زمبلست، لا مفيرلوويز، **المرأة الثقافة و المجتمع**، ت، هيفاء هاشم، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق، 1976.
3.طوالبي نور الدين، **الدين و الطقوس و التغيرات**، ت، وجيه البعيني، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1988.
4._____ ، **في إشكالية المقدس**، ت، وجيه البعيني، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1988.

جـ- إسلاميات :

1.إبن القيم الجوزية، **زاد المعاد**، ج1، ط8، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، 1985.
2.الأولوسي البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني**، ج13، 14، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)
3.الأولوسي البغدادي، _____، ج1، ط4، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985.
4.أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج20، ط2، (دون دار نشر)، (دون تاريخ).
5.شلتوت محمد، **الفتاوى، دراسة لمشكلات المسلم المعاصر في حياته اليومية و العامة**، ط7، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1974.
6.طبارة عفيف عبد الفتاح، **روح الدين الإسلامي**، ط8، دار العلم للملايين، بيروت، 1969.

II-باللغة الفرنسية : I La Méthodologie

1-AUGERS maurice, initiation pratique à la méthodologie des sciences humaines, casbah édition, ALGER, 1997.

2-BLANCHET Alain, GOTMAN Anne, l'enquête et ses méthodes, l'entretien, édition nathan, PARIS, 1992.

3-DEKETELE Jean-Marie, ROGIERS Xavier, méthodologie du recueil D'information, 3ème édition, deboeck université, Paris, Bruxelles, 1996.

4-GHIGLIONE Rodolphe, MATALAN Benjamin, les enquêtes sociologiques, théories et pratique, 4ème édition, ARMAND Calin, Paris, 1985.

5-GUIBERT Jocil, JUMEL Guy, méthodologie des pratiques de terrain en sciences humaines et sociales, éditeur ARMAND Calin, Masson, Paris, 1997.

6-HUTHER Jacques Coenen, Observation participante et théorie sociologique, édition l'hamarttan, paris, 1995.

7-MACE Gordan, Guide d'élaboration d'un projet de recherche, présses de l'université Laval, Quebec, Canada, 1988.

8-Méthodes d'approche du monde rural, office des publications universitaires, Alger, 1984.

9-SAADA-Jeanne FAVRET, Corps pour corps, Enquête sur la Sorcellerie dans le bocage, Edition Gallimard, France, 1981.

II Anthropologie :

1-BAROIN Catherine, CAMPS Gabriél, GART Marceau et D'autres, Islam, Société et Communauté, anthropologie du maghreb, centre de recherche et d'étude sur les sociétés méditeranéennes, éditions du centre national de la recherche scientique, Paris, 1981.

2-BOUTEILLER Marcelle, Médecine populaire d'hier et d'aujour d'hui, édition Mesonneuve et Larose, Paris, 1987.

3-CLASTRES piérre, l'esprit des lois sauvage, édition Du seuil, Paris, 1987.

4-GOFFMAN Erving, Les rites d'intéraction, Traduction par ALIN Kihm, édition de minuit, Paris, 1974.

5-KAYSER Bernard, les sociétés rurales de la méditérranée, Traduction de Geneviève Moore, BERNARD Kayser, édissud, Ex-emprovence, 1986.

6-LEVI-STRAUSS Claude, La pensé sauvage, librairie plan, Paris, 1962.

7-MOHIAT-NAVET Nadia, les thérapies traditionnelles dans la société Kabyle, pour une anthropologie psychanalytique, édition, l'HAMARTAN, Paris, 1993..

8-MUCCHIELLI Arlette, ALEXANDRE Vexliard, l'homme et ses potentialités, étude en hommage à Roger MUCCHIELLI, les éditions E.S.F., Paris, 1984

9-PRITCHARD Evans, les authropologues Face à l'Histoire et à la religion, P.U.F., Paris, 1974.

10-THOMAS Louis-Vincent, Anthropologie des obsessions, Edition l'hamarttan, Paris, 1988.

11-YACINE-TITOUH Tassadite, Les voleurs de feu, Elément d'une authropologie sociale et culturelle de l'Algérie, édition la découverte, Paris, 1993.

III Magie et Religion :

1-ANTOINE Rony-Jerome, La magie, que sais je ?, 3ème édition, présses universitaires de France, Paris, 1959.

2-BESSY Maurice, Bilan de la magie, édition albin Michel, Paris, 1964.

3-BONNEFOY Claude, Science et magie, la nouvelle encyclopédie, librairie HACHETTE, France, 1964.

4-CALLOIS Roger, L'Homme et le sacré, édition Gallimard, France, 1950.

5-CHELHOD Joseph, Les structures du sacré chez les arabes, édition Maisonneuve et Larose, Paris, 1986.

6-DURKEIM Emile, Les formes élémentaires, de la vie religieuse, édition alcon, Paris, 1937.

7-DERMENGHEIM Emile, Le culte des saints dans l'islam Maghrébin, édition Gallimard, Paris, 1954.

8-ELIADE Mircea, Images et symbolismes, éssais sur le symbolisme magico-religieux, édition Gallimard, France, 1954.

9-_____, Le sacré et le profane, édition Gallimard, Paris, 1965.

10-GIRARD René, La violence et le sacré, édition Grasset, 1972.

11-ISAMBERT Francois, Religion Populaire, extrait des archives de sciences sociales des religions, 1977.

12-LEVINAS Emanuel, du Sacré au saint, édition de minuit, Paris, 1977.

13-LEWIS (I.M), Les Religions de l'éxtase, Présses Universitaire de France, Paris, 1977.

14-VILLENEUVE Rolland, l'Envoutement, la platine, Genève et Paris, 1963.

IV Culture et Science :

1 - ABADIR RAMZI Samia, La femme arabe au maghreb et au Machrek, Entreprise national du livre, Alger, 1986.

2 - AIT AMAR OU SAID Yamina, le Mariage en Kabylie, Traduction de s'lois de vencennes, 2ème partie, F.D.B., fort national, grande Kabylie, Traduction de s'louis de vencennes, 2ème partie, F.D.B., fort national, grande Kabylie, 1960.

3 - BOURDIEU pierre, Sociologie de l'Algérie, que sais je ?, Présses universitaires de France, 1970.

4 - BOUZAR Wadi, la mouvance et la pause, regard sur la société Algériénne, société nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1983.

5 - BENOUN Mahfoud, les Algériennes, victimes de la société néopatriarcale, édition Marinoor, Alger, 1999.

6 - CASENEUVE Jean, Sociologie du rite, présses universitaires de France, Paris, 1971.

7-CHAULET Claudine, La Terre, les Frères l'Argent, tome1, office des publications universitaires, Alger, 1987.

8-DEJEUX Jean, Femme d'Algérie, légendes, tradition, histroire, litterature, la boite de document, Paris, 1987.

9-GENEVOIS Henri, Un village Kabyle, Taguemount Azouz des Beni-Mahmoud, F.D.B., Fort National, 1972.

10-_____, La femme Kabyle, les travaux et les Jours, F.D.B., N° 103, Fort National, 1969.

11-_____, Education familiale en Kabylie, F.D.B., N° 83, Fort National, 1966.

12-HANOTEAU (A), LETOURNEUX (A), La Kabylie et les Coutumes Kabyles, tome II, 2ème édition, Paris, 1893.

13-_____, La Kabylie et les Coutumes Kabyles, Tome I.

14-KHODJA Souad, A Comme Algériennes, édition ENAL, Alger, 1991.

15-LACOSTE Dujardin Camille, Des mères contre les femmes, maternité et patriarcat au Maghreb, édition Bouchène, Alger, 1990.

16-_____, Un Village Algérien structures et évolution récente, centre de recherche arthropologique Préhistoriques et éthnographiques, Alger, 1976.

17-LAOUSTE CHANTREAUX Germaine, Kabylie Côté femmes, la vie féminine à Ait Hichem, 1937, 1939, présentation de Camille Lacoste Dujardin, Archives Maghrébines, EDISUD, Aix-en provence, 1990.

18-LEFEVRE-LAURE Bousquet, La Femme Kabyle, bibliothèque des questions Nord-Africaines, volume 3, Paris, 1939.

19-MAUSS Marcel, Les fonctions Sociales du Sacré, Edition de minuit, Paris, 1968.

20-_____, Manuel d'éthnographie, Présses universitaires de France, Paris, 1939.

21-NAWAL Yasmina, Les Femmes dans l'islam, édition la Bréche, Paris, 1980.

22-OUITIS Aissa, Les contradictions Sociales et leur Expréssions Symbolique dans le sétifois, S.N.E.D., C.R.A.P.E., Alger, 1977.

23-PLANTADE Ndjima, La Guérre des femmes, magie et amour en Algérie, la boite de document, Paris, 1988.

24-SERVIER Jean, Tradition et Civilisation Bérbères, Les portes de l'Année, édition du Rocher, Monaco, 1985.

25-_____, Les Bérbères, que sais je ? présses Universitaires de France, Paris, 1990.

26-TOUALBI Nouredine, La Circoncision, bléssure narcissique ou promotion sociale, S.N.E.D., Alger, 1975.

27-VIRGIER Rene, La Femme Kabyle, les éditions VEGA, Paris, 1932.

28-ZERDOUMI Nafissa, Enfant d'hier, l'éduction de l'enfant en milieu traditionnel Algérien, librairie Francois Maspéro, Paris, 1982.

V Histoire :

1-Anonyme, éxploration scientifique de l'Algérie pendant 1840,1841, 1842, sciences historiques et géographiques, imprimerie nationale, paris, (sans date).

2-BENACHENHOU Abdelhamid, Connaissance du Maghreb, Nations d'éthnographie, d'histoire et de sociologie, éditions populaires de l'armée, Alger, 1971.

3-DAUMAS (M), FABAR (M), La Grande Kabylie, étude historique, librairie royale de France, Paris, 1847.

4-GENEVOIS Henri, Elément historiques et folkloriques pour servir à l'étude d'un sécteur de Kabylie, (sans édition), (sans pays), (sans année).

VI Droit :

1-BENMALHA Ghouti, le droit Algérien de la famille, offices des publications universitaires, Alger, 1993.

2-SAADI Nourdine, La femme et la loi en Algérie, édition Bouchène, Alger, 1991.

VII Folklore, Litterature Populaire :

1-FERRAOUN Mouloud, Jour de Kabylie, édition Bouchène, Alger, 1990.

2-Roman, La terre et le Sang, E.N.A.G. éditions, Alger, 1988.

3-MAMMERI Mouloud, Les Isfras de Si Mohand, éditions de la Fondation, Paris, 1978.

VIII Littérature et Romans :

1- BOUDJEDRA Rachid, La Répudiation, édition dénoeîl, France, 1969.

2-Khada Nadjet, Représentation de la Féménité dans le Roman Algérien de la Longue Francaise, office des publications universitaires, Alger, 1991.

3-PLANTADE Nedjima, L'honneur et l'amertume, édition Ballond, Paris, 1993.

4-TILLION Germaine, Le Harem et les cousins, édition du seuil, Paris, 1966.

Thèse

1-Thèse de majister, Hadibi Mohand Akli, étude d'éscriptive et analytique des pratiques socio-culturelles dans un lieu saint en Kabylie, le cas de wédris pendant les années quatre vingt dix, Fanny Colonna, universite de Tizi-Ouzou, département de langue et culture Amazigh, sociologie anthropologie, décembre, 1994.

Revues et périodiques

1-DEVULDER (M), « Rituel des femmes Kabyles », éxtrait de la revue Africaine, Tome CI, N° 452, 453, 3ème et 4ème trimestre, société historique Algérienne, Alger, 1957.

2-MEYER Alph, « Origine des Habitants de la Kabylie », Revue Africaine, N° 3, édition, O.P.U., 1958, 1959.

3-BOUKHOBZA M'hamed, « la Mobilité Féminine à travers les relations villes-compagnes », questions de sciences sociales, Organisme National de la Recherche Scientifique, Travaux de groupe 1, Septembre, 1978.

4-KABRI Khelifa, « Agriculture Matériel Agricole et Irrigation », Tome 1, convention d'étude et de recherche, C.R.E.A.D., Tizi-Ouzou, (sans année).

Dictionnaires et Encyclopédies

1-DALLET (J.M), Dictionnaire Kabyle. Français, Société d'études l'inguistiques et authropologiques de France, Paris, 1982.

2-Dictionnaire de Sociologie, Larousse, éditions Françaises, Canada, 1987.

3-Encyclopédie du Monde actuel, l'antropologie, colléction dirigée par charles henri Favrod, 1977.

قائمة المراجع المطلع عليها و التي لم ترد في الهوامش :

1- ALFRED Bel, « La ANSRA », feux et rites de solstice d'été en Bérbérie, éxtrait Des mélanges Gaudefroy, dermombynes, (sans pays), (sans année).

2-« ASENSI OU Tebeat », notes à propos d'une pratique mortuaire dans la région de Tizi-Ouzou, Lybyca, N° XXVIII-XXIX, S.N.E.D., Alger, 1981.

3-DOUTTE Edmond, Magie et religion dans l'Afrique du Nord, Alger, Jourdan, 1909.

4-DESPARMET (J), Le Mal Magique,Jules Carbonel, Alger, 1932.

5-HACOUN Pièrre, l'Evolution des coutumes Kabyles, l'éxérédation des femmes et la pratique du Habous, Ancienne maison bastide-Jourdan, Jules carbonel, Alger, 1921.

6-MUSSO (J.M), Dépot rituels des sanctuaires ruraux de la grande Kabylie, mémoires du CRAPE, XVII, Alger, 1971.

7-MAUSS Marcel, Esquisse d'une théorie générale de la magie, en sociologie et authropologie, P.U.F., Paris, 1980, [1950].

8-Megherbi Abdelghani, la pensée sociologique d'Ibn Khaldoun, SNED, Alger, 1971.

9-Idem, culture et personnalité en Algérie (De Massinissa à nos jours), ENAL Alger, OPU, Alger, 1986.

10-SAADA Jeanne FAVRET, Les mots, la mort, les sorts, Gallimard, Paris, 1977.

11-Valeur du Sang, rites et pratiques à intention sacrificielle, contribution à l'étude de la pensé religieuse et de ses modes d'éxpréssion, F.D.B. , N° 84, Fort National, 1964 (IV).

الملحـــــق

شرح بعض المصطلحات الواردة في البحث :

الخوان : كلمة مشتقة من الأخويات الإسلامية، هم فئة المريدين الذين يأخذون العهد من شيخ الطريقة و يسيرون على سهاجه.

البركة : يقصد بها عناية المرابطين، بما أنهم ينتسبون إلى جدهم الأول الذي يكون وليا صالحا، تنتقل إليهم البركة و العناية بالوراثة.

الحضرة : تشتق من الكلمة العربية " حضر" و هو فعل يعني في الأحتفال السحري وجود قوى خفية بين البشر.

الوعدة : تحمل معنيين: الأول، يقصد به إقامة إحتفال ديني صغير بمثابة صدقة، تقيمها العائلة و الأقارب فهي محصورة في فضاء ضيق. عادة ما تخرج إلى المسجد أو توزع على الجيران و الأقارب.
بينما المعنى الثاني، يقصد به المبلغ المالي الذي تقدمه الزائرة للساحرة، واحدة تعدها بالمال و أخرى تعدها بكشف الغيب.

الزردة : إحتفال شعبي كبير، يأخذ حيزا واسعا، يقام عادة عند الولي، أو في مكان مقدس. يضم كل أهل القرية و حتى القرى المجاورة.

السمخ : مادة تقليدية، تصنع من صوف الخروف الغير مغسولة، تذوب على نار هادئة، و ترش بالماء و الملح، تعجن جيدا، ثم توضع في مدواة. تضاف إليها قطرات من الماء حتى تصبح حبرا، يكتب به طلبة الزوايا ألواحهم، تستعمل أيضا لكتابة الأحجية، التمائم التي تجلب الحظ للفتيات ولمحبة الأزواج و للوقاية من التابعة التي تعيق المرأة من الإنجاب. لنا نماذج مكتوبة بالسمخ، توضح لنا طبيعة هذه المادة.

الميثاق : العهد الذي يعطيه الشيخ لأتباعه، يتجسد في السبحة التي يعلقها الأتباع على عنقهم.

شايلله : لفظ يستعمل للدلالة على التعجب من قدرات و إمكانيات الساحرة.

الزيارة : مصطلح شعبي يقصد به الكشف عن الغيب. كما تدل على المبلغ المالي الذي تقدمه الزائرة للساحرة.

الحجب : كلمة مشتقة من فعل " حجب " بمعنى وضع حجابا أو حاجزا. توظف في السحر للدلالة على ربط الزوج بإحاطته بمجموعة من الحواجز تمنع إمرأة أخرى من الإقتراب منه.

الضيافة : (ثاضيافث) : هي الذبيحة التي تقدم قربانا للأولياء و الأسياد، أو من طرف المصروعين، حتى يخرج الجن من بدنهم.

الوكيلة (ثاوكيلت) : كلمة تتكرر في خطاب الساحرات، تعني روح الولية التي تسكن جسدها أو الجنية التي صرعتها.

طقوس تقوم بها المرأة القبائلية، كي يحبها زوجها و لا يتركها من أجل إمرأة أخرى.

الطقس الأول :

في صباح اليوم الأول من زفاف الفتاة، قبل أن تغادر بيت أهلها، تحضر أمها عجوزا عارفة بأمور السحر، تأخذ دجاجة في الوقت الذي تبيض فيه (إنه شرط فعالية هذا الطقس). تضع فوقها سرج الحصان، ثم تجلس عليه الفتاة و تغسل بماء جلبته من عين جارية، بعدما يبيت للنجوم ثلاثة أيام، عندما تغسل بالماء المقدس تقول : " سغمغكم أف ثبرذا أتفغاض يوث أتوفغا، أقول أبرقازيم أتليض تسدا، ذوليم أيعدين أما قخام أما إبرا ". بمعنى : أجلسك فوق السرج، ستخرجين مرة واحدة (لا تطلقين)، تكونين في قلب زوجك كاللبؤة، كلمتك مسموعة دائما في البيت أو في الخارج .

الطقس الثاني :

تأخذ الزوجة ماء جلبته من عين قوية، تجري بدون إنقطاع، تبيته للنجوم من السبت إلى الثلاثاء، قبل طلوع شمس اليوم الأخير، تصب الماء على سقف المنزل، ينزل قطرات داخل إناء محضر من قبل لهذا الغرض و تقول : " أذصفو وليك فلي (تذكر إسم الزوج و إسم أمه) أكن ثصف الساقية أبمان ". أي سيكون قلبك إتجاهي صافيا يافلان، كصفاء ساقية الماء . تعطي هذا الماء لزوجها يشربه، فيحبها و يزداد تعلقه بها .

الطقس الثالث :

تترقب الزوجة آثار أقدام زوجها، تأخذ حفنة من التراب التي عليها أثار قدم الزوج و تقول : " رفذغد تسكولت أضاريك سزنز، لمحباو أكدرز أكن درز ثفذنت أقذر" . بمعنى أخذت أثار قدمك بحذر شديد، حبي سيشملك، كما تشمل الأصابع القدم . هذا التراب، تضاف إليه عقاقير، كالتهجيجة التي تهيجه و الشنشافة التي تجعله ناشفا إذ لم يرها بالإضافة إلى العقاقير الأخرى التي تهيج الرجل و تجعله مجنونا بحب زوجته، تترك كل هذه المواد في خرقة قماش، تحت السرير، في البيت أو تكون مع الزوجة دائما .

الطقس الرابع : لربط الزوج مدى الحياة .

تأخذ المرأة لباس زوجها، سرواله مثلا، تقطعه إلى سبعة قطع، تكون السابعة طويلة و عريضة. أما الست قطع تكون على شكل شرائط أو لفائف طويلة، ثم تأخذ بيضة دجاجة سوداء تلف حولها قطعة القماش الأولى و تقول : " سرسغام ستة ألبوس ثيس سبعة ذبرنوس لفلان (...) أيتزوجر ألما إدفغ أذقم افلوس "، أي ألبستك ستة ألبسة السابعة برنوس فلان (تذكر إسمه)، لن يتزوج حتى تفقصي. ثم تلف على البيضة قطعة القماش الثانية و تردد نفس القول. هكذا دواليك، حتى تصل إلى القطعة السابعة، تغطي بها كل البيضة، بحيث لا تظهر منها شيىء و تعيد القول السابق، بعدها تدفنها في قبر مهجور. أو تذهب بها إلى شجرة حنضل تكون وحيدة، لا يوجد في ذلك المكان سواها، تدفن البيضة في جذورها .

الطقس الخامس : لسيطرة الزوجة على زوجها .

تمزج المرأة قطعة الشنشافة (منشفة البحر) مع خيط من حزامها و حب السكت تضيف كمية من التراب الذي يقف عليه طائر يعرف بسكوته الدائم، إنه الملك الحزين، تعطي كمية قليلة حسب تعليمات الساحرة، لزوجها تمزجها مع طعامه و تقول : " سلام عليك أيسغي إمدمدم أند إنولا أكليك أتندم، أكسشغ إورقازيو أحبيب أريكاث أ ريرقم "، أي : السلام عليك أيها الملك الحزين، أين وجدنا ترابك أخذناه، أعطيه لزوجي الحبيب يأكله فلا يضربني و لا يرفع صوته عني .
بهذا الطقس يصبح الزوج أعمى أمام تصرفات زوجته، ساكتا كالملك الحزين .

حجاب كتب لجاب الحظ للفتاة من أجل الزواج و يتكون من ورقتين :

الورقة الأولى :

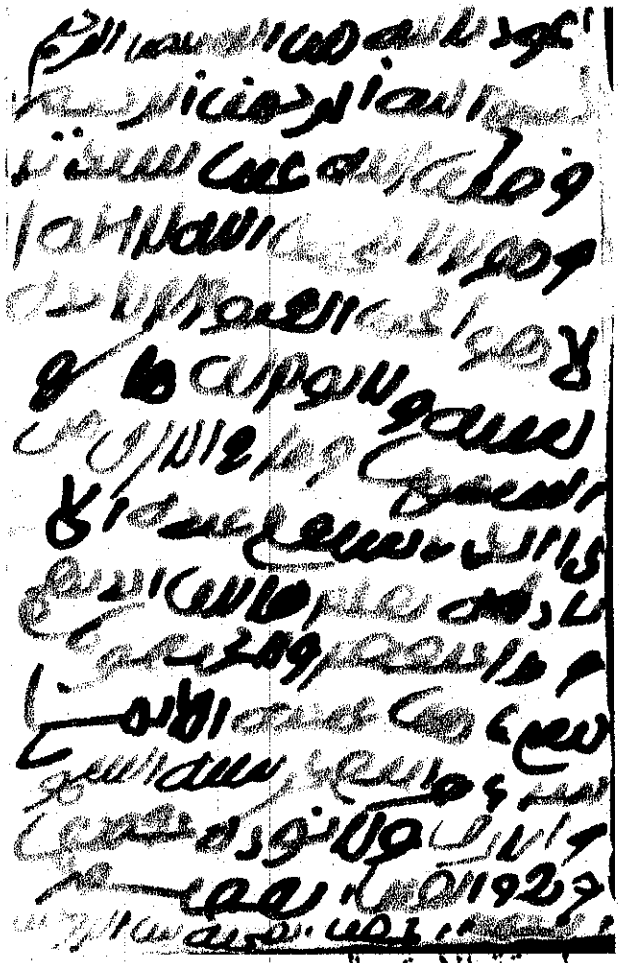

الورقة الثانية :

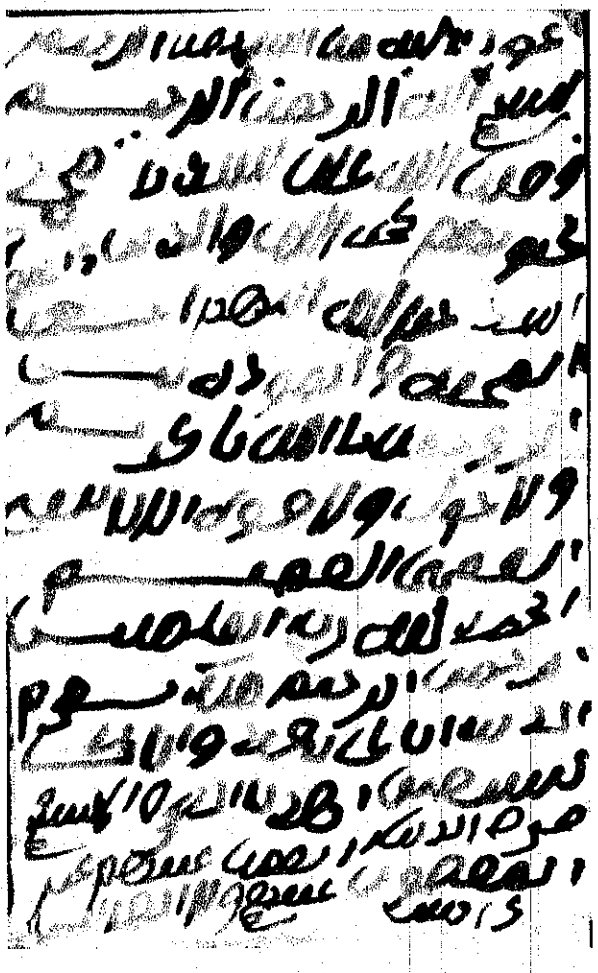

طريقة الإستعمال :

تمحي الفتاة الورقة الأولى في كمية معتبرة من الماء .تشرب قليلا منه، تربط الحناء في يدها اليمنى بكمية قليلة من هذا الماء المقدس و الباقي تطليه على كل جسدها، تقوم بها الطقس مدة ثلاثة أيام .

بعدها تأخذ الورقة الثانية، تمحيها في الماء، تشرب كمية منه و تربط الحناء مدة ثلاثة أيام. في اليوم الرابع تطهر نفسها بهذا الماء و تغسل به جسدها من الرقبة إلى الركبتين. هكذا إذن يستعمل هذا الحجاب مدة سبعة أيام، ثم ترمي الفتاة الماء الذي غسلت به إلى مفترق الطرق و قليل منه إلى الزهور. أما الأوراق المكتوبة تحرقها أو تدفنها لأن كتب عليها إسم الله.

حجاب كتب للمحبة يتكون من ورقتين :

الورقة الأولى :

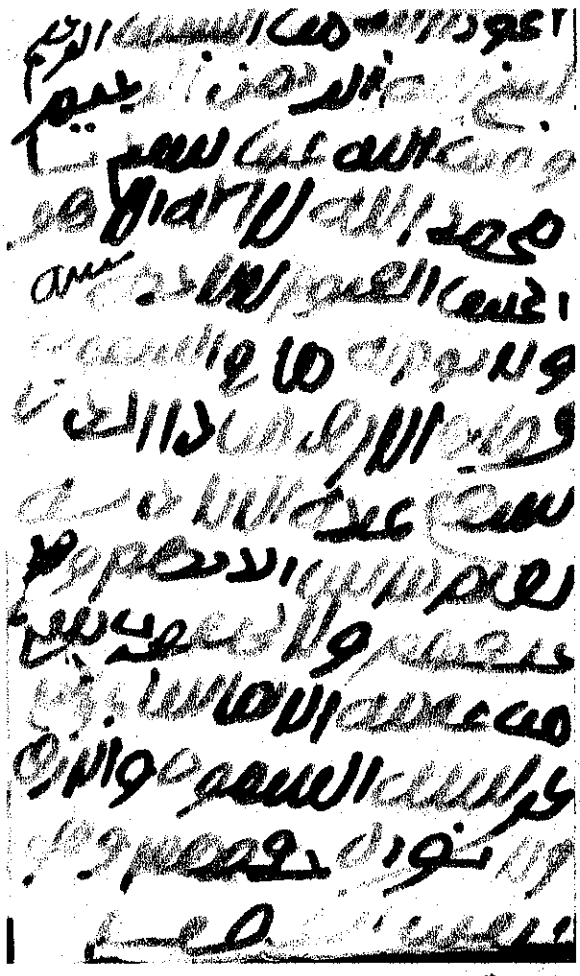

الورقة الثانية :

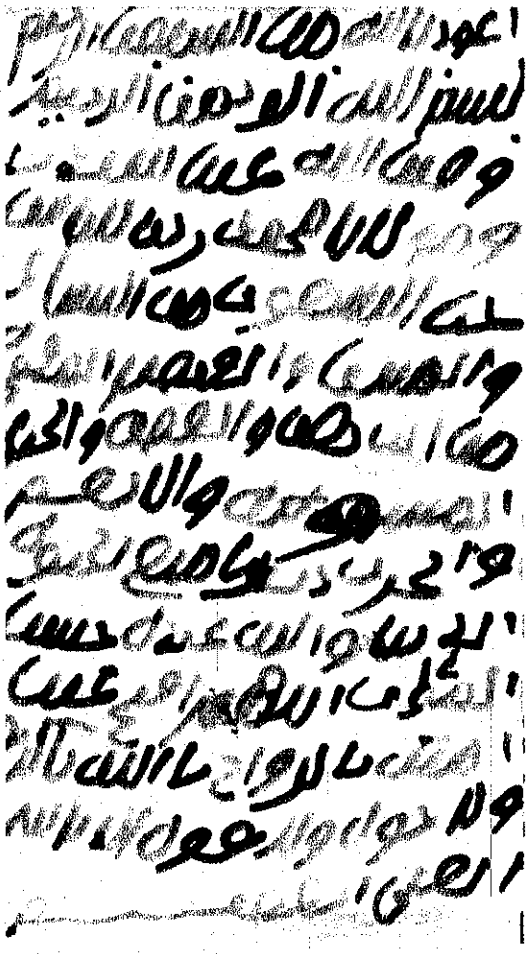

طريقة الإستعمال :

تمحي المرأة الورقة الأولى في الماء، تعطي لزوجها من هذا الماء يشربه و تضيف قطرات منه إلى القهوة أو الشاي شريطة أن لا يطبخ هذا الماء و إلا فقد فعاليته، تستمر في تقديم هذا الماء لزوجها مدة يوم و نصف، أي تتوقف بعد الظهر. في اليوم التالي، تمحي الورقة الثانية في الماء، تقسمه إلى نصفين : النصف الأول تضيفه لشراب زوجها مدة يوم ونصف . النصف الثاني، تشرب منه قليلا، الباقي تطلي به جسدها، تقوم بهذا الطقس الأخير بعد الظهر، لتتم ثلاثة أيام .

حجابين كتبا لإسترجاع زوج ترك زوجته من أجل إمرأة أخرى .

الحجاب الأول :

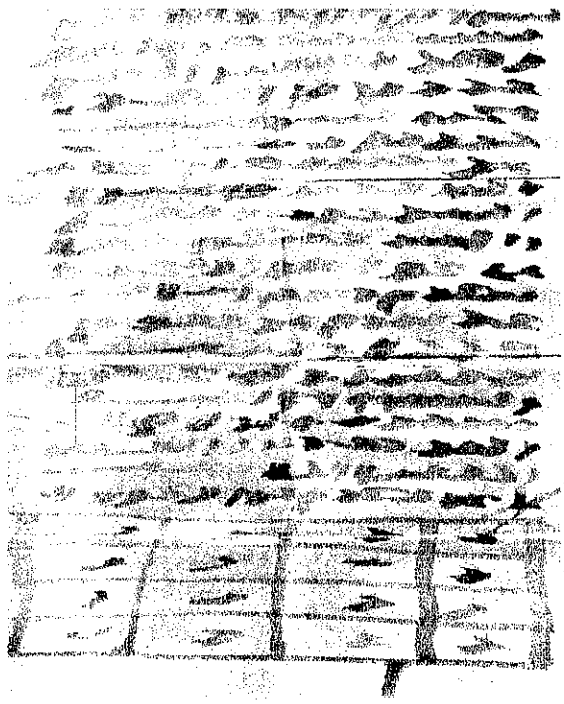

كتب بمادة السمخ، على ضوء النجوم يوم السبت، يستعمل بنفس الطريقة التي رأيناها في حجاب المحبة .

الحجاب الثاني :

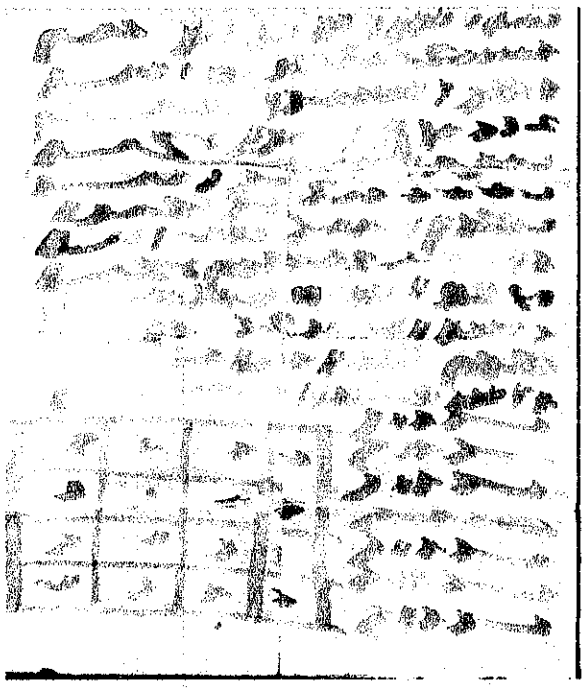

كتب على ضوء النجوم، يوم الثلاثاء، يستعمل بالطريقة التي تعرضنا إليها في حجاب المحبة .

حجابين كتبا لقطع التابعة التي تعرقل المرأة من الإنجاب .

الحجاب الأول

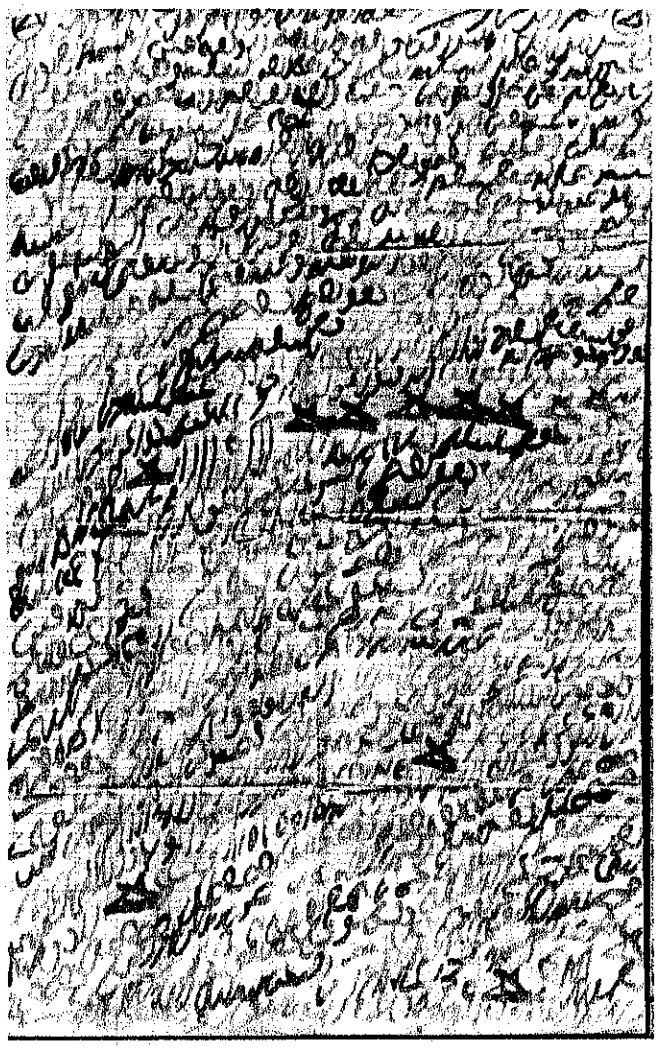

الحجاب الثاني

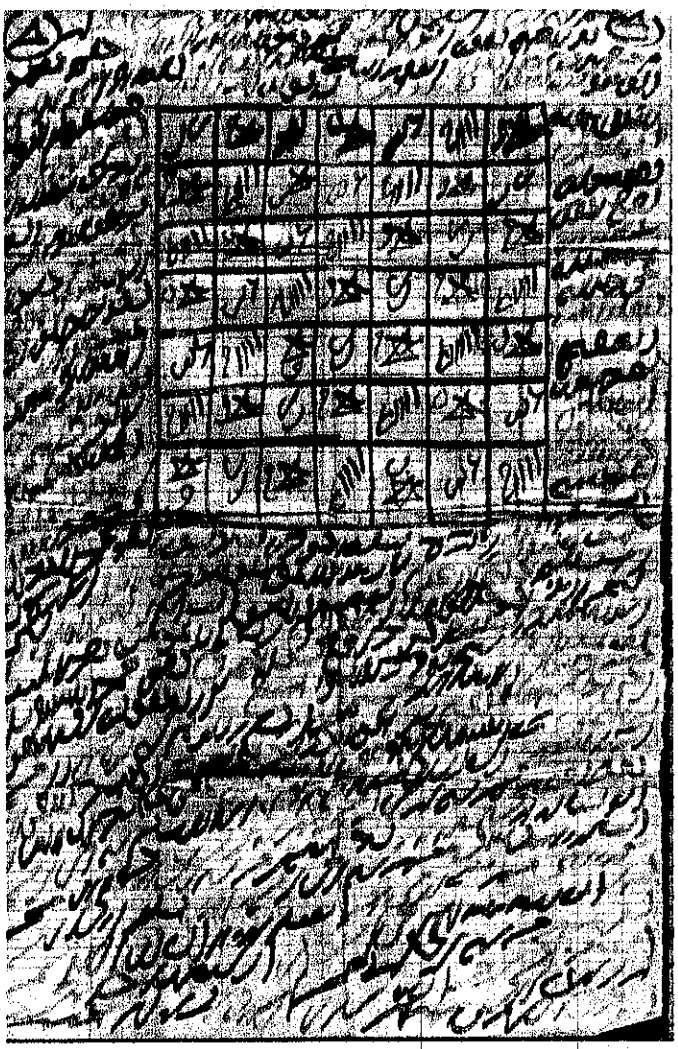

هذين الحجابين تحملهما المرأة دائما معها حتى تنجب، أكدت صاحبتها أنها أنجبت بعد أربعة عشر سنة من العقم، تعتقد أن ذلك يعود إلى فعالية الحجاب .

نموذج من المقابلة :

I- الأسئلة المطروحة على الفتيات الراغبات في الزواج :

1. كم عمرك؟
2. هل تعملين أم ماكثة في البيت ؟
3. لماذا جئت إلى الساحرة ؟
4. هل تزورين الساحرة لأول مرة ؟
5. هل تعتقدين في قدرات الساحرة ؟
6. ما هو شعورك عندما تزورين الساحرة ؟
7. هل أنت مستعدة لزيارة الساحرة حتى تتحقق رغبتك ؟

II-الأسئلة الموجهة للنساء اللواتي يعقدن السحر لأزواجهن :

1. لمذا جئت إلى الساحرة ؟
2. هل تشكين في إخلاص زوجك ؟
3. لمذا تريدين عقد السحر لزوجك ؟
4. هل تزورين الساحرة بإستمرار ؟
5. إلى أي مدى تطبقين تعليمات الساحرة ؟
6. هل حدث تغير في علاقتكما بعد ممارسة السحر ؟
7. إلى متى ستواصلين عقد السحر لزوجك ؟

III- الأسئلة الموجهة للنساء اللواتي يوظفن السحر للإنجاب :

1. ما هو سبب زيارتك للساحرة ؟
2. هل هي زيارتك الأولى ؟
3. متى تزوجت ؟
4. إلى أي مدى يشكل العقم خطرا في حياتك ؟
5. هل وجدت عند الساحرة ما لم تجدينه عند الطبيب ؟
6. هل أنجبت نساء أخريات عن طريق السحر ؟
7. هل تواصلين في زيارة الساحرة حتى يحدث الحمل ؟

الخريطـــــة الطوبوغرافيـــة
لمنطقـــــة " تيزي وزو"